الثَّقافة الإسلاميَّة

الكتاب المقرر لمساق الثقافة الإسلامية

المؤلفون

أساتذة كلية الشريعة في جامعة النجاح الوطنية

مرتبون حسب الحروف الهجائية

أ.د. أمير عبد العزيز، د. أيمن الدباغ، د. جمال حشاش، أ.د. جمال الكيلاني، د.حسن خضر، د. حسين النقيب، د. خالد علوان، د.خضر سوندك، أ. رائق الصعيدي، د. عبد الله أبو وهدان، أ. علاء مقبول، أ.د. عودة عبدالله، أ. غسان بدران، د. مأمون الرفاعي، د. محسن الخالدي، أ.د. محمد الشريدة، د. محمد الصليبي، د. مروان القدومي، د. منتصر الأسمر، معالي د. ناصر الدين الشاعر، د. عامر جود الله، د. حذيفة بدير.

تحرير المادة العلمية وتنسيقها

د. أيمن الدّباغ و د. منتصر الأسمر و د. ناصر الدين الشاعر

خرَّج أحاديثه

د. محسن الخالدي

الطبعة السابعة، ٢٠٢٠

نابلس، فلسطين

تم نشر هذا الكتاب بعد تقييمه وتحكيمه علمياً مقرراً جامعياً من قبل عمادة البحث العلمي في جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين رقم ٦ ت١/ب ع ص/٠٩ بتاريخ ٢٠٠٩/١٠/١٣م

رقم الإيداع لدى وزارة الإعلام الفلسطينية (١٩١/وع)

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفين
ورَيْعُه وقفٌ دائمٌ

حقوق الطبع والاقتباس والترجمة والنشر محفوظة للمؤلفين، ولا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته أو نقله على أي نحو أو بأية طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم تصويرية أم تسجيلية أم سوى ذلك، إلا بموافقة خطية من المؤلفين مقدماً.

ورَيْعُ هذا الكتاب **وقفٌ دائمٌ** من المؤلفين **على طلبة كلية الشريعة المتفوّقين والمحتاجين.**

المؤلفون ٢٠٢٠م

المحتويات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
الوحدة الأولى: مدْخل إلى الثقافة الإسلاميَّة	٧
مفهوم الثَّقافة الإسلاميَّة	٩
مصادر الثَّقافة الإسلاميَّة وروافدها	١٥
الوحدة الثانية: القرآن الكريم والسُنَّة النَّبويَّة	٢٧
القرآن الكريم	٢٩
السُنَّة النَّبويّة	٥٥
الوحدة الثالثة: الإسلام عقيدة وشريعة	٦٩
العقيدة الإسلامية	٧١
الشريعة الإسلامية	٨٩
الوحدة الرابعة: نظام الإسلام	٩٩
نظام العبادات في الإسلام	١٠١
النظام الأخلاقي في الإسلام	١١١
النظام الاجتماعي في الإسلام	١٢٣
النظام الاقتصادي في الإسلام	١٣٥
النظام الجنائي في الإسلام	١٤٩
النظام السياسي في الإسلام: العلاقات السياسية الداخلية	١٥٩
النظام السياسي في الإسلام: العلاقات السياسية الخارجية	١٧٣
الوحدة الخامسة: تحديات مُعاصرة تواجه الثقافة الإسلامية	١٩١
تحديات داخلية تواجه الثقافة الإسلامية	١٩٣
تحديات خارجية تواجه الثقافة الإسلامية	١٩٧
العولمة	٢٠٩
الوحدة السادسة: قضايا معاصرة	٢١٧
حقوق الإنسان في الإسلام	٢١٩

المرأة في منظور الإسلام	٢٣١
مسائل فقهية معاصرة	٢٤٩
مكانة فلسطين الدينية	٢٥٧
قائمة المصادر والمراجع	٢٦٣

مُقدِّمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين، وبعد:

فإنَّ الأمة الإسلامية أمةٌ متميزة بدينها وهويتها وثقافتها وحضارتها وتاريخها، فقد خصها الله تعالى بحمل هذا الدِّين، وجعلها خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس، أمةً وسطاً، شاهدةً على سائر الأمم، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة: ١٤٣).

وواجب هذه الأمَّة أنْ تقوم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي نالت بها وصف الخيريّة والوسطيّة واستحقت بها رتبة الشهادة على الناس، ويقتضي ذلك أنْ تُحافظ الأمَّة على تميُّزها، وأنْ تتمسك بثقافتها وهويتها ودينها وسائر مقومات وجودها، لا سيَّما في هذا العصر الذي ازداد فيه استهدافُ القيمِ والأخلاق والعقائد الدينيَّة.

وعلماء الأمة ومفكروها لهم دورهم المنشود، لِيكونوا علاماتِ هدى ومناراتِ نور، وليرسموا للأمة طريقها، وليبصروها بهويتها وثقافتها وتراثها ودينها وليعرفوها بوظيفتها وبالتحدِّيات التي تعترضها وبكيفية مواجهة هذه التحديات.

ولعلماء فلسطين دور مهم ومتميز في هذا المجال، ففلسطين كانت ولا تزال مسرحَ الصراع الرئيس، والصخرةَ التي تتحطم عليها اعتداءات المستكبرين.

ومن هنا قَصدنا إلى تقديم كتابٍ دراسي جامعي في الثقافة الإسلامية، يخاطب الطلبة الجامعيين الذين هم طليعة الأمة وعماد عزتها ونهضتها، ويعرِض الثقافة الإسلامية بأهم مقوماتها ومعالمها وقضاياها والتحديات المعاصرة التي تعترضها، بما يحقق الأهداف الآتية:

١) ترسيخ قناعة الطالب بثقافته وهويته وتعزيز انتمائه، بما يحميه من الذوبان في الثقافات الأخرى.

٢) تقديم معلومات علمية وفكرية أساسية عن الإسلام، تُشكِّلُ أساساً معرفياً وفكرياً وتربوياً للطالب، وهو ما يُعينه على فهم الإسلام والتزامه ببساطته وسماحته وعالميته، بعيداً عن كل

شبهة أو غموض أو تلبيس، وبمنأىً عن كل تشدُّدٍ أو تساهل، وبمعزل عن العادات والتقاليد الخطأ التي قد تختلط بالإسلام وليست منه.

٣) التركيز على القضايا والجوانب المعاصرة التي تهم الطالب وسواه، ومعالجتها برؤية وسطية متبصرة، بعيداً عن الانغلاق على كل قديم أو رفض كل جديد، بما يُسهم في إيجاد جيل إيجابي واعٍ منفتح ومتفاعل مع عصره وقضايا أمته على ضوء ثوابت دينه وثقافته.

٤) إعطاء صورة حقيقية عن هذا الدِّين باعتباره رسالةَ هدايةٍ وإنقاذٍ للبشرية، خلافاً للصورة المشوَّهة التي تعرضها بعضُ الجهات المعادية للأمّةِ، وبعيداً عن العادات والمسلكيات والمفاهيم غير الصحيحة لبعض المسلمين.

سائلين المولى تعالى أنْ يتقبَّل هذا العمل بقَبولٍ حسنٍ، وأنْ ينفعَ به، وأنْ يجعله في ميزان حسناتنا، آمين.

المؤلفون

فلسطين ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

الوحدة الأولى

مدْخل إلى الثَّقافة الإسلاميَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾

(الحجرات: ١٣)

صدق الله العظيم

محتويات الوحدة وأهدافها

وتتمثل بالآتي:

١. **مفهوم الثقافة الإسلامية لغة واصطلاحا.**

الهدف: أن يعرف الطلبة معنى الثقافة الإسلامية.

٢. **الفرق بين الثقافة والعلم.**

الهدف: أن يُفرق الطلبة بين مفهوميّ الثقافة والعلم.

٣. **العلاقة بين الثقافة والحضارة والمدنية.**

الهدف: أن يناقش الطلبة العلاقة بين هذه المفاهيم.

٤. **مصادر الثقافة الإسلامية.**

الهدف: أن يتعرّف الطلبة على مصادر الثقافة الإسلامية.

أولاً: مفهوم الثَّقافة الإسلاميَّة

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾(البقرة: ١٤٣).

شاع مصطلح الثقافة في هذا العصر في كتابات المفكرين والمثقفين، وكثر الحديث عن تعدد الثقافات والحضارات وتنوعها.

معنى الثَّقافة في اللغة:

الثَّقافة مأخوذة من الفعل ثَقِفَ، وقد ورد في القواميس والمعاجم على ثلاثة معان رئيسة:

١ - **الذَّكاء**: يُقال: غلام ثَقِفَ، أي: ذكي، فالذكاء ضروري لاختيار ثقافة معيَّنة من بين الثقافات الكثيرة المنتشرة في العالم.

٢ - **التقويم والتهذيب والتأديب**: سواء كان مادياً، مثل قولنا: ثقَفت الرمح، إذا قومت اعوجاجه. أو معنوياً، مثل قولنا: ثقفت الطفل، إذا هذبت سلوكه وقومته.

٣ - الغلبة والانتصار والإدراك: قال تعالى:﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾(الأنفال:٥٧)، أي إذا غلبتهم وانتصرت عليهم في الحرب...إلخ، وقال تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾(البقرة:١٩١)، أي حيث أدركتموهم ووجدتموهم[(١)].

أفكر: ما معنى ثقف في قوله تعالى: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾(الممتحنة: ٢).

---

(١) **ابن منظور**: محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ٣٤٠/١، **الفيروزآبادي**: محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، ص٧١٥، **الأصفهاني**: الراغب، **معجم مفردات القرآن**، ضبطه وصححه وخرج آياته وأحاديثه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص ٩٠.

معنى الثقافة في الاصطلاح

اختار المثقفون العرب المعاصرون لفظة الثقافة كي تكون ترجمة للمدلول الغربي لكلمة (Culture)، وذلك ملاحظةً منهم لوجود علاقة بين المعنى اللغوي لثقف والمعنى الاصطلاحي الحديث لكلمة (Culture).

فالثقافة بمعناها الاصطلاحي الحديث فيها معنى المعارف والعلوم والقيم المتوارثة، وفيها معنى تقويم السلوك ومطابقته على منهاج معين، هو في حالتنا الإسلام وقيمه وتعاليمه[١].

ورغم كثرة المؤتمرات والمؤلفات والبحوث التي تناولت المدلول الاصطلاحي الحديث لكلمة ثقافة، إلا أنه لا يوجد تعريف واحد متفق عليه لها[٢]، **ونظراً** لتعدد تعريفات الثقافة وتنوعها بشكل يصعب حصره، إلا أنه يمكن تقسيم التعريفات إلى اتجاهين:

الأول: ينظر للثقافة على أنها تتكون من القيم والمعتقدات والمفاهيم الفكرية العلمية.

الثاني: يرى أنَّ الثقافة تشير إلى نمط الحياة والتوجهات والسلوكات العملية المنبثقة من المفاهيم والقيم السابقة[٣].

وبناء على ما تقدَّم نختار تعريفاً يجمع بين هذين الاتجاهين، إذ لا يُمكن الفصل بين المعتقد والسلوك، فنقول إنَّ الثقافة هي: **(مجموعة العقائد والمشاعر والسلوكيات التي تميّز أمة عن غيرها).**

> **أتنبّه:** المعنى الاصطلاحي لـ(الثقافة) بناءً على هذا التعريف، يختلف عن المعنى الشائع لها عند الناس، والذي يدل عندهم على المعرفة العامة والاطلاع الواسع، فيقولون مثلاً: فلان مثقف، أي

---

(١) نوفل: أحمد، وآخرون، **محاضرات في الثقافة الإسلامية**، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، عمان، ط٣، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، ص٩.

(٢) أنظر بحثاً واسعاً وشاملاً لهذا المصطلح ومدلوله في: **السيد:** عزمي طه، وآخرون، **الثقافة الإسلامية مفهومها مصادرها خصائصها مجالاتها**، دار المناهج، عمان، ط٥، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣م، ص ١٥ - ٦٨.

(٣) نوفل: أحمد، وآخرون، **الثقافة الإسلامية وقضايا العصر**، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، عمان، ط٢، ٢٠١٣م، ص١٣.

عنده اطلاع واسع في ميادين معرفية مختلفة.

والثقافة بهذا المعنى لها سلطة كبيرة على كل عضو من أعضاء الجماعة، فهي التي تصوغ شخصيته من حيث مفاهيمه ومبادئه وأفكاره وقيمه ومعتقداته وعاداته، ومن حيث سلوكه، فتحدد له ما يجب فعله وما لا يجب وما يجوز وما لا يجوز[١].

أتعلّم: من التعريفات العميقة للثقافة والتي تدلُّ على قوة أثرها في الفرد، أنها: **ما يبقى عندما يتم نسيان كل شيء**[٢].

معنى الثقافة الإسلامية:

بناءً على ما سبق يمكن تعريف الثقافة الإسلامية بأنها: **(مجموعة العقائد والمشاعر والسلوكيات المستمدَّة من الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة، ومنظومة قيم وأخلاق، التي تُميز الأمة الإسلامية عن غيرها)** [٣].

وقيد: (المستمدَّة من الإسلام)، يُخرج من معنى الثقافة الإسلامية أية مفاهيم أو سلوكيات تخالف تعاليم الإسلام ومبادئه وتصوراته، ولو انتشرت بين فئة من المسلمين أو في مجتمع من مجتمعاتهم[٤]. مثل ما اعتاده بعض المسلمين وتوارثوه من النظرة الدونية إلى الأنثى، وما ينتج عنها من حرمان المرأة من كثير من حقوقها ودورها في المجتمع.

---

(١) عبد العزيز: د. أمير: **الثقافة الإسلامية**، دار الحسن، نابلس، فلسطين، ط١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص١٢-١٤، علقم: نبيل، **الثقافة العربية والتجديد الإسلامي**، مركز فلسطين للدراسات، رام الله، فلسطين، ط٢، ٢٠٠٢م، ص ٣٦.

(٢) نسب الجابري هذا التعريف إلى إدوارد هيريو، وهو مؤرخ ورجل سياسة فرنسي ت ١٩٥٧م، أنظر: الجابري: د. محمد عابد، **تكوين العقل العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٧، ١٩٩٨م، ص ٣٧.

(٣) بتصرف عن: **هندي**: د.صالح ذياب: **دراسات في الثقافة الإسلامية**، دار الفكر، عمان، ط٩، ١٩٩٣م، ١٥، نوفل: أحمد، وآخرون، **الثقافة الإسلامية وقضايا العصر**، ص١٣.

(٤) لقد لاحظ بعض الدارسين وبحق، أن تعريف الدارسين الإسلاميين للثقافة هو تعريف للتثقيف الإسلامي وليس لثقافات الشعوب الإسلامية السائدة. فهذه الثقافات لا تكون إسلامية، إلا إذا كانت في دائرة التأثير الكلي للقرآن الكريم والسنة النبوية. أنظر: **علقم**: نبيل، **الثقافة العربية والتجديد الإسلامي**، مرجع سابق، ص ٢٧ - ٢٩.

وبالتالي، فثمة فروق نسبية بين الثقافة الإسلامية بمعناها الصافي وبين ثقافة المجتمعات الإسلامية على أرض الواقع، وذلك حسب قُرب أو بُعد تلك المجتمعات وأفرادها عن تعاليم الإسلام وقيمه العامّة.

ثانياً: الفرق بين الثَّقافة والعلم

يميّز الدارسون بين مدلول الثقافة ومدلول العلم من نواحٍ عدة، أهمها:

١) من حيث الموضوع:

تتعلق الثقافة بالمباحث التي تعالج السلوك الإنساني، وأما العلوم البحتة كالطب والكيمياء والفيزياء فتبحث في الظواهر المادية للأشياء، وإن كان العلم في ثقافتنا يشمل إضافة إلى ما سبق علوم الوحي.

٢) من حيث العموم والخصوص:

تختلف الثقافة من أمة إلى أخرى، ولكل أمة ثقافتها الخاصة بها والتي تميزها عن غيرها من الأمم، أما العلم فإنه عالمي لا هوية له ولا قومية ولا دين، ولا تختص به أمة دون أمة[١].

ويمكن توضيح الفرقين السابقين بمثال عملي: فلو طلبنا رأي عالم فيزياء مسلم وعالم فيزياء غير مسلم في قوانين نيوتن في الحركة، لحصلنا على الإجابة نفسها، ولا يتصور الاختلاف بينهما في الرأي. بخلاف ما لو طلبنا من العالِمَينِ المذكورين وجهة نظرهما في قضية حجاب المرأة مثلاً، فإن رأيهما سيتباينان تبايناً كبيراً.

فقوانين نيوتن تتعلق بالظواهر المادية للأشياء وتدخل في مجال العلوم البحتة، أما القضية الثانية فتتعلق بالسلوك الإنساني وتدخل في مجال الثقافة.

والقضية الأولى عالمية لا يختص بها المسلم دون غير المسلم أو العكس. وأما القضية الثانية فهي خاصة بأمة دون أمة، ولذلك اختلفت فيها وجهة نظر الثقافة الإسلامية عن غيرها.

خطأ الخلط بين الثقافة والعلم

خلط بعض المثقفين العرب بين مدلول الثقافة ومدلول العلم، خلطاً أدى إلى نتائج خطأ، فهؤلاء عندما اطلعوا على التقدم العلمي المادي للغرب انبهروا به، وظنوا أن تقدم الغرب هو بسبب ثقافته لا بسبب أخذه بأسباب التقدم المادية والعلمية البحتة، وقرروا أنَّ

---

(١) **التميمي**: عز الدين الخطيب، وآخرون، **نظرات في الثقافة الإسلامية**، دار الفرقان، عمان، ط٢، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣م، ص ١٢

على المسلمين، كي يتقدموا، التخليَ عن ثقافتهم وأن يأخذوا بثقافة الغرب وقِيَمِهِ، حتى قالوا: إن على العرب والمسلمين أن يقلدوا الغرب في كل شيء، في قيمه وعاداته وتقاليده ومفاهيمه ونظرته إلى الكون والإنسان والحياة، وفي مُرِّهِ وحُلوِه، وفي خطئه وصوابه، وأن ينبذوا وراءهم تراثهم وثقافتهم ودينهم وتاريخهم.

وهذا الكلام ناشئ عن الخلط بين مفهوم الثقافة من جهة ومفهوم العلم والتقدم العلمي المادي من جهة أخرى، ومما يدل على خطأ هذا الخلط وخطأ النتيجة التي بنيت عليه: أن بعض الأمم والشعوب قد تقدمت علمياً واقتصادياً وفي شتى مجالات الحياة، دون أن تتخلى عن ثقافتها وهويتها وخصوصياتها، مثل اليابانيين والصينيين، وبعض الأمم أرادت الانسلاخ من ذاتها وتقليد الآخرين في كل شيء، ولكنها لم تتقدم.

ويضاف إلى كل ما مضى، أنَّ الغرب تخلَّى عن ثقافته التي تحارب العلم، وتقيِّد الفكر الحر، وتقوم على الاستبداد، لذلك كان التقدُّم العلمي ثمرة من ثمار هذا التَّحرر، ومن المعلوم أن الثقافة الإسلامية تدعو إلى العلم وتشجعه ولم تشكل يوماً عائقاً أمام تقدم المسلمين ونهضتهم، ولم يتخلف المسلمون عن ركب التقدم العلمي إلا بعد أن ابتعدوا عن هذه الثقافة وعن هذا الدين العظيم. وقد أنتجت الثقافة الإسلامية في السابق حضارة علمية متقدمة، نظر الغرب إليها بانبهار، ولم يتقدم الغرب نفسه إلا بعد أن أخذ بمنجزاتها والأسس العلمية التي أرستها.

ثالثا: العَلاقة بين الثَّقافة والحضارة والمدنيَّة

يرتبط مصطلح الثقافة بمصطلحين آخرين هما: الحضارة والمدنية، وهناك أيضاً اختلاف واسع بين الدارسين في التحديد الدقيق لكل من هذين المصطلحين، كما أن هناك اختلافاً بينهم في العلاقة بين هذه المصطلحات الثلاث: الثقافة، الحضارة، المدنية. ونختار في ذلك المنحى الآتي:

١ - **الثقافة تمثل الجانب المعنوي القيمي والفكري في الأمة**، أي مجموعة المفاهيم والمبادئ والأفكار والمعتقدات والقيم والعادات والتقاليد والآداب والفنون، وطرق السلوك، التي تميز مجتمعاً من المجتمعات عن غيره.

٢ - **المدنية تمثل الجانب المادي في الأمة**، أي مظاهر التقدم المادي في المجتمع، من منشآت ومصانع ومرافق وصناعات ومخترعات وتقدم في طرز البناء وأساليب الزراعة والصناعة وغير ذلك.

٣ - الحضارة تشمل الجانبين المعنوي والمادي في الأمة، أي إنَّ الحضارة أشمل من الثقافة ومن المدنية، فهي تعني مجموعهما[١]، ومن هنا يمكن تسمية رُوح الحضارة ب"الثقافة"، وتسمية جسدها ب"المدنيَّة"[٢]

(١) عبد العزيز: د. أمير: **الثقافة الإسلامية**، مرجع سابق، ص ٤١ - ٤٤.

[٢] بكار، عبد الكريم، **نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي**، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٩م، ص١٢.

رابعاً: مصادر الثَّقافة الإسلاميَّة

(المدهش حقًا أن نلاحظ هذا الشعب العربي الذي ظل منسيًا أجيالاً عديدةً، بعيدًا عما يجري حوله، قد استيقظ فجأة، ووثب بنشاط فائق، أدهش العالم، وقلبه رأسًا على عقب. وأن قصة انتشار العرب في آسيا وأوروبا وأفريقيا، والحضارة الراقية والمدنية الزاهرة التي قدّموها للعالم هي أعجوبة من أعجوبات التاريخ).

جواهر لال نهرو أحد زعماء حركة الاستقلال في الهند

تنبثق الثقافة الإسلامية من جملة مصادر يمكن تقسيمها إلى نوعين: مصادر أساسية، ومصادر ثانوية.

والمصادر الأساسية هي: القرآن الكريم، والسُنة النبوية.

وأما المصادر الثانويَّة فمتعددة؛ من أهمها: الفقه الإسلامي، والتاريخ الإسلامي، واللغة العربية. ونعرض إلى بيان هذه المصادر على النحو الآتي:

القرآن الكريم والسُنّة المطهرة:

القرآن الكريم والسُنة النبوية هما المصدران الرئيسان لحياة المسلمين على مر العصور، ولهما الأثر الأكبر في ضبط سلوكهم وكل شأن من شؤونهم، وفي تشكيل فكرهم ومعتقدهم ورؤيتهم للكون والإنسان والحياة، وسيأتي الكلام عن كل منهما مفصّلاً في الوحدة الثانية من هذا الكتاب.

والسيرة النبوية جزء مهم من السُنة النبويَّة، حيث تُمثل الحياة المباركة للنبي ﷺ وسلوكه وأخلاقه وعبادته وتعامله، مصدراً عملياً مهماً للثقافة الإسلامية، إذ هي التطبيقُ العملي الصحيح للإسلام، وأسلوب الحياة كما يريده الإسلام، وقد أمرنا الله تعالى بالاقتداء بالنبي ﷺ في حياتنا وسلوكنا وكل شؤوننا، حين قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(الأحزاب: ٢١).

وتمتاز سيرة النبي ﷺ بميزات لم تتوافرا في سيرة أي إنسان آخر[1]، وهي:

١. صحة هذه السيرة ونقاؤها: فلم تُحفظ سيرة نبي من الأنبياء كما حُفِظت سيرة النبي محمد ﷺ

([1]) انظر: **هندي**: د.صالح ذياب: **دراسات في الثقافة الإسلامية**، مرجع سابق، ص ١٨ - ١٩.

٢. **الوضوح:** فحياة النبي ﷺ معروفة منذ ميلاده إلى يوم وفاته، وليس في حياته أحداث غامضة أو فترة زمنية مجهولة. وذلك يسد الباب على كل مشككٍ، أن يقول: إن النبي ﷺ ربما قام بأعمال معينة لا نعلمها، تخالف ما يدعو إليه، أو إنه ربما التقى بأناس علموه هذا القرآن والدين الذي جاء به.

٣. **الشُّمول:** فحياة النبي ﷺ تجسيدٌ لجميع جوانب الحياة الإنسانية. فهو ﷺ الإنسان السامي في أخلاقه وتعامله، وهو الأب الرفيق الحاني على أولاده، والزوج اللطيف بزوجه الرفيق بها، يعاشرها بالمعروف، وهو الحاكم العادل الذي يعيش مع الناس ويستمع لهم، والشاب الذي يتصف سلوكه بالاستقامة والبعد عن الفواحش. وذلك أن النبي ﷺ، هو آخر رسل الله إلى الناس، وقد بعث ليكون قدوة للناس كافة في جميع جوانب الحياة الإنسانية، فهو القدوة للزوج مع زوجه، وللأب مع أولاده، وللحاكم مع شعبه، وللصديق مع صديقه، وللجار مع جاره، وللمصلح الاجتماعي مع مجتمعه.

الفقه الإسلامي:

للفقه الإسلامي أثره في حياة المسلمين، فهو **العلم الذي يبحث في أفعال المكلفين من حيث الحِل والحُرمة**، وبالتالي فهو يمثل معايير تحكم حياة المسلمين وتحدد لهم ما يجب فعله وما لا يجوز فعله، استقاها العلماء بالاعتماد على نصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية وأصول الشريعة ومقاصدها العامة.

> **أتعلّم:** يُعرِّفُ العلماءُ الفقهَ الإسلاميَّ بأنه: (علم الأحكام الشرعية العملية، المكتسب من أدلتها التفصيلية)[١].

وقد شكل الفقه الإسلامي نقلة تشريعية نوعية، نقلت البشرية من القوانين البشرية البدائية إلى القانون الإلهي، وجاء بمبادئ تشريعية لم تكن معروفة من قبل، ولم يصل الغرب إلى بعضها إلا حديثاً.

شُبهة حول الفقه الإسلامي وردها:

---

(١) شلبي: د. محمد مصطفى، **المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي وقواعد الملكية والعقود فيه**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥م، ص ٣٢.

بسبب ما يمثله الفقه الإسلامي من أهمية في صياغة حياة المسلمين وفق أحكام الإسلام، استهدفه أعداء الأمة بمحاولة الغض من قدره، وكان مما زعموه: أن الفقه الإسلامي مستمد من القانون الروماني، وهي دعوى لا سند لها.

والناظر في الفقه الإسلامي وفي القانون الروماني يدرك البون الشاسع بينهما في الأسس والمبادئ والمضمون، ويدرك مدى التطور التشريعي الهائل الذي نقل به الفقه الإسلامي البشرية عما كان عليه الحال قبل الإسلام.

ففي الفقه الإسلامي نظمٌ تشريعية لا مثيل لها في القانون الروماني، مثل: نظام التوارث. كما جاء الفقه الإسلامي بمبادئ تشريعية عظيمة خلا منها القانون الروماني، مثل: مبدأ الرضائية في العقود، الذي قرره قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ ﴾(النساء: ٢٩). في حين سادت في القانون الروماني الشكلية المقيتة، التي لا تعتد بالعقود، إلا إذا أفرغت في أشكال رسمية معينة.

> **أتعلّم:** مبدأ الرضائية في العقود، هو مبدأ سبق إليه الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، ولم يهتد الغرب إليه إلا عندما صاغ قوانينه الحديثة، وهو مبدأ يعده الغربيون تطوراً نوعياً في القانون.

وفي المقابل، تضمن القانون الروماني نظماً قانونية لم يقرها الفقه الإسلامي، مثل: نظام التبني، والسلطة الأبوية للأب على أسرته، أن يتصرف فيهم وفي أموالهم بالبيع، وسلطة الزوج على زوجته، أن يتصرف فيها وفي مالها كما يشاء، وسلطة الدائن على مدينه في استعباده، إذا أعسر بالسداد.

ويؤكّدُ بعضُ الباحثين الغربيين المنصفين أثر الفقه الإسلامي في قوانين أوروبا الحديثة، وخاصة الفقه المالكي منه، وذلك من خلال اتصال الأوروربيين بالمسلمين في الأندلس[1].

> **أتعلم:** يقول المؤرخ الفرنسي سيلو: (إن قانون نابليون منقول عن كتاب فقهي في مذهب الإمام مالك، هو شرح الدردير على متن خليل). مع

([1]) انظر تفصيلاً أوسع ورداً أشمل على هذه الشبهة في: **زيدان:** د. عبد الكريم: **المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية**، دار الوفاء، المنصورة، ط ١٢، ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢م، ص ٦٢ - ٧٥.

العلم أن الكتاب المذكور مشهور اليوم متداول بين دارسي الفقه الإسلامي.

كما قد أشاد بفضل مبادئ الفقه الإسلامي وتشريعاته وصلاحيته للتطبيق العديدُ من المؤتمرات الدولية الحقوقية التي عُقدت في العصر الحديث[1].

وينبغي الاستفادة من الثروة الفقهية العظيمة التي خلّفها لنا أسلافُنا دون وقوعٍ في التقديس المطلق لها، فهذه الثروة، على عِظَمِها، تبقى اجتهاداتٍ بشريةً لعقول عظيمة ومخلصة، لكنها قد تخطئ أحياناً، تأثراً ببيئتها أو لسبب آخر.

اللغة العربية:

ترتبط اللغة العربية بالإسلام ارتباطاً وثيقاً، فهي لغة القرآن الكريم والسنة النبوية والتراث الإسلامي، وأحد أهم أسس هوية الأمة وذاكرتها ووحدتها[2].

مهاجمة المستشرقين وأتباعهم للغة العربية:

بسبب الأهمية البالغة للغة العربية هاجمها المستشرقون وأتباعهم، زاعمين أنها لغة معقدة ولا تناسب العصر، ودعا بعضهم إلى استبدالها بالعامية، ودعا آخرون إلى كتابتها بالحروف اللاتينية.

---

(1) مثل: مؤتمر الحقوق المقارنة في لاهاي ١٩٣٧م، ومؤتمر المحامين الدولي ١٩٤٨، ومجمع الحقوق المقارنة الدولي في باريس ١٩٥٢، انظر في ذلك: **الزرقا:** مصطفى، **المدخل الفقهي العام**، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، ١١/١ وما بعدها.

(2) من المُسَلَّمِ به الآن عند علماء اللغات، أن اللغة ليست ألفاظاً محايدة نعبر بها عن تفكيرنا وتصوراتنا، بل إن كل لغة تسهم وتؤثر في صياغة وتشكيل تفكير وتصورات كل من يتكلم بها، فليس ثمة لغتان متشابهتان، أنظر: **محسب:** د. محيي الدين، **اللغة والفكر والعالم: دراسة في النسبية اللغوية بين الفرضية والتحقق**، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، وعلى سبيل المثال: كلمة (مجاهد) تعني في ذهن المسلم: من يقاتل في سبيل مثل عليا، دفاعاً عن الدين والمستضعفين، وقد نجم عن استبدال هذه الكلمة بكلمة (جندي) (soldier)أو (مقاتل)(fighter)، أن فقد المسلم ذاكرته، ونسي أهدافه العليا، وصار يسخر وقته ونفسه وسلاحه في خدمة نظام مستبد طاغ بعيد أصلاً عن كل القيم والمثل العليا، أنظر: **النهوم:** الصادق، **محنة ثقافة مزورة**، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٠م، ص٣٢، وانظر أمثلة عديدة أخرى في المرجع المذكور.

وهدفت هذه الدعوات إلى تفريق المسلمين من خلال تعدد لغاتهم، وإلى قطع صلتهم بكتابهم وسنة نبيهم وتراثهم، وربطهم بالأعداء ارتباط التابع بالمتبوع والعبد بسيده[1].

والحقيقة أن اللغة العربية هي أفصح اللغات وأبينها في التعبير عن حقائق الأشياء والمشاعر، وتمتاز بسعة مفرداتها، ودقة ألفاظها ومعانيها، وتنوع أساليبها، وقابليتها الكبيرة للاشتقاق ومواكبة التطور العلمي والحضاري، حتى قيل: إن العرب سُمُّوا عَرَباً، لقدرتهم على الإعراب عما في نفوسهم، ولم يُعرف عن أمة أنها أقامت أسواقاً للتباري في البيان والكلام مثل العرب.

ولذلك شاء الله تعالى أن ينزل القرآن الكريم بهذه اللغة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف:٣).

ألاحظ: جاء التعليل في الآية الكرية بـ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، مما يدل على أن اللغة العربية أقدر اللغات على إيصال أدق المعاني والتصورات والحقائق والتعبير عن أصدق المشاعر.

يقول حافظ إبراهيم في قصيدته المشهورة في اللغة العربية، وعنوانها: (اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها)[2]:

وَسِعتُ كتابَ الله لفظاً وغايةً وما ضِقتُ عن آيٍ به وعظاتِ
فكيفَ أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ وتَنسيقِ أسماءٍ لمختَرَعاتِ
أنا البَحرُ في أحشائِهِ الدُّرُّ كامِنٌ فهل سَاءَلوا الغوَّاصَ عن صدفاتي؟

وجوانب عظمة اللغة العربية لا تقتصر على المعاني الدقيقة والمدلولات العميقة، بل تمتد لتشمل الجوانب الشكلية أيضاً مثل الصوت والكتابة. يقول الأديب الفلسطيني خليل السكاكيني في اللغة العربية:

(لو قابلت كثيراً من مفرداتها بمثلها في لغات أخرى، لظهر لك أنها أنسب للمعنى، وأبين للفكر، وأطوع لإظهار أعمق التأثرات، فلفظة (لا) النافية للجنس أنسب من كل أدوات النفي في أي لغة كانت، إذ يسهل معها مد الصوت، والصفات التي تجيء على وزن فاعل، مثل واسع وغافر وطاهر وكامل، أو على وزن فعيل أو فعول، مثل كبير عظيم عليم سميع أو صبور غفور

---

(1) **عبد السلام:** د. محمد، وآخرون، **دراسات في الثقافة الإسلامية**، مكتبة الفلاح، الكويت، ط٥، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م، ص١٦ - ١٧.

(2) وهي قصيدة نشرت عام ١٩٠٣م، رداً على دعوات لاتخاذ العامية لغة العلم والأدب.

شكور، أطوع للتعبير عن أعمق التأثرات، لما فيها من الحركات الطويلة، إلخ، وكلمة (حق) بحائها وقافها المشددة العميقة، لا تعادلها كلمة أخرى من أي لغة في الدلالة على معناها، ولا بد أن الناطق بهذه اللفظة يشعر بالحق أكثر من غيره، وليس ذلك فقط، بل لها تأثير في السامع، بحيث تصل إلى أعماق قلبه وتحدث في نفسه هزة)[1].

وفي اللغة العربية مثلاً يكتب المرء في الغالب الأعم ما يلفظ من حروف ويلفظ ما يكتب منها، أي ثمة توافق كبير بين الملفوظ والمكتوب. بخلاف لغات العالم الأخرى التي لا تخلو لغة منها من حروف صامتة تُكتب ولا تُلفظ، ولديها أصوات مختلفة للحرف الواحد حسب موقعه في الكلمة، ولديها حروف متعددة للصوت الواحد. والشواهد على ذلك كثيرة ولا تخفى على مقارن منصف.

فيجب علينا المحافظة على العربية والتمسك بها، وأن نجتهد في تعلمها والتكلم بها، كي نستطيع فهم القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ، ولا ننعزل عن التراث الحضاري الذي خلفه لنا أسلافنا، باعتباره من مقومات ذاكرتنا وهويتنا ووحدتنا.

أتنبه: تواجه اللغة العربية اليوم مخاطر جديدة. فهنالك فئة من الناس، وتحت تأثير الإنبهار بالآخر والشعور بالنقص، تقوم عبر وسائل الإعلام باستخدام اللهجات العامية بدل الفصحى حتى في برامج الأطفال مما يؤثر سلباً على لغتهم.

التاريخ الإسلامي:

إن التاريخ الإسلامي، وخاصةً في أوقات الازدهار والتقدم والفتوح، ليس مجرد أحداث مرت، بل هو حركة حية غَيَّرَت مسار البشرية، وحررت الإنسان من طواغيت الأرض ومن الظلم والاستعباد.

ولا يزال التاريخ الإسلامي يلعب دوراً ملهماً في تشكيل الشخصية الإسلامية، ويثير في المسلم مشاعر العزة والكرامة، ويبعث فيه الأمل بإمكانية النهوض والعودة إلى صدارة الأمم من جديد، ولا يزال ماثلاً في ذهن كل مسلم: حَزم الصِّدِّيقِ، وعَدل عمر، وبَسالة خالد، وعِلم

---

[1] **السكاكيني:** خليل، **كذا أنا يا دنيا (يوميات خليل السكاكيني)**، أعدها للنشر: هالة السكاكيني، المطبعة التجارية، القدس، فلسطين، ١٩٥٥م، ص ٧٠ وما بعدها.

ابن عباس، وتَقوى ابن عمر، وعَقل أبي حنيفة، وإتقان البخاري، وطِب ابن سينا، وبَصريات ابن الهيثم.

شُبهة حول التاريخ الإسلامي وردها

سعى أعداء الإسلام إلى تشويه التاريخ الإسلامي، ليفصلوا حاضر المسلمين عن ماضيهم ويَحُولُوا دون انبعاثهم من جديد، ومن ذلك أنهم صوروه تاريخ نزاعات وحروب وفتن.

ونوجز الرد على هؤلاء بما يأتي[1]:

١- إنه لم يخل تاريخ بشري من النزاعات والحروب، فهذا دأب البشر أنهم، حين يختلفون، قد يجرهم الاختلاف إلى التقاتل والتنازع.

والتاريخ الإسلامي هو أقل تاريخ بشري شهد مثل هذه النزاعات وسقط فيه قتلى. فهذا التاريخ الأوروبي الذي يتغنى به بعض الناس، قد شهد صفحات دموية لا تقارن بما شهده التاريخ الإسلامي من نزاعات، وخذ مثالاً على ذلك: الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت في عصور أوروبا الوسطى، وقد ذهب ضحيتها ملايين الناس. والحربان العالميتان الأولى والثانية، في النصف الأول من القرن العشرين، هما حربان أوروبيتان، وهما الأكثر دموية وتدميراً في التاريخ البشري، حيث ذهب ضحيتهما أكثر من خمسين مليون إنسان من الأوروبيين وغيرهم، في سابقة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً.

٢- إن التاريخ الإسلامي متعدد الجوانب، والذين يصورونه تاريخ حروب وفتن، يضخمون نقاط الضعف فيه على حساب الصفحات المشرقة، في الجوانب الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والحضارية، فهذا التاريخ هو الذي فتح الفتوحات العظيمة التي حررت الناس من الطواغيت، وتسامح أهله مع الآخرين تسامحاً غير معهود ولا مسبوق، وقدم للبشرية مخترعاتٍ وعلوماً متقدمة، وخطا بها خطوات نوعية نحو التقدم العلمي الذي تشهده الآن، في شتى المجالات العلمية والحضارية، في الطب والفلك والرياضيات والكيمياء وغيرها.

وقد رصد هذا الأثرَ الهائلَ للحضارة الإسلامية في العالم وفي الحضارة الغربية بخاصة، عددٌ من المنصفين من المستشرقين الغربيين، مثل: آرنست رينان، وزيغريد هونكة، التي تقول في مقدمة كتابها الشهير (شمس العرب تسطع على الغرب):

---

(١) أنظر تفصيلاً أوسع لهذه الشبهة وغيرها مما أثير حول التاريخ الإسلامي والرد عليها في: **القرضاوي:** د. يوسف: **تاريخنا المفترى عليه**، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٥.

(وأردت أن أكرم العبقرية العربية، وأن أتيح لمواطِنِيَّ فرصة العود إلى تكريمها، كما أردت أن أقدم للعرب الشكر على فضلهم، الذي حرمهم من سماعه طويلاً، تعصبٌ دينيٌّ أعمى أو جهلٌ أحمقُ)[1].

والتاريخ الإسلامي قد شهد ما يعرف اليوم بمؤسسات المجتمع المدني، فانتشرت فيه معاهد العلم والثقافة والمستشفيات ودور رعاية الأيتام والمؤسسات التجارية الخاصة، وازدهرت فيه التجارة والصناعة والزراعة، وظل مجتمعاً فاعلاً رغم ضعف الدولة الإسلامية وغيابها.

أناقش: من مزاعم المستشرقين: أن الفتح الإسلامي، كان حركة غزو ونهب لخيرات البلاد المفتوحة، لصالح مركز الدولة الإسلامية في المدينة!

على أننا لا ينبغي أن نواجه تطرف المستشرقين، بتطرف مضاد يُبالغ في تقديس التاريخ الإسلامي إلى حد تسويغ ما وقع فيه من أخطاء، فهو، على أهميته ومنجزاته، تاريخ صنعه بشر، صدرت منهم أخطاء لا يقرها الإسلام.

كما علينا أن نتثبت من الرواية التاريخية، والتي لم تحظ بالتمحيص والتثبت مثل ما حظيت رواية الحديث النبوي خاصة تلك الروايات الواردة في أحداث الفتنة زمن عثمان بن عفان وما بعده رضي الله عنه، مع الجمع بين الروايات التاريخية للحادثة الواحدة من أكثر من مصدر تاريخي، من أجل تكوين صورة أقرب ما تكون إلى الحقيقة، وبذلك نفوّتُ الفرصة على الذين يتلقفون بعض الروايات التاريخية الضعيفة ومن مصادر غير موثوقة، من أجل أن يدعموا طعونهم في التاريخ[2].

([1]) **هونكة:** زيغريد، **شمس العرب تسطع على الغرب**، ترجمه عن الألمانية: فاروق بيضون، وكمال دسوقي، وراجعه ووضع حواشيه: مارون عيسى الخوري، دار الجيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٨، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٣م، ص ٩.

([2]) انظر تفصيلاً أوسع لمنهجية التعامل مع التاريخ الإسلامي في: **خليل:** د. عماد الدين: **حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي**، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥م، وخاصة ص ٨٣ وما بعدها.

أقرأ وأستمتع:

صورة عن مؤسسات المجتمع المدني في التاريخ الإسلامي

ننقل عن الدكتور مصطفى السباعي صورة عن بعض هذه المؤسسات، يقول في وصف **المؤسسات الاجتماعية:** (ومن المؤسسات الخيرية: بناء الخانات والفنادق للمسافرين المنقطعين وغيرهم من ذوي الفقر، ومنها: التكايا والزوايا التي ينقطع فيها من شاء لعبادة الله، ومنها: بناء بيوت خاصة للفقراء، ومنها: السقايات، أي تسبيل الماء في الطرقات العامة، ومنها: المطاعم الشعبية التي كان يفرق فيها الطعام من خبز ولحم وحساء وحلوى،...، ومنها حفر الآبار في الفَلَوات...، ومن المؤسسات الاجتماعية ما كانت وقفاً لإصلاح الطرقات والقناطر والجسور، ومنها ما كانت للمقابر يتبرع الرجل بالأرض الواسعة لتكون مقبرة عامة.

أما المؤسسات الخيرية لإقامة التكافل الاجتماعي، فقد كانت عجباً من العجب، فهناك مؤسسات لِلُّقَطَاءِ واليتامى...، ومؤسسات للمقعدين والعميان والعجزة...، ومؤسسات لتحسين أحوال المساجين ورفع مستواهم وتغذيتهم...، ومؤسسات لإمداد العميان والمقعدين بمن يقودهم ويخدمهم، ومؤسسات لتزويج الشباب والفتيات العزّاب، ممن تضيق أيديهم أو أيدي أوليائهم عن نفقات الزواج وتقديم المهور...، (و)المؤسسات التي أقيمت لعلاج الحيوانات المريضة أو لإطعامها أو لرعيها حين عجزها، كما هو شأن المرج الأخضر في دمشق الذي يقام عليه الملعب البلدي الآن، فقد كان وقفاً للخيول والحيوانات العاجزة المسنة، ترعى منه حتى تلاقي حتفها....).

ويقول في **وصف المدارس:** (... وكانت الدراسة فيها تشبه الدراسة الثانوية والعالية في عصرنا، كان التعليم فيها مجانياً ولمختلف الطبقات،...، وكانت الدراسة فيها قسمين: قسماً داخلياً للغرباء والذين لا تساعدهم أحوالهم المادية على أن يعيشوا على نفقات آبائهم، وقسماً خارجياً لمن يريد أن يرجع في المساء إلى بيت أهله وذويه، أما القسم الداخلي فكان بالمجان أيضاً، يهيأ للطالب فيه الطعام والنوم والمطالعة والعبادة.. وبذلك كانت كل مدرسة تحتوي على مسجد وقاعات للدراسة وغرف لنوم الطلاب ومكتبة ومطبخ وحمام، وكانت بعض المدارس تحتوي فوق كل ذلك على ملاعب للرياضة البدنية في الهواء الطلق،...، وأصبح للمدرسين رواتب تختلف بين الكثرة والقلة بحسب الأمصار والمدارس والأوقاف، ولكنها على كل حال كانت كافية ليعيش المدرس عيشة هانئة،...، وكان للمعلمين نقابة كنقابة الطالبين

ونقابة الأشراف ونقابات بعض الحرف والمهن الصناعية في تلك العصور، وكان جماعة المدرسين هم الذين يختارون النقيب...

ويقول في **وصف المستشفيات:** (... فقد كانت كثيرة تفيض بها المدن والعواصم، ولم تخل بلدة صغيرة في العالم الإسلامي يومئذ من مستشفى فأكثر، حتى أن قرطبة وحدها كان فيها خمسون مستشفى، وتنوعت المستشفيات، فهناك مستشفيات للجيش يقوم عليها أطباء مخصوصون، عدا عن أطباء الخليفة والقواد والأمراء، وهناك مستشفيات للمساجين، يطوف عليهم الأطباء في كل يوم، فيعالجون مرضاهم بالأدوية اللازمة،...، وهناك محطات للإسعاف كانت تقام بالقرب من الجوامع والأماكن العامة التي يزدحم فيها الجمهور، ويحدثنا المقريزي أن ابن طولون حين بنى جامعه الشهير في مصر عمل في مؤخره ميضأة وخزانة شراب، أي صيدلية أدوية، وفيها جميع الشرابات والأدوية، وعليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لمعالجة من يصابون بالأمراض من المصلين.

وهناك المستشفيات العامة، التي كانت تفتح أبوابها لمعالجة الجمهور، وكانت تقسم إلى قسمين منفصلين بعضهما عن بعض: قسم للذكور وقسم للإناث، وكل قسم فيه قاعات متعددة، كل واحدة منها لنوع من الأمراض، فمنها للأمراض الداخلية، ومنها للعيون، ومنها للجراحة، ومنها للكسور والتجبير، ومنها للأمراض العقلية، وقسم الأمراض الداخلية كان مقسماً إلى غرف أيضاً، فغرف منها للحميّات، وغرف للإسهال، وغير ذلك، ولكل قسم أطباء عليهم رئيس،...، ولكل الأقسام رئيس عام يسمى (ساعور) وهو لقب لرئيس الأطباء في المستشفى، وكان الأطباء يشتغلون بالنوبة، ولكل طبيب وقت معين يلازم فيه قاعاته التي يعالج فيها المرضى، وفي كل مستشفى عدد من الفراشين من الرجال والنساء والممرضين والمساعدين، ولهم رواتب معلومة وافرة، وفي كل مستشفى صيدلية كانت تسمى خزانة الشراب،...، وكان لا يسمح للطبيب بالانفراد بالمعالجة حتى يؤدي امتحاناً أمام كبير أطباء الدولة،...، أما نظام الدخول إلى المستشفيات، فقد كان مجاناً للجميع، لا فرق بين غني وفقير وبعيد وقريب ونابه وخامل، يُفحص المرضى أولا بالقاعة الخارجية، فمن كان به مرض خفيف يكتب له العلاج، ويصرف من صيدلية المستشفى، ومن كانت حالته المرضية تستوجب دخوله المستشفى، كان يقيد اسمه، ويدخل إلى الحمام، وتخلع عنه ثيابه فتوضع

في مخزن خاص، ثم يعطى ثياباً خاصة للمستشفى، ويدخل إلى القاعة المخصصة لأمثاله من المرضى، ويخصص له سرير مفروش بأثاث جيد،...إلخ)[1].

الوحدة الثانية

القرآن الكريم والسُنة النَّبويَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(النحل:٤٤)

صدق الله العظيم

(1) **السباعي:** د. مصطفى، **من روائع حضارتنا**، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٨م، ص ٩٤ وما بعدها.

محتويات الوحدة وأهدافها

وتتمثل في الآتي:

١. **القرآن الكريم كلام الله:**

الهدف: إثراء معلومات الطلبة حول القرآن الكريم، بوصفه المصدر الأول للثقافة الإسلامية.

٢. **نزول القرآن الكريم وجمعه:**

الهدف: أن يتعرف الطلبة على كيفية نزول القرآن الكريم، وحكمة ذلك. وأن يتتبع الطلبة جهود السلف الصالح في جمع القرآن الكريم ومنهاجهم العلمي في ذلك.

٣. **تفسير القرآن الكريم وترجمته وإعجازه:**

الهدف: أن يتعرف الطلبة على المقصود بتفسير القرآن وترجمته. وأن يناقشوا وجوه الإعجاز في القرآن، ليقفوا على مواضع الإبداع فيها.

٤. **السنة النبوية:**

الهدف: أن يتعرّفَ الطلبة على السنة النبوية وعلى منهج البحث العلمي في رواية الحديث، وأنه أدق المناهج العلمية في الرواية التاريخية.

القرآن الكريم

(لقد أثارت الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية. فلم أكن أعتقد قط بإمكانية اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحدّ من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقتها تمامًا للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نصّ كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا. في البداية لم يكن لي أي إيمان بالإسلام. وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة).

موريس بوكاي. الطبيب والعالم الفرنسي المعروف في كتابه الشهير: (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم)

القرآن الكريم هو: كلام الله تعالى، المُنَزَّلُ على النبي محمد ﷺ، باللفظ العربي، المُعجِزُ، المنقولُ بالتواتر، المُتَعَبَّدُ بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، والمختوم بسورة الناس.

وهو المصدر الأساس للتشريع الإسلامي، فيه هدى للناس ورحمة، وهو ينبوع الحكمة، ومصدر الخير، لا تنقضي عجائبه، ولا يَخلَقُ على كثرة الرد.

وهو هدى الله تعالى للعالمين، أنقذ البشرية من ظلمات الشرك والوثنية إلى نور التوحيد، ونقلها من التقليد والجمود إلى التحرر العقلي والتفكير الحر، ودعا إلى المساواة والعدل بين البشر، ونبذ التمييز والعدوان والظلم، وأنشأ جيلاً فريداً، نشر الحق والخير والعدل في كل مكان.

القرآن الكريم كلام الله تعالى:

القرآن الكريم هو: كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾(الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥).

ومما يدل على أنَّ القرآن الكريم من الله تعالى وليس من عند محمد ﷺ:

١- المعهود من سيرته ﷺ عند العرب أنه كان يتميز بالصدق والأمانة، فما كان ليترك الخيانة والكذب على الناس، ويكذب على الله تعالى.

٢ - لو كان القرآن الكريم من عند النبي ﷺ لنسبه إلى نفسه، وكفاه فخراً أن ينسب إلى نفسه ما عجز العرب والإنس والجن جميعاً عن الإتيان بسورة من مثله.

٣ - نقل المسلمون عن النبي ﷺ القرآن الكريم كما نقلوا عنه أحاديثه الشريفة، ولا يصعب على أي إنسان أن يتبين الفروق الكبيرة بين الكلامين، من حيث الأسلوب والبلاغة والإعجاز، فلو كان القرآن الكريم من عند النبي ﷺ، لما نزلت أحاديثه في الرتبة عن رتبة القرآن الكريم، وَلَمَا افترقَ كلامُه على درجتين متفاوتتين هذا التفاوت الكبير.

٤ - ورد في القرآن الكريم بعض آيات العتاب الشديد للنبي ﷺ، ومن ذلك:

معاتبته ﷺ في قبول الفداء من أسرى بدر، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال:٦٧). ومعاتبته لإعراضه عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، حيث انشغل النبي ﷺ عنه بنفر من زعماء قريش يدعوهم إلى الإسلام، قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١﴾ (عبس:١-١١). ولو كان القرآن الكريم من عند النبي ﷺ لما ضمّنَهُ هذا العتاب، لأن الإنسان لا يعاتب نفسه أمام الناس ولا يعلن لهم أخطاءه بهذا الأسلوب الشديد في اللوم والعتاب.

٥ - حوى القرآن الكريم أنواعاً كثيرة من الإعجاز، كالإعجاز البياني والإعجاز العلمي والإعجاز الغيبي والإعجاز التشريعي، وهي إعجازات لا يقدر على الإتيان بمثلها محمد ﷺ ولا غيره من البشر[١].

القرآن الكريم منقول بالتواتر وبرواية العامَّة:

تم نقل القرآن الكريم عبر العصور بطريق التواتر، بل وبرواية العامة عن العامة أي الأمة عن الأمة، ومعنى ذلك:

أنه نقله عدد هائل من الناس في جيل، عن عدد هائل من الناس في الجيل الذي قبلهم، وهؤلاء نقلوه عن عدد هائل من الناس في الجيل الذي قبلهم، وهكذا، إلى أن نصل إلى جيل التابعين، الذين نقلوه عن جيل الصحابة ﷺ، ثم لا يخطئ أفراد جيل من المسلمين، على كثرتهم وتباعدهم، في نقل حرف منه.

---

(١) **القطان:** مناع، **مباحث في علوم القرآن**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٦، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨م، ص٣٦ - ٣٨.

ونقل الأخبار والألفاظ **بطريق التواتر وبرواية العامة يفيد العلم اليقيني والقطع بصحة المنقول**، وأن القرآن الكريم الذي في صدورنا وفي المصاحف التي بين أيدينا هو كما أنزل على محمد ﷺ، لم يتغير منه حرف أو حركة ولم تُحرف فيه كلمة واحدة.

وبعض الناس قد يتشكك أو قد يخطر في باله أن القرآن الكريم ربما حُرِّفَ أو غُيِّرَ فيه، وهؤلاء لا يدركون حقيقة أن التواتر طريق يفيد عقلاً اليقين والقطع، ولتوضيح ذلك نضرب المثال الآتي:

لو أنه جاءك شخص يخبرك أنه رأى شخصاً معيناً في مكان معين وبتاريخ ووقت محددين، فإنك قد تصدقه وقد تكذبه. ثم إذا أتاك شخص آخر يخبرك بمثل ما أخبرك به الأول وبالتفاصيل ذاتها، وهما لا يعرف كل منهما الآخر لتقول إن الأول قد أخبره، فإنك ستزداد ثقة بصحة ما أخبر به الأول.

وتخيل أنه تتابع على تأييد الأول والثاني ألوف الأشخاص، كلهم يخبرونك بالخبر ذاته وبالتفاصيل ذاتها، إنك عندئذ، ستحكم قطعاً بصدق ما أخبرك به هذا الجمع الكبير من الناس، لأنه لا يُعقل أن يكون صدفةً اجتماعُ مثل هذا العدد الكبير من الناس، والذين لا يعرف بعضهم بعضاً، على الإخبار بالخبر نفسه وبتفاصيل دقيقة ومتطابقة، ثم لا يكون ما أخبروا به صحيحاً.

> **أفكر:** إذا أنكر شخصٌ وجود دولة تشاد مثلاً، وأكد لنا أن كل الأخبار والصور عن وجودها كاذبة، فإننا نستهجن كلامه ونتهمه بالهذيان، مع أننا قد لا نكون زرنا هذا البلد ولا رأيناه، فما مصدر قطعنا بوجوده؟!

وهكذا القرآن الكريم، نَقلَ كلَّ حرف وكلَّ كلمة منه وكلَّ حركة فيه، آلافٌ مؤلفةٌ من الصحابة ﷺ، وآلافٌ مؤلفةٌ من كل جيل بعدهم في كل عصر، بالكيفية نفسها، وبالتفاصيل والحروف والحركات والكلمات والآيات والسور والقراءات ذاتها، لا يختلف اثنان من أي جيل وفي أي عصر في شيء من ذلك، فالعقل يحكم قطعاً بأنه هكذا نزل دون أي تغيير أو تحريف.

نزول القرآن الكريم:

بدأ نزول القرآن الكريم بواسطة جبريل عليه السلام على قلب النبي محمد ﷺ، في **ليلة القدْر**، ومعنى القدْر هنا الشرف، وإذا كانت هذه الليلة قد اتَّصفت بالشرف والبركة لنزول القرآن الكريم فيها، فكيف بحال وقدْر من يقوم بإنزال القرآن الكريم في قلبه؟

ثم استمر بالنزول المتدرج حسب الحوادث على مدار ثلاث وعشرين سنة؛ ثلاث عشرة سنة منها قبل الهجرة وعشر سنوات بعدها. وقد اصطلح أكثر العلماء على تسمية ما نزل من القرآن الكريم قبل الهجرة بالقرآن المكي، وما نزل بعدها بالقرآن المدني.

أستنتج: الفاصل بين المكي والمدني، هو **الحد الزماني** المتمثل بالهجرة ولا عبرة بالمكان، فما نزل بعد الهجرة هو قرآن مدني ولو نزل في مكة، وما نزل قبل الهجرة هو قرآن مكي ولو لم ينزل في مكة[1].

وقد ركّزَ القرآن المكي على الحديث عن العقيدة والأخلاق الأساسية، كالدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده والبعث والجزاء والوفاء بالعهود والبعد عن الفواحش، بينما كثر في القرآن المدني الحديث التفصيلي عن التشريعات والتكليفات العملية، كالمعاملات المالية والعقوبات.

وذلك أن المرحلة المكية كانت مرحلة تأسيس، لا بد فيها من التركيز على الأساس وهو الإيمان والأخلاق، وذلك لبناء نفس مؤمنة تسارع إلى التزام الأحكام العملية، حين تفرض، برضا وتسليم. وأيضاً فإن تشريع الأحكام العملية يقتضي وجود دولة تطبقها، ودولة الإسلام إنما قامت في المدينة المنورة لا في مكة المكرمة.

أفكر: اتصفت الآيات المكية، بشكل عام، بالقِصَرِ، بينما اتصفت الآيات المدنية بالطول، لماذا؟!

حِكمة نزول القرآن الكريم بالتدريج:

استشكل الكفار قديماً نزول القرآن الكريم مُنجَّمَاً (أي بالتدريج)، وزعموا أنه لو كان من عند الله تعالى لنزل دفعة واحدة، لأن الله تعالى قادر على ذلك، بخلاف الإنسان الذي يحتاج إلى وقت قد يطول أو يقصر إذا ما رام تأليف كتاب، فردَّ الله تعالى عليهم هذه الشبهة ببيان حِكمَتين رئيستين لنزوله منجماً:

١ - **تثبيت النبي ﷺ وصحابته الكرام:** فكلما واجه النبي ﷺ وصحابته الكرام محنة أو أذى من المشركين، نزلت آيات من القرآن الكريم تُعلِمُهُم أن الله تعالى معهم ولن يخذلهم، وأن الابتلاء والأذى الذي يلاقيه الأنبياء والدعاة سنة إلهية، وأن أمماً كثيرةً قبل قريش قد آذت أنبياءها ومن آمن معهم وأخذهم الله تعالى بالعذاب ونصر أنبياءه، فتقوى بذلك عزيمة النبي

---

(١) أنظر: **السيوطي:** جلال الدين، **الإتقان في علوم القرآن**، مراجعة وتدقيق: سعيد المندوه، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦م، ٣٥/١.

ﷺ وصحابته الكرام، ويُخفِّفُ ذلك عنه وعنهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ (الفرقان:٣٢).

٢ - التدرج في التغيير والتعليم: إن تغيير كل ما كان عليه الناس في الجاهلية دفعة واحدة، من عقائد فاسدة وعادات اجتماعية سيئة، أمر يشق على النفوس، وربما يؤدي إلى رفض الإسلام كله، لأن تلك العقائد والعادات كانت متأصلة في النفوس، نشأ عليها الناس وألفوها، فاقتضت الحكمة أن يغير الله تعالى هذه الاعتقادات والعادات بالتدريج ليسهل تركها وتغييرها، فكلما حدثت حادثة نزل الحكم فيها.

وذلك أيضاً يسهل من تعلم المسلمين في ذلك الوقت للقرآن وحفظه وفهمه وتطبيقه، قال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ (الإسراء:١٠٦)[1].

جمع القرآن الكريم:

كان الصحابة ﷺ يتلقفون كل ما ينزل من القرآن الكريم ويتعهدونه بالحفظ والترتيل، وكان النبي ﷺ يأمر بعض أصحابه بكتابة ما ينزل، وعُرِفَ هؤلاء بكتبة الوحي، ومنهم: الخلفاء الأربعة، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب ﷺ، وكان كل منهم يحتفظ بنسخة لنفسه مما يكتبه، وتوفي النبي ﷺ والقرآن الكريم محفوظ في الصدور، متفرق في نسخ مكتوبة.

إلى أن قام الصحابة ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ، بجمعه كتابة في مصحف واحد، بأمرٍ من رئيس الدولة الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ، ثم نُسخ في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ.

أفكر: لماذا لم يجمع النبي ﷺ القرآن الكريم في مصحف واحد في حياته؟!

الجمع الأول للقرآن الكريم:

كان الجمع الأول للقرآن الكريم في عهد أبي بكر ﷺ، وقد كثر القتل في الصحابة ﷺ في حروب الردة، وخاصة القراء منهم، فخشي عمر ﷺ ضياعَ القرآن الكريم بذهاب حفاظه، فأشار على أبي بكر ﷺ أن يجمعه في مصحف واحد، وأن يرتب سوره وآياته حسب ما كان

---

(١) **القطان:** د. مناع، **مباحث في علوم القرآن**، مرجع سابق، ص ١٠٢ - ١١١.

النبي ﷺ يطلب ترتيبها ويُعلم صحابته حفظها، وبعد تردد، وافق أبو بكر على اقتراح عمر وشكل لجنة علمية من الصحابة ترأسها زيد بن ثابت ﷺ.

وقام أعضاء اللجنة بعمل مضنٍ، وطلبوا نُسَخَ كَتَبَةِ الوحي التي تفرق القرآن الكريم فيها مكتوباً، وطلبوا مجيء حُفّاظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، وقابلوا النُسَخَ بعضها ببعض، وقابلوا ذلك كله بحفظ الحفاظ، وتوثقوا من طريقة كتابة كل كلمة وحرف، إلى أن أنجزوا عملهم بكتابة القرآن الكريم جميعه في مصحف واحد.

وقد أودعَ ذلك المصحفُ عند أبي بكر ثم انتقل بعد وفاته إلى عمر، وبعد وفاة عمر بقي عند ابنته حفصة زوج النبي ﷺ، وظل عند حفصة إلى أن طلبه عثمان ليقوم بالجمع الثاني، رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم[1].

الجمع الثاني للقرآن الكريم:

عندما انتشر الإسلام في الآفاق، ودخلت فيه أمم كثيرة، قدم **حذيفة بن اليمان** ﷺ، الذي كان يشارك في الفتوحات حينها، على الخليفة عثمان ﷺ، وأخبره بما رآه من اختلاف الناس حديثي العهد بالإسلام في أطراف الدولة في القراءة، وخاصة منهم الشعوب التي دخلت في الإسلام من غير العرب، قائلاً له: (يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى)، فأرسل عثمان إلى حفصة رضي الله عنها يطلب نسختها، وشكل لجنة من الصحابة برئاسة زيد بن ثابت ﷺ، وطلب من اللجنة أن تنسخ عن تلك النسخة عدة نُسَخٍ. ثم قام عثمان ﷺ بإرسال نسخة إلى كل طرف من أطراف الدولة الإسلامية، وأرسل مع كل نسخة قارئاً متقناً من الصحابة يعلم الناس القراءة، وأمر بإحراق كل النسخ الشخصية التي كتبها الناس بأنفسهم مخافة وجود نقص أو خلل فيها، ثم أرجع نسخة حفصة إليها.

([1]) إن ما خاف منه الصحابة لم يحصل، فلم يحدث في عصر من العصور أن مات جميع حفاظ القرآن الكريم، وفي كل عصر مئات ألوف من المسلمين يحفظون القرآن الكريم كاملاً عن ظهر قلب، والمعتمد في حفظ القرآن الكريم إنما هو على النقل السماعي والحفظ عن ظهر قلب، وهذا كان في حياة النبي ﷺ وبعده إلى عصرنا، وكل ما صنعه الصحابة إنما هو جمعه كتابة في مصحف واحد بين دفتين، نقول هذا، كي لا يفهم بعض الناس أن الصحابة قد حفظوا القرآن الكريم بعد أن لم يكن محفوظاً.

وعن تلك النُسَخِ التي أرسلها عثمان ﷺ إلى الآفاق، نَسَخَ الناسُ نُسَخَهم إلى يومنا هذا، ولذلك يشار إلى المصاحف المنتشرة في العالم الإسلامي اليوم، على أنها مكتوبة بالرسم العثماني. والطرق التي أرسل القراء بتعليمها للناس هي الطرق التي لا نزال نقرأ بها إلى اليوم[1].

أستنتج: ما الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان، من حيث الدافع؟

تفسير القرآن الكريم:

لم يفسر الرسول ﷺ كل القرآن الكريم، إنما ورد عنه تفسير بعض آياته، وذلك كي يتيح المجال لمن بعده أن يتدبروه ويستخرجوا كنوزه في كل عصرٍ من عصورهم. ولو فسّره النبي ﷺ لتوقّف المسلمون عند حدود تفسيره لا يتجاوزونه، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (ص: ٢٩).

فضلاً على أن مدلول النص القرآني لا يمكن أن يحيط به أحد من البشر، ولا أن يحده تفسير مهما كان ضخماً، وفي كل عصر يكتشف المسلمون شيئاً لم يكن كشفه السابقون، قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ (الكهف: ١٠٩).

فقد اهتم العلماء عبر العصور بتوضيح معاني القرآن الكريم وكشف أسراره، وهكذا ظهر علم التفسير وتطور حتى صار من أهم العلوم.

ولم يتوقف التفسير عند عصرٍ محددٍ ولا جيلٍ معيّنٍ، بل ظهرت تفسيرات جديدة للقرآن الكريم في كل عصر منذ بداية التدوين والنهضة العلمية للمسلمين وحتى عصرنا الحديث.

ومن أشهر كتب التفسير القديمة:

١- تفسير الطبري المسمى (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، لابن جرير الطبري، وهو أول تفسير كامل مكتوب للقرآن الكريم، ولذلك يُلقب الطبري بـ (شيخ المفسرين).

٢- تفسير ابن كثير المسمى (تفسير القرآن العظيم)، وهو من كتب التفسير التي تميزت بسهولة العبارة وعدم الإطالة، **وقد جَمَع خُلاصة تفسير الطبري مع زيادة تنقيح وتهذيب.**

([1]) **الصابوني**: محمد علي، **التبيان في علوم القرآن**، دار الصابوني، السعودية، ط٢، ١٩٨٧م، ص٤٥ - ٥٨.

٣- تفسير الزمخشري المسمى (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، وهو من أعظم كتب التفسير التي تميزت بإبراز الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

٤- تفسير القرطبي المسمَّى (**الجامع لأحكام القرآن الكريم**) وهو من أهم كتب التفسير المطولة، التي عنيت بجمع أقوال العلماء المتعلقة بآيات الأحكام.

ومن كتب التفسير الحديثة:

تفسير (التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور. وتفسير (في ظلال القرآن) لسيد قطب. و(التفسير المنير) لوهبة الزحيلي.

قواعد في الفهم السليم للقرآن الكريم

للوصول إلى فهم سليم لآيات القرآن الكريم، وللتعامل الصحيح مع كتب التفسير، هناك قواعد لا بد من مراعاتها، من أهمها[1]:

١- **التزام قواعد اللغة العربية ودلالاتها:** يجب تفسير الآيات وَفق دلالات اللغة العربية الفصيحة، وعدم تفسيرها خارج ما تحتمله دلالات اللغة. فقد نزل القرآن بلسان عربي مبين. ومن الأمثلة على ذلك: أنه ينبغي مراعاة دلالات الألفاظ كما كانت في عصر نزول القرآن فيما يتعلق بالمفردات التي تغيرت دلالاتها. فكلمة (سائحات) مثلاً لا تعني مفهوم السياحة في عصرنا، وكلمة (**سيارة**) لا تعني ما تدل عليه اليوم، وهكذا. ومن الأمثلة على ذلك أيضاً: أنه لا بد من البعد عن التكلف والتعسف في فهم الآيات وتأويلها تأويلاً فاسداً لتتناسب مع مفاهيم يرى الشخص صحتها. والموقف السليم يتمثل في التزام فهم الآيات كما هي وَفق دلالات اللغة العربية البيّنة من غير تكلّف بعيد ولا تأويل فاسد.

٢- **تفسير القرآن بالقرآن:** وذلك بجمع الآيات حول الموضوع الواحد من شتى سور القرآن لتشكيل تصوُّر قرآني شامل عن الموضوع الواحد قبل الحديث فيه. ذلك أن الصورة المجزوءة قد لا تساعد في إعطاء تفسير صحيح ولا حكم سليم. ومعلومٌ أن القضية الواحدة قد يتناولها القرآن في أكثر من موضع فيه حسب الحاجة.

٣- **تفسير القرآن بصحيح السنة:** وذلك بالاعتماد على الأحاديث الصحيحة دون الأحاديث الضعيفة والموضوعة. وإدخال الحديث المشكوك في صحته إلى التفسير وحمل كلام الله تعالى عليه، يشكّل إساءة بالغةً لكلام الله تعالى وانتقاصاً لهيبته وتحريفاً لمعانيه عن مراد الله تعالى إلى كلامٍ تناقله البشر ولا وجهَ لصحّته.

٤- **مراعاة السياق:** يختلف المعنى أحياناً باختلاف السياق الذي ورد فيه، وبالتالي لا بد من ملاحظة سياق الآية لتحديد المعنى الصحيح لها. وعلى سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ **ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ**﴾(آل عمران:٣٦)، قد يُفهم منه خطأً التمييز بين الذكر والأنثى، وليس الأمر كذلك، إذ بالرجوع إلى السياق يتبين أن المقصود: ليس الذكر كالأنثى في غرض خاص، يتعلق بنذر المولود لخدمة دور العبادة والعابدين فيها.

---

(١) أنظر في ذلك: **القرضاوي**، د. يوسف، **كيف نتعامل مع القرآن العظيم**، دار الشروق، القاهرة، ط٦، ٢٠٠٧م.

٥- **ملاحظة أسباب النزول:** أي ملاحظة الوقائع أو الأحداث التي نزلت فيها بعض الآيات، وذلك يُساعد كثيراً في الوصول إلى المعنى الصحيح لتلك الآيات. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٥٨). قد يُفهم منه خطأً أن السعي بين الصفا والمروة غير واجب، وليس ذلك بمقصود، بل الآية نزلت لأن المسلمين شعروا بالحرج النفسي، لأن أهل الجاهلية كانوا يسعون بين الصفا والمروة وعلى كل منهما صنم يقدسونه، فنزلت الآية لرفع مثل هذا الحرج.

٦- **الحذر من الإسرائيليات:** الإسرائيليات هي حكايات منقولة عن أهل الكتاب إلى كتب التفسير، وفيها تفاصيل لحكايات وأحداث لم يقم القرآن الكريم بتفصيلها، مثل تحديد نوع الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام، وأسماء الحيوانات التي حملها نوح عليه السلام في سفينته، وحكايات تفصيلية من حياة الرسل السابقين وأحداث تاريخية وكونية[١].

ولا بد من الحذر من هذه الإسرائيليات وعدم الاعتماد عليها في التفسير، خاصة وأن منها ما يخالف عموم القرآن الكريم ويعارض العقل والمنطق السليم، فضلاً على أنَّ العناية بمثل هذه الحكايات التفصيلية يخالف منهج القرآن الكريم الذي لا يحفل بالتفصيلات غير المهمة. ولو كان في تلك التفصيلات فائدة لما أغفلها القرآن الكريم. وقد تنبه عددٌ من المفسرين إلى خطر هذه الإسرائيليات وضرورة تنقية كتب التفسير منها.

ترجمة القرآن الكريم:

هناك طريقتان لترجمة أي نص من لغة إلى لغة أخرى: الترجمة التفسيرية، وتقوم على نقل المعنى العام لنص ما، من لغة إلى أخرى. والترجمة الحرفية، وتقوم على نقل نص من لغة إلى أخرى، مع الاحتفاظ بكل ما في النص الأصلي من دلالات ومزايا لغوية في الأسلوب والنظم.

والترجمة التفسيرية مطلوبة شرعاً، لأنها تنقل معاني القرآن الكريم إلى غير الناطقين باللغة العربية، وذلك يساعد على انتشار الدين وعموم الخير للعالمين، وهي، في الحقيقة،

---

(١) انظر أمثلة مستفيضة من كتب التفسير على الإسرائيليات، في: **أبو شهبة:** د. محمد، **الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير**، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، ص ١٥٩ وما بعدها.

تفسير للقرآن الكريم لكن بلغة غير العربية، وهي أشبه ما تكون، بأن يأتي مترجم إلى كلام ابن كثير في تفسيره مثلاً، فينقله إلى الإنجليزية، ولذلك فإن من الأدق أن يطلق على هذه الترجمة تعبير: (ترجمة معاني القرآن الكريم) لئلا يُظنّ أنها ترجمة حرفية للقرآن الكريم.

وأما الترجمة الحرفية فهي محرمة شرعاً باتفاق العلماء، بل هي غير ممكنة أصلاً، ولا يمكن أن نعدها كلاماً إلهياً مقدساً، وذلك لأسباب، من أهمها:

١- إن ألفاظ القرآن الكريم ذات دلالات دقيقة، وقد لا يصل المترجم إلى المعنى الدقيق، أو قد يخطئ في فهمه، أو في انتقاء الألفاظ الدقيقة للتعبير عنه. وقد لا يوجد في اللغة المترجم إليها ألفاظ مقابلة تعطي الدلالات الدقيقة لتلك الألفاظ العربية في النص القرآني.

٢- إن أية لغة تشتمل على المجاز والكنايات التي لا يمكن ترجمتها حرفياً إلى لغة أخرى، خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾(الإسراء٢٩)، فالآية فيها كناية عن الإسراف والبخل، ولو ترجمت حرفياً، لما فهم المتحدث باللغة المترجم إليها المعنيين المذكورين منها.

<u>واجبنا نحو كتاب الله تعالى:</u>

إنَّ القرآن الكريم مظهر من أهم مظاهر رحمة الله تعالى بنا، فقد قدَّم سبحانه هذه الرحمة على خلق الإنسان في قوله تعالى في مطلع سورة الرحمن، حيث قال: "الرحمن علم القرآن خلق الإنسان"، (الرحمن: ١_٣)، وحتى ننال أنوار القرآن الكريم ورحماته لا بد أن تعامل معه التعامل الذي لايليق بمكانته ومن ذلك:

أ. **التَّرتيل**: لقول الله تبارك وتعالى: "ورتل القرآن ترتيلا"، (المزمل: ٤)، والترتيل يعني قراءة القرآن بتؤدة وتأن، حتى يتمكن القارىء من التفكر في الآيات الكريمة، فالقرآن الكريم إذا قرىء كما أمر سبحانه فإنه خير ما يُقرِّب الإنسان من ربّه.

ب. **التَّدبر**: وهذا هو الهدف الأعظم من قراءة القرآن الكريم وتحسين الصوت به وهو: أن لا يقف القارىء عند ظاهر الكلمات، بل يبحث عما وراء هذه الألفاظ من معان ومقاصد، كي يتأثر بالقرآن الكريك ويحرِك به قلبه، ولا يكتفي بتمريره على اللسان[١].

[١] انظر: عباس: فضل، **إتقان البرهان**، دار الفرقان، عمان، ط١، ١٩٩٧م، (١/٢٩-٣٢).

ت. **التطبيق العملي في حياتنا:** فالقرآن الكريم نزل ليكون منهاج حياة، وليس لمجرّدِ التلاوة والقراءة، ولذلك نجد آيات القرآن الكريم تقرن بين الإيمان والعمل في عشرات الآيات.

ث. **العناية بالنماذج القرآنية:** فقد ذكر لنا القرآن الكريم من خلال آيات القصص القرآني عشرات النماذج الإنسانية في مختلف الأحوال والمجالات، ومن هذه النماذج: نموذج الغني الشاكر في شخصية سليمان عليه السلام، ونموذج الحاكم العادل الذي لم يلهه ملكه عن عبادة ربه ورعاية شعبه، ونموذج المبتلى الصابر على البلاء في شخصية أيوب عليه السلام، ونموذج الشاب المتعفف عن الحرام في شخصية يوسف عليه السلام، رغم فتوته وجماله وشبابه، وقوة دواعي الإغراء حوله، وغيرها من النماذج الكثيرة[1]

[1] انظر: القرضاوي، **ثقافة الداعية**، ص٢٧- ص٣٠.

إعجاز القرآن الكريم:

إنَّ القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى المعجز الذي لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله.

> **أتعلم:** المعجزة هي: أمر خارقٌ للعادة، مقرون بالتحدي، مع عدم المعارضة[1].

وقد تحدى الله تعالى الناس أن يأتوا بمثل القرآن الكريم فعجزوا، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا، وكان آخر ذلك التحدي أن تحداهم بسورة من مثله فعجزوا، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٣).

ووجوه إعجاز القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة[2]، نعرض بإيجاز لثلاثة أنواع منها، هي:

الإعجاز البياني.

والإعجاز الغيبي.

والإعجاز العلمي.

الإعجاز البياني في القرآن الكريم

أي إن تراكيب القرآن الكريم وأساليبه في التعبير وفي استخدام الألفاظ، على درجة من الدقة والبلاغة والجمال والإبداع، تأخذ بالألباب وتبهر العقول، وهو ما أدركه أهل اللغة والفصاحة والبيان من العرب قديماً.

فها هو جبير بن مطعم ﷺ يقول: سمعت النبي ﷺ يقرأ في صلاة المغرب بالطور حتى انتهى إلى قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا

---

(١) هذا تعريف الرازي للمعجزة، أنظر: **الفهداوي:** د. عبد الجليل إبراهيم، **خوارق العادات عند المسلمين**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥م، ص ٦٠.

(٢) أنظر كتب الإعجاز في القرآن الكريم، على سبيل المثال: **عباس:** د. فضل حسن، وسناء فضل حسن، **إعجاز القرآن الكريم**، دار الفرقان، عمان، ط ١٩٩١م، ص ١٥٩ ومابعدها.

يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾(الطور: ٣٥ -٣٧)، قال: (كاد قلبي أن يطير)[١]، وعمر ﷺ، لما سمع سورة طه أعلن إسلامه، رغم ما كان منه من عداوة شديدة للإسلام وأهله[٢]، وها هو الوليد بن المغيرة الذي كان أحد سادة قريش والمشهورين فيها بالفصاحة والبلاغة، حينما سمع القرآن الكريم، عبر عن ذهوله مما سمع قائلاً: (والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه يعلو ولا يعلى عليه، وإنه يحطم ما تحته، سمعت قولاً يأخذ القلوب)[٣].

وقد وصل الأمر بالكفار من العرب حينها، إلى أن تواصوا بتجنب سماع القرآن الكريم، لما له من تأثير مذهل يفوق تأثير السحر، وليس بسحر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦)، بل لقد آثروا خوض حروب طاحنة وطويلة مع المسلمين، ذهبت فيها أنفسهم وأموالهم وأولادهم، على أن يحاولوا الإتيان بمثل سورة واحدة منه.

> **أتأمل:** إن التحدي بالإتيان بسورة، هو، في الحقيقة تحدٍّ بعشر كلمات فقط، لأن أقصر سورة في القرآن الكريم، وهي سورة الكوثر، تتكون من عشر كلمات!

ومن الأمثلة على الإعجاز البياني:

١ - **قوله تعالى:** ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٩)، أي إن الإنسان حين يعلم أنه إذا قَتَلَ، فسوف يُقتل، فإنه لن يُقدمَ على القتل، وكانت العرب تعبر عن هذا المعنى بقولهم:(القتل أنفى للقتل).

---

(١) رواه **البخاري**، محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري)**، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧م، كتاب التفسير، باب سورة والطور، الحديث رقم: ٤٥٧٣، ج٤، ص١٨٣٩، وسيشار إلى هذا المرجع فيما بعد اختصاراً هكذا: رواه البخاري.

(٢) **ابن هشام**: عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط ٤، ١٤٠١ هـ، ١٩٨١م، ٣٦٤/١ - ٣٧١.

(٣) أخرجه **الطبري**: محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥ هـ، ١٥٦/٢٩، وأورده **الألباني**: محمد ناصر الدين، في: **صحيح السيرة النبوية**، المكتبة الإسلامية، عمان، ط١، رقم (١٥٧)، ٥٠٧/٢.

وقد أبرز العلماء بلاغة عبارة القرآن الكريم على عبارة العرب بأكثر من عشرين وجها، منها: أن التعبير بالحياة أوقع في النفس من التعبير بالقتل الذي يُشعِرُ بالوحشة. وأنه ليس كل قتل فيه حياة، كما يفهم من عبارة العرب، وإنما هو قتل معين هو القصاص. وأن عبارة العرب كررت لفظة القتل مرتين، بينما خلت عبارة القرآن الكريم من التكرار[1].

٢ - **قوله تعالى:** ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾(الأنفال: ٣٣).

فقد تحدثت الآية الكريمة عن سببين لرفع العذاب: وجود الرسول ﷺ بين الناس، واستغفار الناس. ولما كان وجود رسول الله ﷺ مؤقتاً إلى أن يحين أجله، وأما الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة، عبر عن الأول بالفعل الذي يفيد التوقيت بالزمان، وعبر عن الثاني بالاسم الذي يفيد الثبوت والاستقرار[2].

٣ - **قوله تعالى:** ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾(المائدة: ٣٨)، **وقوله تعالى:** ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾(النور: ٢).

فقد قدم الرجل في الأولى، لأن السرقة في الرجال أكثر، وقدم المرأة في الثانية، لأن المرأة هي التي تدعو إلى الزنا بالإغراء وعرض المفاتن.

٤ - **قوله تعالى:** ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾(عبس: ٣٣ - ٣٧)،

وقوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾(المعارج: ١١ - ١٥).

والسؤال هنا: أنه لِمَ بدأ في (عبس) بذكر الأخ، فالأم، فالأب، فالصاحبة، ثم الأبناء، وفي (المعارج) عَكَسَ، فبدأ بالأبناء، فالصاحبة، فالأخ، فالفصيلة، ثم أهل الأرض؟

والجواب: أن الحديث في (عبس) عن الفرار وقت الحشر، والإنسان يفر من الأباعد أولاً، ثم ينتهي بألصق الناس به، والأخ أبعد المذكورين، وأما ألصقهم بالمرء فزوجته وأولاده، الذين يأوي إليهم في حياته كل يوم، وهو بأولاده أشد ارتباطاً وتعلقاً منه بزوجته. وأما في (المعارج)،

---

(١) أنظر: **الرازي:** فخر الدين محمد بن عمر، **تفسير الفخر الرازي**، دار الفكر، بيروت، ط ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥م، ٣/ ٦١.

(٢) **السامرائي:** د. فاضل صالح، **التعبير القرآني**، دار عمار، عمان، ط١، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٨م، ص٢٦.

فالحديث عن موقف حرج جداً بعد القضاء واقتراب التنفيذ، وقد جيء بالمجرم ليقذف به في الجحيم، فإن المجرم في تلك اللحظة يود لو يفتدي من ذلك العذاب بأقرب الناس إلى قلبه، فبدأ بالأقرب: ابنه! ثم الأبعد فالأبعد، وفي ذلك دلالة على هول العذاب، حتى ليستعد المجرم للتضحية بأقرب الناس إليه[1].

والملاحظ أن سورة المعارج لم يُذكر فيها أن الإنسان يمكن أن يفتدي من العذاب بالأب أو الأم، ومن جميل ما قيل في ذلك: إن الإنسان قد يفر من أبويه، لكنه لا يستطيع أن يفتدي بهما من العذاب أمام الله تعالى، لأنه مأمور من الله تعالى ببرهما. فكيف يخرق هذا الأمر ولا يُعظم تلك الحُرمة؟!

٥ - **قوله تعالى:** ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ٣١).

في الآية الكريمة تصوير دقيق لما يكون عليه المشرك من ضياع وتشتت وتمزق، وتصوير لعاقبته الوخيمة، ولنترك الكلام لسيد قطب، رائد التصوير الفني في القرآن الكريم، يوضح هذه الصورة الفنية الرائعة التي يرسمها القرآن الكريم لنفس المشرك، يقول:

(إنه مشهد الهوي من شاهق ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وفي مثل لمح البصر يتمزق ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾، أو تقذف به الريح بعيداً عن الأنظار ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ في هوة ليس لها قرار..

والملحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها، وتعاقب خطواتها في اللفظ (بالفاء)، وفي المنظر بسرعة الاختفاء.. على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير..

وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله، فيهوي من أفق الإيمان السامق، إلى حيث الفناء والانطواء، إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها، قاعدة التوحيد، ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه، فتخطفه الأهواء تخطف الجوارح، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح،

([1]) **السامرائي:** د. فاضل صالح، **لمسات بيانية في نصوص التنزيل**، دار عمار، عمان، ط٢، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، ص١٩٣ - ١٩٧.

وهو لا يمسك بالعروة الوثقى، ولا يستقر على القاعدة الثابتة التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه)[1].

ويقول أحد الباحثين: (ثم إن صوت القاف في ﴿سَحِيقٍ﴾ ، والصوت الذي يلحقه نتيجة القلقلة، يرصدان لحظة ارتطام جسم المشرك بالأرض في نهاية الهوي)[2].

٦ - ولصوت اللفظ وجَرسِه شأنه في القرآن الكريم:

يقول سيد قطب: (وقد يستقل لفظ واحد لا عبارة كاملة برسم صورة شاخصة،...، تارة بجرسه الذي يلقيه في الآذان، وتارة بظله الذي يلقيه في الخيال، وتارة بالجرس والظل جميعاً، تسمع الأذن كلمة ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾(التوبة: ٣٨)، فيتصور الخيال ذلك الجسم المُثَّاقِلَ، يرفعه الرافعون في جهد، فيسقط من أيديهم في ثقل، إن في هذه الكلمة (طُنَّاً) على الأقل من الأثقال! ولو أنك قلت: تثاقلتم، لخف الجرس، ولضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ، واستقل برسمها.

وتقرأ: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾(النساء: ٧٢)، فترتسم صورة التبطئة في جرس العبارة كلها، وفي جرس ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ خاصة، وإن اللسان ليكاد يتعثر، وهو يتخبط فيها، حتى يصل ببطء إلى آخرها.

فإذا سمعت: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ (البقرة: ٩٦)، صورت لك كلمة ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾، المقدمة في التعبير على الفاعل لإبرازها، صورة الزحزحة المعروفة كاملة متحركة، من وراء هذه اللفظة المفردة.

وكذلك قوله: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾(الشعراء: ٩٤ - ٩٥)، فكلمة ﴿فَكُبْكِبُواْ﴾ يُحدث جرسها صوت الحركة التي تتم بها.

---

(1) **قطب:** سيد، **في ظلال القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٥، ١٣٨٦ هـ، ١٩٦٧م، ٥٩٧/٥ - ٥٩٨، وقد أبدع سيد قطب في اكتشاف وتجلية هذا الوجه من إعجاز القرآن الكريم وهو ما سماه: (التصوير الفني في القرآن)، وذلك في كتاب له بهذا العنوان، بالإضافة إلى تفسيره المشهور (في ظلال القرآن).

(2) **بني دومي:** د. خالد قاسم، **دلالة الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم**، جدارا للكتاب العالمي، عمان، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٣٠.

ونوع آخر من تصوير الألفاظ بجرسها، يبدو في سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾(الناس: ١-٦)، إقرأها متوالية، تجد صوتك يحدث (وسوسة) كاملة تناسب جو السورة، جو وسوسة "الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس")[1].

(والإمالة كذلك تعكس تناسقاً دقيقاً بين البنية والدلالة، يتضح هذا التناسق الصوتي الدلالي في قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ (هود: ٤١)، فالإمالة في ﴿مَجْرِىٰهَا﴾، ترسم الصورة المتأرجحة للسفينة، وهي تمخر عباب البحر،...، أما قوله ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾، فالبنية الصوتية لهذه اللفظة، ترسم صورة السفينة في حال استقرارها على سطح مستوٍ)[2].

٧ - وللإيقاع قصته في القرآن الكريم:

يقول سيد قطب: (إن في القرآن إيقاعاً موسيقياً متعدد الأنواع، يتناسق مع الجو، ويؤدي وظيفة أساسية في البيان،...، وحيثما تلا الإنسان القرآن أحس بذلك الإيقاع الداخلي في سياقه،...، وها نحن أولاء نتلو سورة النجم مثلاً:

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ (النجم: ١-٢٢).

هذه فواصل متساوية في الوزن تقريباً، على نظام غير نظام الشعر العربي، متحدة في حرف التقفية تماماً، ذات إيقاع موسيقي متحد،...، والإيقاع الموسيقي هنا متوسط الزمن تبعاً لتوسط الجملة الموسيقية في الطول، متحد تبعاً لتوحد الأسلوب الموسيقي، مسترسل الرويّ كجو الحديث الذي يشبه التسلسل القصصي...،

([1]) **قطب:** سيد، **التصوير الفني في القرآن**، دار المعارف، القاهرة، ط١١، ١٩٩٤م، ص ٧٨ - ٨٠.

([2]) **بني دومي:** د. خالد قاسم، **دلالة الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص ٢٦٤.

فلو أنك قلت: أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة، لاختلت القافية، ولتأثر الإيقاع، ولو قلت: أفرأيتم اللات والعزى ومناة الأخرى، فالوزن يختل، وكذلك قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾، فلو قلت: ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك قسمة ضيزى، لاختل الإيقاع المستقيم بكلمة ﴿إِذًا﴾)[1].

ولنختم الإعجاز البياني، ببعض الوجوه الدالة في هذا المقام، من وجوه كثيرة ذكرها العلامة رحمة الله الهندي، مستدلاً بها على أن القرآن الكريم كلام الله:

- الكلام الفصيح إنما يتفق في القصيدة في البيت والبيتين، والباقي لا يكون كذلك، بخلاف القرآن، فإنه مع طوله، فصيح كله، بحيث يعجز الخلق عنه.

- إذا كرر الشاعر أو الكاتب فكرة أو قصة، لا يكون كلامه الثاني في البلاغة مثل كلامه الأول، وقد تكررت في القرآن الكريم قصص الأنبياء وأحوال المبدأ والمعاد والأحكام والصفات الإلهية، واختلفت العبارات في ذلك إيجازاً وإطناباً، وتفنناً في بيانها غيبة وخطاباً، ومع ذلك جاء كل واحد منها في نهاية الفصاحة.

- دارت مواضيع القرآن الكريم حول: ترسيخ مبادئ العقيدة الصحيحة، وبيان العبادات والتشريعات، وتحريم القبائح، والحث على مكارم الأخلاق، واختيار الآخرة والعمل لها، وذلك كله بأسلوب غاية في الفصاحة والبلاغة والتشبيهات والتصويرات.

مع أن أمثال هذه المواضيع، يتعذر بيانها بأسلوب فصيح بليغ، يسحر الألباب والعقول، ولذلك إذا قيل لشاعر فصيح أو كاتب بليغ، أن يكتب تسعاً أو عشراً من مسائل الفقه أو العقائد، في عبارة فصيحة مشتملة على التشبيهات البليغة والاستعارات الدقيقة، فإنه يعجز[2].

الإعجاز الغيبي في القرآن الكريم

أخبر القرآن الكريم عن أحداث قبل وقوعها، ثم حصلت لاحقاً كما أوردها القرآن الكريم من غير زيادة ولا نقص.

مثال ذلك إخباره الناس بأن الروم الذين هُزموا أمام الفرس سيعاودون الانتصار على الفرس في بضع سنين، وهو ما حصل فعلاً كما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز.

---

(1) **قطب:** سيد، **التصوير الفني في القرآن**، مرجع سابق، ص ٨٦ وما بعدها.

(2) **الهندي:** رحمة الله بن خليل الرحمن، **إظهار الحق**، دراسة وتحقيق وتعليق: د.محمد أحمد ملكاوي، دار الجيل، القاهرة، ط٣، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، ٧٧٦/٣ - ٧٧٧.

ذلك فضلاً عن إخباره عن أمور سابقة من الأمم الغابرة لم يكن يعرفها لا النبي ﷺ ولا قومه من قبل أن تتنزل عليه في القرآن الكريم.

ويلحق بذلك أيضاً إخباره عن أشياء حصلت بالسر بين اثنين لا ثالث لهما، بل وإخباره عن أشياء لا زالت في صدور أصحابها ولم يبوحوا بها لأحدٍ قط.

والسؤال هنا:

مِن أين للنبي ﷺ أن يعلم بكل ذلك، لولا الوحي الذي تنزل عليه بالقرآن من الله تعالى. فهو وحده، سبحانه، الذي يعلم السر وأخفى، وهو علاّم الغيوب، يعلم ما كان وما يكون وما سيكون، ويعلم خائنة الأنفس وما تُخفي الصدور، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

والأمثلة على الإعجاز الغيبي في القرآن كثيرة، بل ومتجددة، فالقرآن لا يَخلَق على كثرة الرد، وفي كل يوم نكتشف فيه معاني جديدة وأشياء غير معهودة.

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

المقصود بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم: إخباره بحقائق علمية، أتت الاكتشافات العلمية الحديثة تؤكد صحتها.

والقرآن الكريم كتاب هداية للبشر وليس كتاباً متخصصاً في العلوم الحديثة، وإنما وردت إشارات الإعجاز العلمي فيه، ليتبين كل إنسان أنه تنزيل من حكيم حميد، إذ لا يستطيع الإخبار عن الحقائق العلمية في الكون والإنسان، وقبل أن يكتشفها الإنسان بقرون متطاولة، إلا الخالق سبحانه، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ (فصلت: ٥٣).

وإشارات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم كثيرة، نعرض نماذج منها:

١ - خلق الإنسان

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾(السجدة:٧ - ٨).

واستخدام لفظة ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ ينطوي على إعجاز علمي، لأن من معاني هذه اللفظة في اللغة: الخلاصة. ومن الثابت علمياً الآن، أن الإنسان يخلق من خلاصة مصطفاة، إذ إن الدفقة الواحدة من المني، تحمل مائتي مليون حيوان منوي على الأقل، يفلح حيوان منوي

واحد منها، فقط، في الوصول إلى قناة الرحم، ليلتقي بالبويضة ويلقحها، بينما تهلك الحيوانات المنوية الأخرى في الطريق.

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ۝٤٦﴾ (النجم: ٤٥ - ٤٦).

فالذكورة والأنوثة وفق العلم الحديث يحددها الحيوان المنوي حسب ما يحمله من شارة الأنوثة أو الذكورة، فإذا أراد الله تعالى أن يخلق ذكراً، جعل الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الذكر هو الذي يلقح البويضة، وإذا أراد أن يخلق أنثى، جعل الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الأنثى هو الذي يلقح البويضة[1].

٢ - دوران الأرض وكرويتها

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ (النمل: ٨٨).

فالآية الكريمة تقرر ما أكده العلم الحديث، من أن الأرض مع كل ما يخضع لجاذبيتها مثل الجبال والبحار وغلافها الجوي، تدور بسرعة، كما يمر السحاب، وذلك على خلاف ما يظهر للرائي، من أن الأرض ثابتة وأن السحاب هو فقط الذي يسير.

وقال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾(الزمر: ٥).

والتكوير معناه: لف شيء على آخر في اتجاه مستدير كروي، وفي هذا إشارة واضحة إلى كروية الأرض[2].

٣ - الحديد

يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾(الحديد: ٢٥).

ففي هذه الآية الكريمة عبّر بلفظ: ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾، والإنزال يكون من أعلى لأسفل، وهذا ما أكده العلم الحديث، حيث ثبت أن الحديد الذي يشكل حوالي ٣٦% من كتلة الأرض ليس جزءاً أصيلاً منها، وإنما رُجمت الأرض بعد انفصالها عن الشمس، بوابل من النيازك الحديدية، والحديد، بحكم كثافته العالية، تحرك معظمه إلى لب الأرض واستقر في جوفها.

وقوله: ﴿فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ فيه إعجاز علمي أيضاً، فقد ثبت علمياً أن نواة ذرة الحديد هي أقوى النوى رابطة وتماسكاً، حيث لا توجد ذرة أو نواة في شدة تماسكها، وتحتاج نواة

---

(١) **البار:** د. محمد علي، **خلق الإنسان بين الطب والقرآن**، الدار السعودية، جدة، ط١٠، ١٩٩٥م، ص١١١.

(٢) **علي:** محمد سامي محمد، **الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**، دار المحبة، دمشق، ط١٩٩٣م، ص٥٣ - ٥٥.

الحديد إلى طاقة هائلة لتفتيتها أو الإضافة إليها، ولذلك فإن الحديد هو عصب الصناعات الثقيلة في حياة الإنسان[1].

> **أتأمَّل:** رقم سورة الحديد في ترتيب سور القرآن: سبعة وخمسون، وهو الوزن الذري ذاته، لأحد نظائر الحديد!

٤ - الجبال

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (النبأ: ٦ - ٧).

فقد وصفت الآية الكريمة، وقبل ما يزيد على ألف وأربعمائة سنة، الجبال بأنها: ﴿أَوْتَادًا﴾، وهي لفظة واحدة، ولكنها معجزة، إذ الوتد يدفن أغلبه في الأرض، وأقله يظهر على السطح، ووظيفته التثبيت، وهي طبيعة ووظيفة الجبال كما كشف عنها العلم الحديث.

فقد كشف العلم أن كل نتوء على الأرض فوق مستوى سطح البحر، له امتداد داخل الغلاف الصخري للأرض، بأضعاف طوله الخارجي.

والجبال لها جذور عميقة تخترق الغلاف الصخري للأرض بالكامل، وتصل إلى نطاق الضَّعف الأرضي شبه المنصهر، وهو ما يُثَبِّتُ الأرضَ، ويجعلها متزنة[2].

٥ - خلق السماوات والأرض

قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة، لخص لنا القرآن الكريم بدقةِ وإعجاز، مراحل خلق السماوات والأرض، وإفنائهما، وإعادة خلقهما من جديد، في خمس آيات من القرآن الكريم، وعلى وفق أحدث تفسير وصلت إليه نظريات علم الفلك والفيزياء في العصر الحديث، ونتناول هذه الآيات الكريمات:

> **أتنبه:** نحن لا نجزم بتفسير القرآن وفق النظريات العلمية، لإمكان عدم صحة تلك النظريات، فتبقى من باب الاحتمال لا أكثر من ذلك، أما الحقائق الثابتة قطعاً ويقيناً، فتصلح للاستدلال بها.

---

(١) **النجار:** د. زغلول راغب، **الأرض في القرآن الكريم**، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٦م، ص ١١٣ - ١٣٠، **العبيدي:** د. خالد فائق، **تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، ص ١٨٧ - ٢٨٥، وفي قوله تعالى: (ث ث) إعجاز عجيب، يمكنك أن تراجع أبعاده المذهلة في المرجعين المذكورين.

(٢) **النجار:** د. زغلول راغب، **الأرض في القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص ٢١٠ - ٢١٥.

- قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾(الأنبياء: ٣٠).

تشير هذه الآية بوضوح تام، وقبل أن يكتشف ذلك أي عالم، إلى أن السماوات والأرض كانتا ملتحمتين معاً، ثم فتقهما الله تعالى.

والنظرية الحديثة في نشوء الكون، تقرر: أن كل صور المادة والطاقة كانت تلتقي في نقطة واحدة، هي جرم ابتدائي أولي، ذو حجم لا نهاية له في الصغر، ثم حدث لهذا الجرم انفجار عظيم، بسبب تغلب قوى الدفع للخارج على قوى الجذب للداخل، وهو ما يعرف اليوم بالانفجار الكوني الكبير.

- قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾(فصلت: ١١).

تقول النظريات العلمية: إنه عند انفجار ذلك "الجرم الابتدائي"، نتج عن ذلك ما يُعرف بسحابة الدخان الكوني، وانتقلت حرارة الجرم الهائلة إلى ذلك الدخان، مما أدى إلى عدد من التفاعلات النووية، تكونت منها العناصر الأولية كالهيدروجين والهيليوم. ثم تكدس ذلك الدخان بسبب التبرد المستمر له، على هيئة سُدم كونية هائلة، تكونت منها الكواكب والنجوم.

- قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾(الذاريات: ٤٧).

تشير النظريات العلمية الحديثة إلى: أن الكون، ومنذ لحظة انفجاره وحتى يومنا هذا، هو في توسع مستمر، وأن المجرات تتحرك بسرعات فائقة، متباعدة بعضها عن بعض وعن مجرتنا.

- قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾(الأنبياء: ١٠٤).

تتحدث الآية هنا عن طي الكون وإعادة الخلق كما بدأ، وتشير النظريات العلمية الحديثة إلى أن قوة الدفع إلى الخارج التي أحدثت الانفجار الكوني المذكور، هي في تباطؤ مستمر، وفي مرحلة معينة، ستتغلب قوى الجذب إلى الداخل على قوى الدفع إلى الخارج، وهو ما سيؤدي إلى توقف هذا التوسع، وعودة الوضع إلى حاله الأولى قبل الانفجار، كي يتكدس الكون مرة أخرى في جرم واحد، كهيئة الجرم الابتدائي الأول، وهو ما يسميه الفلكيون بمرحلة الانسحاق الشديد.

- قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾(إبراهيم: ٤٨).

وهنا يُخبر القرآن الكريم: أنه سوف تتكرر عملية الخلق، لتكوين أرض غير أرضنا، وسماء غير سمائنا، لتبدأ حياة أخرى، هي حياة الدار الآخرة. وقد يكون ذلك بانفجار كوني جديد، أو بأي طريق من عجائب خلقه سبحانه وقدرته[١].

٦ - العنكبوت

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾(العنكبوت: ٤١).

ففي قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذَتْ﴾، إشارة إلى ما توصل إليه العلم، من أن الذي يبني البيت هو أنثى العنكبوت وليس الذكر، فالأنثى هي التي تحمل في جسدها غدد إفراز المادة الحريرية التي يُنسج منها بيت العنكبوت.

وقوله تعالى ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾، إشارة إلى أن بيت العنكبوت أضعف البيوت من الناحية المادية والمعنوية، فهو من **الناحية المادية**، لا يقي ساكنه حرارة شمس، ولا زمهرير برد، ولا مطر شتاء، ولا عصف ريح، ولا مهاجمة عدو. ومن **الناحية المعنوية**، وجد العلماء أن الرابطة الأسرية في هذا البيت أوهى ما تكون، وتنقصها المودة والرحمة والعطف، فالأنثى تفترس زوجها بعد التلقيح، كما أنها تأكل أولادها بعد الفقس، والأولاد يأكل بعضهم بعضاً[٢].

> **أتامل:** يُعدُّ الخيط من حرير العنكبوت، واحداً من أقوى المواد الموجودة في الأرض، وله قدرة هائلة على تحمل الشد، ويفوق في قوته ثلاث مرات، قوة المادة التي تصنع منها السُترة الواقية من الرصاص، ولذلك قال تعالى: ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾، ولم يقل: (أوهن الخيوط)، فتأمل![٣].

---

(١) **النجار:** د. زغلول راغب، **السماء في القرآن الكريم**، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤م، ص ٨٢ وما بعدها، وأنظر أمثلة أخرى مذهلة في المرجع المذكور.

(٢) **النجار:** د. زغلول راغب، **الحيوان في القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص ١٤٠ - ١٤٤، **اللوح:** د. عبد السلام حمدان، **الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**، آفاق للطباعة والنشر والتوزيع، غزة، فلسطين، ط٢، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ص ١٩٧ - ١٩٩.

(٣) **النجار:** د. زغلول راغب، **الحيوان في القرآن الكريم**، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٦م، ص ١٤٢.

ثم إن التعقيب بعبارة ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ ، إشارة إلى الحقائق العلمية التي تضمنتها الآية الكريمة، والتي لم يكشف عنها إلا العلم الحديث.

٧ - الذباب

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾(الحج: ٧٣).

وقد تضمنت الآية الكريمة إشارات علمية عديدة، منها:

أولاً: ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾، فالسلب هو: الاختلاس، والذباب يختلس ما يأخذه اختلاساً، على وجه القهر. فقد كشف العلم الحديث، أن حركات الذبابة على درجة كبيرة من التعقيد، تمكنها من هذا السلب. فالذبابة لها قدرة على الإقلاع عمودياً مع القدرة على المناورة بالحركات الأمامية والخلفية والجانبية بسرعة فائقة. ويساعد الذبابة على هذا طبيعة أجنحتها وعضلاتها وما تحمله من شعيرات توجه الأجنحة في الاتجاه الصحيح. ويعين الذبابة في ذلك أيضاً عينان لا يزيد حجم الواحدة منهما على نصف المليمتر المكعب، وتتكون كل عين منهما من ستة آلاف عين سداسية، لها القدرة على الرؤية في جميع الاتجاهات، ومجموع الخيوط العصبية في العين الواحدة يقدر بـ ٤٨ ألف خيط عصبي، يمكنها معالجة أكثر من مائة صورة في الثانية، بالإضافة إلى مليون خلية عصبية متخصصة بالتحكم في حركة الذبابة.

الثانية: ما تضمنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾، ففي ذلك إشارة إلى ما توصل إليه العلم الحديث، من أن الذبابة تقوم بامتصاص الشراب والطعام بسرعة فائقة، وذلك بإفراز عدد من الأنزيمات والعصائر الهاضمة، القادرة على هضمه وإرساله إلى جهازها الدوري، ثم إلى مختلف خلايا جسمها، في ثوانٍ معدودةٍ، وبذلك لا يمكن استرجاعه منها[1].

([1]) **النجار:** د. زغلول راغب، **الحيوان في القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص ١٥٦ - ١٦٠.

السـنة النبـوية

(إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد، هذا النبي الذي لو تولى أمر العالم اليوم، لوفق في حل مشكلاتنا بما يؤمِّنُ السلامةَ والسعادةَ التي يرنو إليها العالم).

الفيلسوف الإنجليزي جورج برناردشو

تأتي السنة النبوية في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم من حيث أهميتها وأثرها، فقد كان النبي ﷺ رحمة للعالمين، ودعا إلى كل خير وحق وإلى العدل والمساواة والأخوة بين الناس، وكانت حياته وسيرته مثالاً يحتذى في الأخلاق وفي السلوك السوي المستقيم.

تعريف السنة النبوية:

السنة - في اللغة - هي: الطريقة والسيرة[1]، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾(الأحزاب: ٣٨).

والسنة في الاصطلاح: ما صحَّ عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير[2].

مثال القول حديث: **(إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ)**[3]. ومثال الفعل: كيفية صلاته وحجه ﷺ. ومثال التقرير: أنه ﷺ رأى الحبشة يلعبون في المسجد بحرابهم، فلم يعنفهم، فهو إقرار منه ﷺ لفعلهم[4].

---

(1) **ابن فارس:** أحمد بن فارس بن زكريا ت ٣٩٥ هـ، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د. ت، ٣/ ٦٠ - ٦١.

(2) هذا تعريف الأصوليين للسنة، ويضيف المحدثون في آخره: **(أو صفة)**، أنظر: **عتر:** د. نور الدين، **منهج النقد في علوم الحديث**، دار الفكر، دمشق، ط ٣، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣م، ص ٢٧ وما بعدها.

(3) رواه **البخاري**، كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت حديث رقم: ٥٧٦٩، ج٥، ص٢٢٦٨.

(4) أصل القصة عند البخاري عن عاشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: **(لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا عَلَى بَابِ حُجْرَتِي وَالْحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ أَنْظُرُ إِلَى لَعِبِهِمْ)**، رواه **البخاري**، كتاب أبواب المسجد، باب أصحاب الحراب في المسجد، حديث رقم: ٤٤٣، ج١، ص١٧٣.

أهمية السنة النبوية:

تُشكل السنة النبوية مصدراً أساسياً وشاملاً للمعرفة، وذلك بما حوته من أحكام وتوجيهات في شتى ضروب الحياة وأبواب المعرفة وجوانب الحضارة فضلاً عن جوانب الغيب والعقيدة. فهي شاملة بشمول هذا الدين العظيم[1].

والسنة النبوية ملزمة لكل مسلم، ولا يجوز لأحد أن يدعي الاستغناء عنها، زاعماً أن القرآن الكريم قد بين كل شيء فيجب الاقتصار عليه.

ذلك أن السنة النبوية، في الحقيقة، ليست اختراعاً من عند النبي ﷺ، وإنما هي وحي من الله تعالى ولكن بالمعنى، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(النجم: ٣ - ٤).

والقرآن الكريم نفسه ألزم المسلمين الأخذ بها، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (الحشر: ٧).

ومن الناحية العملية، فإن من يزعم الاستغناء عن السنة النبوية، لا يستطيع القيام بكثير من فرائض الإسلام وشعائره التي أمر بها القرآن الكريم نفسه، ذلك أن القرآن الكريم جاء بأصول الشريعة وقواعدها العامة، تاركاً للسنة أن تبين ذلك وتشرحه وتفصله، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(النحل: ٤٤).

مثلاً: أمر القرآن الكريم بإقامة الصلاة، ولم يبين عدد الصلوات المطلوبة وهيئاتها وركعاتها وما يقرأ فيها، وكذلك فرض القرآن الكريم الحج والزكاة والصيام، فجاءت السنة النبوية لتبين أحكام ذلك كله بالتفصيل.

أتأمل: قال رجل للصحابي عمران بن حصين ﷺ، وكان جالساً مع أصحابه: (لا تحدثونا إلا بالقرآن، فقال له عمران: أدنه، فدنا، فقال: أرأيت لو وُكِلت أنت وأصحابك إلى القرآن، أكنت تجد فيه صلاة الظهر أربعاً، وصلاة العصر أربعاً، والمغرب ثلاثاً تقرأ في اثنتين؟ أرأيت لو وُكِلت أنت وأصحابك إلى القرآن، أكنت تجد الطواف في البيت سبعاً، والطواف بالصفا والمروة؟ ثم قال: أي قوم، خذوا عنّا، فإنكم والله إلا تفعلوا لَتَضِلُّنَّ[2].

---

(1) **القرضاوي**، د. يوسف، **السنة مصدراً للمعرفة والحضارة**، دار الشروق، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٨م.

(2) أخرجه **البغدادي**: الخطيب أحمد بن علي، **الكفاية في علم الرواية**، تعليق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، ص٢٠.

عناية المسلمين بحفظ السنة النبوية:

انصرف علماء جهابذة، من الصحابة ﷺ ومن بعدهم، إلى العناية بالسنة النبوية، وكرَّسوا حياتهم لحفظها وجمعها وتدارسها وتعلمها وتعليمها وتناقلها والعمل بها وتدوينها، وقد تواترت القصص التي تُظهر مدى شدة اهتمامهم بالسنة النبوية وبحفظها، حتى قطعوا المسافات الطويلة وعانوا المشقات الكبيرة، في سبيل سماع الحديث الواحد منها.

جاء عن عمر ﷺ أنه قال: **(كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنْ الْأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ)**[1].

ورحل جابر بن عبد الله ﷺ، مسيرة شهر في طلب حديث، يقول عن نفسه:

(بَلَغَنِي حَدِيثٌ عَن رَجُلٍ سَمِعَهُ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاشْتَرَيْتُ بَعِيراً ثُمَّ شَدَدْتُ رَحْلِي عَلَيهِ، فَسِرْتُ إِلَيْهِ شَهْراً، حتَّى قَدِمْتُ عَلَيهِ الشَّامَ، فَإِذَا عَبدُ اللهِ بن أُنَيْسٍ، فَقُلْتُ للبَوَّابِ: قُلْ لَهُ جَابِرٌ عَلَى البَابِ، فَقَالَ: ابنُ عبدِ اللهِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَخَرَجَ يَطَأُ ثَوبَهُ فَاعْتَنَقَنِي وَاعتَنَقتُهُ، فَقُلْتُ: حَدِيثاً بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ سَمِعْتَهُ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي القِصَاصِ، فَخَشِيتُ أَنْ تَموتَ أو أَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَهُ...)[2].

دواعي حفظ السنة النبوية:

هَيَّأ الله تعالى دواعي العناية بالسنة النبوية وحفظها لدى المسلمين في كل عصر، ومن أهم تلك الدواعي:

- المكانة العظيمة التي تبوأها النبي ﷺ في نفوس المسلمين في كل العصور.
- حث القرآن الكريم المتكرر على طاع النبي ﷺ والاقتداء بسنته.
- حاجة المسلمين للسنة للعمل بها، واستنباط أحكام المستجدات منها.
- القدرة الكبيرة التي كان يتميز بها العرب على الحفظ عن ظهر قلب[3].

أفكر: كان العرب حين البعثة أمّةً أمّيَّةً، لا تقرأ ولا تكتب، فهل أثر الأمّيَّةِ على قوة الذاكرة، أثر إيجابي أم سلبي؟

---

(1) رواه **البخاري**، كتاب العلم، باب التناوب في العلم، حديث رقم: ٨٩، ج١، ص٤٦.

(2) رواه **ابن حنبل:** أحمد بن محمد، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها، مؤسسة قرطبة، القاهرة، مسند المكيين، حديث عبد الله بن أنيس رضي الله عنه، حديث رقم: ١٦٠٨٥، قال شعيب الأرنؤوط: **إسناده حسن**، وسيشار إلى هذا المرجع فيما بعد هكذا: رواه **أحمد**.

(3) **عتر:** د. نور الدين، **منهج النقد في علوم الحديث**، مرجع سابق، ص ٣٧ - ٣٩.

منهج علماء المسلمين في التثبّت من المنقول عن النبي ﷺ

وضع علماء المسلمين منهجاً علميّاً مُحكماً للتثبّت من المنقولات المنسوبة إلى النبي ﷺ، يقوم على قواعد علمية دقيقة، وهو منهج فريد وجديد في التثبت من الروايات المنقولة، لم يُسبق المسلمون إلى مثله.

ويتعلق هذا المنهج بناحيتين: سند الحديث الشريف، ومتنه:

أتعلم: السند هو: سلسلة الرواة الذين رووا الحديث الشريف، والمتن هو: نص الحديث الشريف كما صدر عن النبي ﷺ[1].

منهج نقد سند الحديث الشريف:

وضع العلماء قواعد علمية للتثبت من صدق كل راو فيما يرويه، فيما يُعرف بـ(عدالة الراوي)، والتي يمكن التعبير عنها بلغة العصر بـ(الأمانة العلمية)، وكذا التأكد من صحة سماع الرواة بعضهم من بعض، ومدى قوة حفظهم وضبطهم لما ينقلوه، ويمكن التعبير عن ذلك بلغة العصر بمصطلح (الكفاءة العلمية).

وقد بلغ من عناية علماء المسلمين ودقتهم في نقد السند، أنهم كانوا يرفضون رواية من عُرفَ بالتقوى والصلاح، إذا كان في ضبطه وحفظه ضعف، يقول الإمام يحيى بن سعيد القطان: (آتمن الرجل على مائة ألف، ولا آتمنه على حديث)، ويقول الإمام مالك: (لا يؤخذ العلم من،...، رجل له فضل وصلاح وعبادة، لا يعرف ما يحدث) [2].

وترجع بدايات هذا المنهج إلى عهد الصحابة ﷺ، فقد كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، يشترطان - في بعض الأحيان - أن يأتي الراوي من الصحابة براوٍ آخر يشهد معه أنه سمع ما سمعه من النبي ﷺ، وكان علي رضي الله عنه يستحلف الراوي من الصحابة أن ما يرويه قد سمعه من النبي ﷺ.

---

(1) **الصباغ:** محمد بن لطفي، **الحديث النبوي، مصطلحه، بلاغته، كتبه**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٦، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م، ص ١٢٦ - ١٢٧.

(2) **البغدادي:** الخطيب، **الكفاية في علم الرواية**، مرجع سابق، ص ١٤٦ - ١٤٧.

وقد طوّر العلماء بعد الصحابة ﷺ هذا المنهج، ووضعوا علوماً للتثبت من الرواية السماعية، لم توجد عند غيرهم من الأمم، مثل:

- **علم مصطلح الحديث الشريف**، وهو: (العلم بقواعد يُعرف بها أحوال السند والمتن من حيث القبول أو الرد). ومن أهم مقررات هذا العلم: وضع قواعد تحدد شروط الحديث الصحيح ومراتبه، وقواعد تحدد مراتب الحديث الضعيف، ومتى يتقوى بغيره ومتى لا يتقوى.

- **علم الجرح والتعديل**، وهو: (العلم الذي يبحث ويبين بالتفصيل أحوال كل راوٍ من رواة الحديث الشريف، من حيث قوة الحفظ والضبط والعدالة الدينية)، وكان من ثمرات هذا العلم تصنيف الرواة إلى مراتب، فهناك الثقات، وهناك الضعفاء، وهناك مراتب متفاوتة بين ذلك، وهناك الوضاعون[1].

منهج نقد متن الحديث الشريف:

وضع العلماء قواعد علمية للتثبت من صحة معنى الحديث شرعاً وعقلاً.

وترجع بدايات هذا المنهج أيضاً إلى الصحابة ﷺ، ومن ذلك:

عن فاطمة بنت قيس: (**أَنَّ زَوجَهَا طَلَّقَهَا ثَلاثَاً، فَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا رَسولُ اللّهِ ﷺ سُكْنَى وَلا نَفَقَةً... قَالَ الأسوَدُ بنُ يَزِيدٍ: قَالَ عُمَرُ: لا نَتْرُكُ كِتَابَ اللّهِ وَسُنَّةَ نَبِيّنَا ﷺ لِقَوْلِ امْرَأَةٍ، لا نَدْرِي لَعَلَّهَا حَفِظَت أَوْ نَسِيَتْ، لَهَا السُّكْنى وَالنَّفَقَةَ، قَالَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾(الطلاق: ١))[2].

وقد طوّر العلماء بعد الصحابة ﷺ هذا المنهج، ووضعوا قواعد علمية دقيقة للتثبت من صحة معنى الحديث الشريف، منها: عدم مناقضة القرآن الكريم، أو الأصول العامة للدين، أو معطيات العقل والمنطق السليم، أو حقائق التاريخ الثابتة، حتى إذا خالف متنُ الحديث شيئاً من ذلك، رده العلماء، واتخذوا هذه المناقضة دليلاً على أنه لا يمكن أن يصدر من النبي ﷺ، وإن ورد بسند صحيح، مما يؤكد احتمال وهم بعض الرواة أو خطئهم.

---

(1) **عتر:** د. نور الدين، **منهج النقد في علوم الحديث**، مرجع سابق، ص ٣٢ - ٣٣، ٩٢ - ٩٣.

(2) رواه **مسلم:** مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها، حديث رقم: ١٤٨٠، ج٢، ص١١١٤، وسيشار إلى هذا المرجع فيما بعد اختصاراً هكذا: رواه مسلم.

ووما تجدر الإشارة إليه هنا أن تعارض الحديث مع القرآن أو الحقائق الثابتة لا يُحكم به لمجرد التعارض الظاهري، لأنه الأفهام قد تختلف؛ فقد يغيب الفهم الصحيح للحديث عن ذهن المسلم، وهنا يجب عليه أن يستفرغ وسعه في فهم الحديث وسؤال أهل العلم، حتى لا يقع في معضلة رد السنة جزافا دون أدنى علم.

أتأمل: عندما يعجز إنسان عن فهم مسألة في الرياضيات أو في علم البلاغة فإنه يتهم عقله وفهمه ثم يحاول فهمها بإعادة التأمل وسؤال أهل الاختصاص.

ولكن العجيب أن هذا المنهج لا يعمل به كثير من الناس في فهم الحديث النبوي، فتراهم يسارعون إلى رد الحديث والحكم بخطئه لمجرد أنهم عجزوا عن فهمه! أولا يُعد هذا تناقضا منهجيا عجيبا؟!

تدوين السنة النبوية مميزاً فيها

بدأ تدوين السنة مبكرا في ع
كان بصورة فردية، كصحيفة ع
بعدهم من التابعين وأتباعهم[٢].

ثم تُوِّجَ ذلك بحركة تدوين رسمية واسعة وشاملة، بدأت في **بداية القرن الهجري الثاني** بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز، حيث دونت أحاديث النبي ﷺ في دوواين كبيرة دون ترتيب معين، ثم تطورت حركة التدوين لتصنيف ما دُون وفق أكثر من طريقة؛ وكان القرن الثالث الهجري هو العصر الذهبي في تصنيف الحديث النبوي، حيث قام العلماء بتدوين كل ما ورد عن النبي ﷺ، مميزين في ذلك، وعلى أساس المنهج العلمي الذي وضعوه، بين الصحيح والضعيف والموضوع، وقد أبدعوا في ذلك تصنيفاً وترتيباً.

فمِنَ العلماء مَن رتب الأحاديث الشريفة حسب اسم من يرويها من الصحابة ﷺ، بحيث تُجمع الأحاديث الشريفة التي رواها كل صحابي في موضع خاص بها، فمثلاً تُجمع أحاديث أبي هريرة ﷺ في موضع، وأحاديث ابن عباس ﷺ في موضع، وهكذا. وتعرف هذه الطريقة بطريقة **المسانيد**، مثل مسند الإمام أحمد.

ومنهم من رتبها أبواباً حسب موضوع الحديث الشريف، بحيث تُجمع الأحاديث الشريفة التي في موضوع معين تحت باب خاص بها، فمثلاً تُجمع الأحاديث الشريفة الواردة في الإيمان تحت باب الإيمان، والأحاديث الشريفة الواردة في الجهاد تحت باب الجهاد، وهكذا.

---

(١) حديث عن أبي هريرة أن ابن عمرو بن العاص كان يكتب ولا أكتب، رواه **مسلم**، كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، حديث رقم: ٣٠٠٤، ج٤، ص٢٢٩٨.

(٢) انظر: الأعظمي، محمد مصطفى: **دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه**، طبعة المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ_١٩٨٠م. (٨٤/١)، وما بعدها.

وقد سميت الكتب التي صنفت على هذا النحو **بالجوامع وبالسنن**، مثل الكتب الستة، وهي: صحيح البخاري وصحيح مسلم وجامع الترمذي وسنن النسائي وسنن أبي داود وسنن ابن ماجه.

وبعض العلماء خصوا الأحاديث الصحيحة بمؤلفات خاصة، مثل: صحيح البخاري وصحيح مسلم.

وبعض العلماء خصوا الأحاديث الموضوعة بمؤلفات خاصة للتحذير منها، مثل: كتاب "الموضوعات" لابن الجوزي.

وبعض العلماء ألفوا في الأحاديث الشريفة التي يكثر ترددها على ألسنة العامة، فبينوا حكمها ودرجتها، مثل: كتاب المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة على الألسنة، للإمام السخاوي[1].

أتعلم: يطلق العلماء على الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم مصطلح: (رواه الشيخان)، أو (متفق عليه)، وعلى الحديث الذي رواه الترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة مصطلح: (رواه الأربعة)، وإذا انضم إلى الأربعة البخاري ومسلم قالوا: (رواه الستة)[2].

هل السنة دونت بعد النبي ﷺ بمئتي عام؟

يدعي بعض الناس أن السنة دونت بعد وفاة النبي ﷺ بمئتي عام، وهذه دعوى لا أساس لها، فالسنة دونت بصورة رسمية مع نهاية القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني، أي إن من دونها هم التابعون الذين أخذوها من الصحابة رضي الله عنهم، وكان دور من بعدهم من العلماء هو الترتيب والتصنيف والدراسة لهذه المرويات المكتوبة، والمنقولة سماعا. فالإمام البخاري على سبيل المثال لم يخترع أحاديث صحيحه، وإنما انتقاها من عدد كبير من الأحاديث التي صحت، ثم ضمنها كتابه.

---

(1) **عتر:** د. نور الدين، **منهج النقد في علوم الحديث**، مرجع سابق، ص ١٩٧ - ٢١٠.

(2) **الصالح:** د. صبحي، **علوم الحديث ومصطلحه**، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٠، ١٩٧٨م، ص ١١٧

مزايا السنة النبوية:

تتوافر في السنة النبوية مزايا كثيرة من حيث الأسلوب والمضمون، لم تجتمع في كلام بشر آخر، وذلك من دلائل نبوته ﷺ، ومن أهم هذه المزايا[1]:

١ - إيجاز اللفظ وغزارة المعانى

تتسم الأحاديث النبوية الشريفة بالتعبير عن معانٍ كثيرةٍ في ألفاظ قليلة، وذلك لأنه ﷺ أوتي جوامع الكلم، ومن أمثلة ذلك:

قوله ﷺ: **(الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)**[2].

وقوله ﷺ: **(إِيَّاكُم وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَنَّ أَكذَبُ الحَدِيثِ)**[3].

وقوله ﷺ: **(اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ)**[4].

٢ - دقة التشبيه

زخرت الأحاديث النبوية بالتشبيهات الدقيقة والأمثلة التوضيحية العميقة، وهو أسلوب عظيم الأثر في تقريب المعاني المجردة إلى الأذهان، ومن ذلك:

قوله ﷺ: **(تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْواً، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)**[5].

وقوله ﷺ: **(أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ قَالُوا لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا قَالَ فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا)**[1].

---

(١) اعتمدنا في هذه المزايا بتصرف على: **الصباغ:** محمد بن لطفي، **الحديث النبوي**، مرجع سابق، ص ٥٤ - ٩٩.

(٢) رواه **البخاري**، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، حديث رقم: ١٠، ج١، ص١٣.

(٣) رواه **البخاري**، كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع، حديث رقم: ٤٨٤٩، ج٥، ص ١٩٧٦، وكتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، حديث رقم: ٥٧٧، ج٥، ص ٢٢٥٣، ورواه **مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، حديث رقم: ٢٥٦٣.، ج٤، ص١٩٨٥.

(٤) رواه **الترمذي**، **سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب البر والصلة عن رسول الله، باب ما جاء في معاشرة الناس، حديث رقم: ١٩٨٧، ج٤، ص٣٥٥، قال الترمذي: **هذا حديث حسن صحيح**، وقال الألباني: **حديث حسن**.

(٥) رواه **البخاري**، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم: ٥٦٦٥، ج٥، ص٢٢٣٨، ورواه **مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين، حديث رقم: ٢٥٨٦، ج٤، ص١٩٩٩.

وقوله ﷺ: **(مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا)**[٢].

٣ - عمق المعانى

تتصف السنة النبوية بعمق معانيها، ومن أمثلة ذلك:

قوله ﷺ: **(إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا)**[٣].

فقد ربط الحديث الشريف بين الصدق والبر من جهة، وبين الكذب والفجور من جهة أخرى، لأن المرء إذا عزم أن يكون صادقاً في كل ما يقول، فإنه لن يقدم على عمل ما يستحي أو يخشى من الصدق في الإخبار عنه، لئلا يضطر إلى الكذب، وهكذا تستقيم أعماله ويصل إلى درجة الصديقين.

وقوله ﷺ: **(لَا تَدخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى تُؤمِنُوا، وَلَا تُؤمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُم عَلَى شَيءٍ إِذَا فَعَلتُمُوهُ تَحَابَبتُم، أَفشُوُا السَّلامَ بَينَكُم)**[٤].

فإلقاء السلام بين الناس من أكثر ما يزيد الود والتعارف بينهم ويزيل الوحشة والنفرة منهم.

٤ - تصحيح المفاهيم

صححت السنة النبوية كثيراً من المفاهيم الاجتماعية غير الصحيحة، والخرافات التي كانت سائدة في المجتمعات، ومن أمثلة ذلك:

نهيه ﷺ عن الطِيَرَة ونفيه أي أثر لها في الواقع[٥].

---

(١) رواه **البخاري**، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، حديث رقم: ٥٠٥، ج١، ص١٩٧.

(٢) رواه **البخاري**، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، حديث رقم: ٢٣٦١، ج٢، ص٨٨٢.

(٣) رواه **البخاري**، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) (التوبة: ١١٩) وما ينهى عن الكذب، حديث رقم: ٥٧٤٣، ج٥، ص٢٢٦١.

(٤) رواه **مسلم**، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون...، حديث رقم: ٥٤، ج١، ص٧٤.

(٥) الحديث: **(لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ وَفِرَّ مِنْ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنْ الْأَسَدِ)**، رواه **البخاري**، كتاب الطب، باب الجذام، حديث رقم: ٥٣٨٠، ج٥، ص٢١٥٨.

والطِيَرَة هي التشاؤم، فقد كان الناس في الجاهلية، إذا أراد أحدهم الشروع في أمر، أفلَتَ من يده طائراً وتركه يطير، فإن طار يمنةً تفاءَل ومضى في عمله، وإن طار يسرةً تشاءم وأحجم عما كان مزمعاً على فعله.

ولا يزال بعض الناس إلى يومنا هذا يتشاءمون بيوم معين، أو رقم معين، أو لون معين، أو شخص معين، على عادة أهل الجاهلية المقيتة.

أفكر: يعتقد من يتشاءمون بشيء معين، أن ما يتشاءمون منه يحدث دائماً أو غالباً على أقل تقدير، كيف يمكن تفسير هذا الاعتقاد؟!

وقوله ﷺ: **(لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ)**[1].

فقد يظن بعض الناس أنه لا يصدر الحِلم إلا من الضعيف، وأن حاد المزاج الذي يرد الصاع صاعين كما يقولون، هو القوي، فصحح الحديث الشريف هذه النظرة.

الإعجاز في السنة النبوية:

تضمنت السنة النبوية أوجهاً من الإعجاز، لا يمكن أن يتضمنها كلام بشر، وذلك من الأدلة على نبوة النبي ﷺ، نذكر منها:

الإعجاز الغيبي والإعجاز العلمي.

الإعجاز الغيبي في السنة النبوية

وهو: إخبار النبي ﷺ بالأحداث قبل أن تقع، فتقع كما أخبر.

وأمثلة ذلك كثيرة، منها:

تنبؤ النبي ﷺ بالشهادة لعمر وعثمان رضي الله عنهما، وقد قتلا شهيدين فعلاً، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: **(أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ أُحُدًا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ، فَرَجَفَ بِهِمْ، فَقَالَ: اثْبُتْ أُحُدُ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ)**[2].

وتنبؤه ﷺ بمقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه على يد جيش معاوية، وهو ما حدث سنة أربعين للهجرة، وذلك قوله ﷺ : **(تَقْتُلُ عَمَّارًا الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ)**[1].

---

(1) رواه **البخاري**، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، حديث رقم: ٥٧٦٣، ج٥، ص٢٢٦٧.

(2) رواه **البخاري**، كتاب المناقب، باب قول النبي لو كنت متخذاً خليلاً، حديث رقم: ٣٤٧٢، ج٣، ص ١٣٤٤، وحديث رقم: ٣٤٩٦، ج٣، ص ١٣٥٣.

الإعجاز العلمي في السنة النبوية

وهو: إخبار النبي ﷺ بحقائق علمية لم تكن معروفة في عصره، جاء العلم الحديث وأكد صحة ما أخبر به النبي ﷺ وصدقه، ومن أمثلة ذلك:

١) عَجْبُ الذنب

جاء في الحديث الشريف: (**لَيْسَ مِنْ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)[٢].

وقد كشف العلم الحديث أن تكوين الإنسان يبدأ بشريط أولي، يظهر في اليوم الخامس عشر من عمر الجنين، ثم تبدأ الانقسامات المتتالية لتكوين الجنين وأجهزته بفعل نشاط هذا الشريط، وهكذا يبدأ الجنين يتكون وينمو بسرعة ليصير إنساناً بإذن الله تعالى.

ويبدأ هذا الشريط في الاندثار منذ الأسبوع الرابع، ولا يبقى منه إلا أثر في العظم العصعصي، أسفل الظهر، وهو ما أسماه النبي ﷺ عجب الذنب[٣].

٢) ولوغ الكلب

جاء في الحديث الشريف: (**طَهُورُ إِنَاءِ أَحَدِكُمْ إِذَا وَلَغَ فِيهِ الْكَلْبُ، أَنْ يَغْسِلَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ أُولاهُنَّ بِالتُّرَابِ**)[٤].

وقد كشف العلم الحديث أن الكلب تعيش في أمعائه دودة تسمى (تيتا إكنياكوكس)، تخرج بيوضها مع برازه، وبما أن الكلب كثيراً ما يقوم بلحس جسمه، فإن هذه البيوض قد تعلق بلسانه وتنتقل منه إلى الأواني التي يلعقها، فتدخل إلى أمعاء مستخدميها، ومنها تتسرب إلى الدم والدماغ، وقد يصل الأمر إلى حد الشلل الدماغي أو الموت أحياناً.

وقد وجد العلماء أن هذه البويضات لا تموت بالغسل ومساحيق التنظيف العادية، وأن التراب يحتوي بكتيريا خاصة هي وحدها القادرة على قتلها[٥].

---

(١) رواه **مسلم**، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، حديث رقم: ٢٩١٦، ج٤، ص٢٢٣٦.

(٢) رواه **البخاري**، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النبأ، حديث رقم: ٤٦٥١، ج٤، ص١٨٨١.

(٣) **البار:** د. محمد علي، **خلق الإنسان بين الطب والقرآن**، مرجع سابق، ص ٢٣٨ - ٢٤٠.

(٤) رواه **مسلم**، كتاب الطهارة، باب حكم ولوغ الكلب، حديث رقم: ٢٧٩، ج١، ص٢٣٤.

(٥) **عبد الصمد:** محمد كامل، **الإعجاز العلمي في الإسلام: السنة النبوية**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط٤، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٧م، ص٥٠ - ٥٢.

٣) الحبة السوداء

جاء في الحديث الشريف: **(الْحَبَّةُ السَّوْدَاءُ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ، إِلَّا السَّامَ)**[١].

وقد أثبتت البحوث العلمية أن الحبة السوداء لها أهمية كبرى كمنشط طبيعي للمناعة وتحسين فعالية الخلايا الطبيعية، وتلعب دوراً مهماً في علاج الإيدز وغيره من الأمراض التي تصاحب نقص المناعة[٢].

أي أن الحبة السوداء تعمل على تقوية المناعة، وحيث إن المناعة هي التي تقف سداً منيعاً في وجه كل داء، كانت الحبة السوداء كما وصفها الحديث النبوي أنها: (**شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ**).

قواعد في التعامل مع السنة النبوية وفهمها[٣]:

لا بد للتعامل الصحيح والفهم السليم للسنة النبوية من مراعاة جملة من الأمور، من أهمها:

١- **التمييز بين الصحيح والضعيف:** لا بد من التأكد من صحة السنة قبل البناء عليها، وعدم الاعتماد على الحديث الضعيف والموضوع منها. وتزداد أهمية هذا الأمر في مجال الأحكام وفي مجال القيم والمقاصد العامة فضلاً عن مجال العقيدة.

٢- **فهم الأحاديث في ضوء القرآن الكريم.**

٣- **ملاحظة الملابسات التي ورد الحديث فيها:** إن ملاحظة الملابسات والظروف التي أحاطت بالحديث حين صدر عن النبي ﷺ يُلقي ضوءاً على المعنى المقصود منه، ويُساعد على فهمه.

٤- **فهم الحديث في ضوء مبادئ القرآن ومقاصده:** السنة خادم للقرآن بالبيان والتوضيح، وليس من المقبول شرعاً ولا عقلاً فهم السنة فهماً يخالف مبادئ القرآن ودلالاته ومعانيه.

٥- **فهم الأحاديث بمجموعها:** إن الأحاديث النبوية صدرت عن النبي ﷺ الذي لا يمكن أن يتناقض كلامه، لأنه لا يتكلم إلا عن وحي، وبالتالي فإنه ليس من المقبول ولا المعقول الاجتزاء بفهم حديث أو الاكتفاء بالأخذ به، وكأن الدين كله مبني على هذا

---

(١) رواه **البخاري**، كتاب الطب، باب الحبة السوداء، حديث رقم: ٥٣٦٤، ج٥، ص٢١٥٤، ورواه **مسلم**، كتاب السلام، باب التداوي بالحبة السوداء، حديث رقم: ٢٢١٥، ج٤، ص١٧٣٥، والسام: الموت.

(٢) **عبد الصمد**: محمد كامل، **الإعجاز العلمي في الإسلام: السنة النبوية**، مرجع سابق، ص٨٠ - ٨١.

(٣) أنظر: **القرضاوي**، د. يوسف، **كيف نتعامل مع السنة النبوية**، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٢.

الحديث، مع إغفال غيره من الأحاديث، التي يُعطي مجموعها فهماً كلياً صحيحاً وصورة متكاملة عن الموضوع.

٦- **فهم الحديث في ضوء الحقائق العلمية المعاصرة.**

أقرأ وأستمتع

قالوا في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

(إن اختياري محمداً، ليكون الأول في أهم وأعظم رجال التاريخ، قد يُدهشُ القرّاء، ولكنه الرجلُ الوحيدُ في التاريخ كله، الذي نجح أعلى نجاح على المستويين الديني والدنيوي).

مايكل هارت: في كتابه "المائة العظماء الأكثر تأثيراً في التاريخ".

(محمد هو النبي الفيلسوف الخطيب المشرع المحارب قاهر الأهواء، وبالنظر إلى مقاييس العظمة البشرية أود أن أتساءل: هل هناك من هو أعظم من النبي محمد؟!)

المفكر الفرنسي لا مارتين

(وإذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا: إن محمداً كان أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارةُ الجوِّ وجدبُ الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ).

ويل ديورانت في كتابه "تاريخ الحضارة الإنسانية"

الوحدة الثالثة

الإسلام عقيدة وشريعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴾

(الكهف: ١٠٧- ١٠٨)

صدق الله العظيم

محتويات الوحدة وأهدافها
وتتمثل بالآتي:

١. **العقيدة الإسلامية وخصائصها:**

الهدف: أن يتمثل الطلبة العقيدة الإسلامية في فكرهم وسلوكهم.

وأن يناقش الطلبة مفهوم العقيدة، والمفاهيم المتعلقة بها، مثل مفاهيم: توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وأن يناقش الطلبة خصائص عقيدة الإسلام، ويتمثلوا هذه الخصائص في وجدانهم، وسلوكهم لتكون المنهاج القويم لتربيتهم.

٢. **الشريعة الإسلامية: الأحكام الربانية التي تنظم حياة الإنسان في دنياه وآخرته، وأصلها الثقافي عقيدة الإسلام.**

الهدف ١: أن يناقش الطلبة مفهوم الشريعة الإسلامية.

الهدف٢ : أن يتعرف الطلبة على خصائص شريعة الإسلام.

العقيدة الإسلامية

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾(البقرة:١٣٦).

الإسلام عقيدة وشريعة، حيث تمثل العقيدة الجانب النظري الذي يجب التصديق به، بينما تمثل الشريعة الجانب العملي الذي يجب تطبيقه.

مفهوم العقيدة الإسلامية

العقيدة مصطلح أطلقه علماء المسلمين على قضايا الإيمان، علماً بأن القرآن الكريم والسنة النبوية لم يعبرا عن هذه القضايا بلفظ العقيدة، وإنما عبرا عنها بلفظ الإيمان ومشتقاته. ولا شك أن لفظ الإيمان يبقى أكثر قُرباً للقلب والنفس من أي لفظ آخر.

والعقيدة لغة: من عَقَدَ الحبلَ والبيعَ والعهدَ، أي رَبَطَه وَوَثّقَه وشَدَّه، وهي معانٍ تفيد القوة والإحكام[1]، وهكذا عقيدة المؤمن في قوتها وتمكنها من نفسه.

والعقيدة تشمل الجانب النظري في الإسلام الذي يجب الإقرار به إقراراً جازماً لا يخالطه شك، ويتمثل في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر.

الإيمان بالله تعالى

الإيمان بالله تعالى هو أهم أركان الإيمان وأساس الدين كله، وقد قرر علماء العقيدة أن الإيمان بالله تعالى لا يتم إلا بتوافر ثلاثة أنواع من التوحيد[2]:

---

(1) **ابن منظور:** علي بن مكرم، **لسان العرب**، مرجع سابق، ٣٨٦/٣، **الفيروزآبادي:** مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، مرجع سابق، ص ٢٧٢.

(2) أنظر في هذه الأنواع تفصيلاً أوسع في: **ياسين:** د. محمد نعيم، **الإيمان حقيقته أركانه نواقضه**، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ط٥، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧م، ص ١٥ وما بعدها.

١ - **توحيد الربوبية:** وهو الإقرار بوجود الله تعالى وإيجاده للمخلوقات، وعنايته بهم وتصرفه فيهم بالرزق والنفع والضر والإحياء والإماتة وغيرها.

٢ - **توحيد الألوهية:** وهو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، من صلاة ودعاء ونذر وخوف ورجاء وغيرها.

٣ - **توحيد الأسماء والصفات:** وهو الاعتقاد بأن الله تعالى متصفٌ وحده بصفات الكمال، ومنزه عن صفات النقص ومشابهة المخلوقات، فالله تعالى عليم لا يعزب عن علمه شيء، قدير لا يعجزه شيء، عادل لا يصدر منه ظلم، وهو تعالى لا يحده مكان ولا زمان، ولا تعتريه عوارض النقص، فلا يجهل ولا يندم ولا يتعب ولا ينام ولا ينسى[١].

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)، فهذه الآية الكريمة تضمنت شقين: شق تنزيه الله تعالى بنفي مشابهته لأي شيء، وشق إثبات صفات الكمال لله تعالى.

أتعلم: أكدت الآية الكريمة على تنزيه الله تعالى عن مشابهة أي شيء من مخلوقاته، بأسلوب بلاغي غير معهود، حيث نفت تلك المشابهة بأداتين متتابعتين من أدوات التشبيه: الكاف، والمثل. أو أن الآية أكدت على تنزيه الله تعالى، إلى حد أنها نفت المشابهة عن مثيله، لتبعيد المشابهة عن الأصيل وهو الله تعالى، مع أن الله تعالى لا مثيل له، وإنما جرت الآية على عادة العرب في التعبير[٢].

الإيمان بالله تعالى تقتضيه الفطرة وبدهيات العقل

الإيمان بالله تعالى فطرة مركوزة في نفس كل إنسان، وأكثر ما تظهر في أوقات الشدة، وهو ما أكثَرَ القرآن الكريم من تذكير الكافرين به، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ

---

(١) **الأشقر:** د. عمر سليمان، **الأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة**، دار النفائس، عمان، ط١، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٣م، ص ١١٧ - ١١٩.

(٢) أنظر: **الزمخشري:** محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، رتبه وضبطه: محمد شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ٢٠٦/٤.

أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(يونس: ٢٢ - ٢٣).

والإيمان بالله تعالى، يهدي إليه التفكير في هذا الخلق العظيم، لأن العقل يُحيل وجود أي شيء دون سبب أوجده، وخاصة إذا كان على نحو تام من الإتقان والإحكام، ولو دخلت داراً ووجدت الأثاث مرتباً بنظام وإحكام وإتقان وجمال، فإن أول ما تسأله: مَن المبدعُ الذي قام بترتيب الأثاث على هذا النحو الجميل والمُتقن؟[1].

ولو قلنا لإنسان: إن سيارة مثلاً قد تحرك محركها وسار بها في طريق معين، دون أن تصطدم بشيء، وأنها كانت تقف على إشارات المرور، وتتحاشى الاصطدام بأي جسم أو إنسان، حتى انتهى بها المقام إلى أن ركنت نفسها بإحكام إلى جانب طريق، في مكان غير ممنوع الوقوف فيه - إننا لو ذكرنا هذا لأي كافر أو ملحد، وقلنا له: إن ذلك كله تم دون فعل فاعل، ودون توجيه من أحد، لاتهمنا بالهذيان والجنون!! فكيف يستسيغ هذا الجاحد وجود هذا الخلق العظيم المحكم المتقن الدقيق، في السماوات والأرض والإنسان، دون خالق أحكمه وأتقنه وأحسن خلقه؟! وهو ما تعجَّبَ منه القرآن الكريم في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾(الطور:٣٥ - ٣٦).

ونفي الشريك لله تعالى يدل عليه العقل أيضاً، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(الأنبياء:٢٢)، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(المؤمنون: ٩١).

وإثبات صفات الكمال لله تعالى وتنزيهه عن كل نقص، من مقتضيات العقول السليمة، إذ لا يكون إلهاً من يكون عاجزاً أو مشابهاً لما خلق، فيما يعتريهم من صفات نقص وأحوال ضعف، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(الزمر: ٦٧).

([1]) **الميداني:** عبد الرحمن حسن، **العقيدة الإسلامية وأسسها**، دار القلم، دمشق، ط٧، ١٩٩٤م، ص ١٢٨ وما بعدها.

أكثر ما يخل به الناس من أنواع التوحيد

يؤمن أكثر الناس بوجود الله تعالى وربوبيته، ولكنهم يُخِلّونَ بتوحيد الألوهية، وبتوحيد الأسماء والصفات:

فالمشركون يقرون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، وأن آلهتهم وأصنامهم، ليسوا شركاء لله في خلق السماوات والأرض، ومع ذلك فإنهم يشركونها مع الله تعالى في العبادة، وهو ما تعجب منه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (يونس: ٣١).

والإخلال بتوحيد الألوهية لا يقتصر على التوجه بالعبادة إلى صنم أو شمس أو قمر، بل قد يتخذ صوراً أخرى أكثر خفاء، مثل: اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وتحكيم غير شرع الله تعالى، لأن إفراد الله تعالى بالخلق يقتضي إفراده بالأمر والتشريع، قال تعالى: ﴿ ں ں ڻ ڻ ڻ ﴾(الأعراف: ٥٤)[1].

ويخل كثير من الناس بتوحيد الأسماء والصفات، حين يشبهون الله تعالى بمخلوقاته:

فقد كان فلاسفة اليونان يعتقدون خطأً، أن الله تعالى لا يعلم تفاصيل ما يجري من أحداث في الكون.

بينما يعتقد أتباع بعض الديانات خطأً، أنه تعالى يندم ويتعب وينسى، وأنه فقير، ويده مغلولة.

وبعضهم يعتقد خطأً، أنه تعالى يلد مثل البشر، ويتخذ زوجة، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

> **أفكر:** قُرن الإيمان بالله تعالى بالعمل الصالح في أكثر من خمسين آية في القرآن الكريم.

(1) **الميداني:** عبد الرحمن حسن، **العقيدة الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص ٢٢٤.

الإيمان بالملائكة

وهو الإقرار بوجود مخلوقات لله تعالى، بطبيعتهم وصفاتهم ووظائفهم، كما بينها الله تعالى لنا في كتابه وسنة نبيه.

ومن صفاتهم: أنهم مخلوقون من نور، متمحضون لعبادة الله تعالى، لا يتعبون ولا يملون ولا ينامون ولا يعصون، ولا شهوة فيهم، فلا يأكلون ولا يتزاوجون، ولهم قدرات خارقة، ذكر القرآن الكريم بعضهم، مثل جبريل وميكائيل ومالك.

ولهم وظائف مخصوصة: فمنهم من هو موكل بحمل العرش، ومنهم من هو موكل بنار جهنم، ومنهم من هو موكل بكتابة أعمال العباد، ومنهم من هو موكل بقبض الأرواح، ومنهم من هو موكل بإنزال الكتب السماوية على الرسل، ومنهم من يرسله الله تعالى لنصرة المؤمنين وتثبيتهم.

ومن آثار الإيمان بهم: تقوية إيمان المؤمن بالله تعالى، وتشجيعه على طاعته والأنس بعبادته، حين يؤمن أن هناك مخلوقات عظيمة وكثيرة، تقوم بعبادة الله تعالى ليل نهار دون تعب أو كلل[1].

الإيمان بالكتب السماوية

وهو الإقرار بأن الله تعالى أنزل كتباً لهداية الخلق، ذكر القرآن الكريم بعضها، مثل: التوراة التي أنزلت على موسى، والزبور الذي أنزل على داود، والإنجيل الذي أنزل على عيسى، عليهم السلام جميعاً.

ثم القرآن الكريم آخر الكتب السماوية، وهو كتاب الله تعالى لكل الناس إلى آخر الزمان، وأما الكتب السابقة فمحدودة بزمانها ومكانها وبأقوام مخصوصين، ولذلك فالحجة على البشرية في العقيدة والحلال والحرام، إنما هي بالقرآن الكريم، المهيمن على ما سبقه من كتب، خاصة بعد تحريف الناس لها.

أما القرآن الكريم فقد تكفل الله تعالى بحفظه من التحريف والتبديل، حتى يبقى صالحاً لجميع الناس كما نزل إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩). بينما الكتب السابقة لم يتكفل الله تعالى بحفظها، لأنها كانت لأمم محدودة وليس

---

(١) **ياسين:** د. محمد نعيم، **الإيمان حقيقته أركانه نواقضه**، مرجع سابق، ص ٦٦-٦٧.

للناس كافة، فسعى بعض الناس إلى التبديل والتغيير فيها، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ (النساء: ٤٦).

ومن الأدلة على التبديل في الكتب السابقة:

١ - وجود تناقضات عديدة فيها، لا يمكن معها أن تكون هي كلام الله تعالى كما أنزل[١]. وذلك بخلاف القرآن الكريم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

٢ - في بعض الكتب السابقة نصوص تَنسب إلى الله تعالى ما لا يليق به، من الجهل والندم والتعب والضعف وغيرها[٢].

أتأمل: لا يزال التبديل على الكتاب المقدّس مستمراً إلى الآن، فبين فترة وأخرى يصدر الكتاب المقدس وعليه عبارة: "طبعة مزيدة ومنقحة" !

الإيمان بالرسل

الإيمان بالرسل عليهم السلام هو: الإقرار بأن الله تعالى أرسل رسلاً إلى الناس لهدايتهم، اختارهم الله تعالى من بين الناس، لما يتميزون به من مميزات، كالصدق والأمانة والإخلاص، كي يكونوا قدوة للناس، ولا يتشكك أحد في صدقهم. وعصمهم الله تعالى، وحفظهم من الخطأ في الوحي.

والإيمان بالرسل والرسالات السماوية، تقتضيه العقول والتفكير السليم، لأن العقل حين يُثبِتُ لله تعالى صفات الكمال، ينزهه عن أن يخلق الخلق ثم يُسَيِّبهم ضائعين دون هداية، أو يتركهم تائهين دون إرشاد وعناية، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ (الأنعام: ٩١).

---

(١) على سبيل المثال: ورد في كل من إنجيل متّى (١ :٢-١٧)، وإنجيل لوقا (٣ :٢٣-٢٨)، ذكرُ نَسَبِ السيدِ المسيحِ عليه السلام، مع اختلاف بينهما في العديد من أسماء هذا النسب! فضلاً على أن إيراد نسب المسيح من جهة أبيه مغالطة، لأنه وُلِدَ مِن غير أب.

(٢) على سبيل المثال انظر: سفر الخروج ١٧/٣١، وسفر التكوين ٢٤/٣٢ - ٢٨، والمزامير ٦٥/٧٨.

البشارة بالنبي محمد ﷺ :

ذكر القرآن الكريم أسماء خمسة وعشرين رسولاً ونبياً، وكان آخرهم محمداً ﷺ. وقد بَشَّرَ به موسى وعيسى عليهما السلام، وأمرا قومهما باتباعه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وقد بقيت بعض النصوص، إلى اليوم، في التوراة والإنجيل، تشير إلى التبشير بمجيء النبي محمد ﷺ، وإن كان ذلك بأسلوبٍ رمزيٍّ غير صريح. ومن الأمثلة على ذلك:

من **التوراة**: ما جاء في الباب (٣٣) من سفر التثنية: (جاء الرب من سيناء، وأشرق لنا من ساعير، واستعلن من جبل **فاران**). فذكر سيناء إشارة إلى نبوة موسى، وساعير اسم قرية من قرى الناصرة، ففي ذلك إشارة إلى نبوة عيسى، و**فاران** اسم مكة بالعبرانية، فذكرها إشارة إلى نبوة محمد، عليهم السلام.

ومن الأمثلة على ذلك من **الإنجيل**: ما جاء في الباب (١٤) من إنجيل يوحنا: (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم **فارقليط** آخر ليثبت معكم إلى الأبد)، و**الفارقليط** تعريب باللفظ للكلمة اليونانية: (بيركلوطوس)، ومعناها: المحمود أو مستحق الحمد[1]. وذلك هو الوصف الذي يُطلق على محمد ﷺ فهو محمد وهو أحمد وهو محمود.

وهنالك إنجيل آخر يُسمى إنجيل برنابا، يتحدث عن نبوة محمد ﷺ بشكلٍ أكثر وضوحاً، لكن هذا الإنجيل ليس محل اعتبار لدى الكنائس المعاصرة.

<u>أتعلم</u>: ما من نبي إلا وأُمِرَ باتباع محمد ﷺ، وبشر قومه بمجيئه، وأمرهم باتباعه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(آل عمران: ٨١).

---

(١) انظر: **الهندي:** رحمة الله بن خليل الرحمن، **إظهار الحق**، مرجع سابق ١١٣٤/٤ - ١١٣٥، ١١٨٥ - ١٢١٣، وفي بشارات أخرى كثيرة، انظر: ١١١٦/٤ وما بعدها في المرجع المذكور.

الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر هو: الإقرار بأن هناك يوماً تنتهي فيه الحياة الدنيا، ويقضي فيه الله تعالى بين العباد، ويعقب ذلك مصير إلى الجنة أو إلى النار.

وقد بين الله تعالى في كتابه المراحل المتعاقبة لهذا اليوم، فهي تبدأ بأهوال وانهيار هائل في نظام الكون، صوره القرآن الكريم لنا تصويراً مخيفاً في مواضع عديدة، منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾(الحج: ١- ٢).

ويعقب ذلك نفخة في الصور، يصعق منها من في السماوات والأرض إلا من شاء الله تعالى[1]، ثم ينفخ في الصور مرة أخرى، يُبعثُ على إثرها من صعق، وكل من مات من الخلائق من قبلُ منذ آدم عليه السلام، فيقضي الله تعالى بين العباد بما كان منهم في الدنيا، ثم يجازي كلاً منهم بالجنة أو بالنار.

والإيمان باليوم الآخر، مما تقتضيه العقول السليمة، ذلك أن الإنسان يشاهد الناسَ يظلم بعضهم بعضاً، ويعتدي بعضهم على بعض، ويموت كثير من الظالمين والمعتدين دون عقاب، وتنتهي حياة كثير من المظلومين والمستضعفين دون إنصاف، ولا يعقل أن يكون الله تعالى الحكيم العادل قد خلق هذا الخلق العظيم وكل هذه المليارات من الناس منذ آدم عليه السلام، وإلى يومنا، يتعاقبون جيلاً بعد جيل، لينتهوا تلك النهايات الظالمة، دون قضاء وانتصاف وإحقاق حق، ودون مكافأة للمحسن ومعاقبة للمسيء.

ولذلك عجب القرآن الكريم ممن ينكرون اليوم الآخر، كيف يظنون أن الحياة الدنيا هي نهاية المطاف، وأن الله تعالى يترك الظالمين دون عقاب، والمستضفين دون انتصاف وجزاء، قال تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾ (القلم:٣٥-٣٦)[2].

---

(1) بعض الخلائق التي لا تموت عند الصعقة الأولى، تموت بعد ذلك، بدليل قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾(الرحمن: ٢٦ - ٢٧).

(2) **الميداني:** عبد الرحمن حسن، **العقيدة الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص ٥١٨.

وفي ذلك الإنكار لليوم الآخر، أيضاً، إساءة ظن بالله تعالى، حيث يظنون به الظلم والعبث، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾(المؤمنون: ١١٥-١١٦).

والإيمان باليوم الآخر له أثر كبير في استقرار المجتمع واستقامة أفراده، لأن الإنسان ينضبط سلوكه ويستقيم، حين يوقن أنه سيُعاقب على كل ظلم وشر، وسيُثاب على كل بر وخير، ولذلك اهتم القرآن الكريم بهذا الركن من أركان الإيمان، وأكثَرَ من الجمع بينه وبين الإيمان بالله تعالى[١].

الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر: الإقرار الجازم بأن الأشياء والأحداث، توجد حسب علم الله تعالى المسبق الشامل وإرادته المطلقة[٢].

فلا شيء في هذا الكون يحدث اعتباطاً، فالله تعالى هو الذي قدر منذ الأزل ما يحدث قبل أن يحدث، وكيف ومتى وأين سيحدث، وسجل ذلك في كتاب لم يفرط فيه بشيء، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(القمر: ٤٩)[٣].

والإيمان بالقضاء والقدر فرع عن الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته، إذ هو إيمان بعلم الله تعالى الشامل التام، وإرادته المطلقة، وقدرته التي لا حدود لها على فعل ما يريد، وذلك على الله تعالى يسير، كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد:٢٢).

وللإيمان بالقضاء والقدر آثار عظيمة في نفس المؤمن[٤]، أشار إلى أهمها قوله تعالى:﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ

---

(١) **ياسين:** د. محمد نعيم، **الإيمان حقيقته أركانه نواقضه**، مرجع سابق، ص ١١٣ - ١١٧.

(٢) اختلف العلماء في تعريف القضاء والقدر فمنهم من قال: القدر: علم الله، والقضاء: إيجاد الله الأشياء حسب علمه وإرادته، وقد عكس بعضهم ذلك فجعل تعريف القضاء للقدر، ومنهم من عرّفهما تعريفاً واحداً بالأمرين المذكورين، أنظر: **ياسين:** د. محمد نعيم، **الإيمان حقيقته أركانه نواقضه**، مرجع سابق، ص ١٧٧.

(٣) **القرضاوي:** د.يوسف، **الإيمان بالقدر**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٢٢ هـ،٢٠٠١م، ص٩.

(٤) أنظر: **القرضاوي:** د.يوسف، **الإيمان بالقدر**، مرجع سابق، ص ١٥٠ وما بعدها.

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (الحديد:٢٢-٢٣).

فالمؤمن يواجه المصائب بنفس راضية مطمئنة صابرة، ولا يرهبه تهديدٌ بالقتل أو توعد بقطع الرزق، ولا يخاف ولا يجزع ولا ييأس، ولا يداري أحداً ولا ينافقه في حق، وإذا أصابه خير لا يغتر ولا يتكبر على الناس، لأنه يعلم أنه لا يحدث له شيء إلا بإذن الله تعالى وعلمه، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

الإيمان بالقضاء والقدر ومسؤولية الإنسان عن أفعاله

الأحداث في الحياة نوعان: إما أحداث كونية، مثل حركة الشمس والقمر والرياح والمطر، أو أحداث إنسانية، والأحداث الإنسانية نوعان: إما إجبارية لا دخل للإنسان فيها، مثل ولادته وموته ونَسَبِهِ وطوله ولونه، وإما اختيارية، مثل اهتدائه وضلاله، واستقامته وعدوانه، وطاعته وعصيانه.

أما الأحداث الكونية وكذلك الأحداث الإنسانية الإجبارية، فواضح أنها تقدير مطلق من الله تعالى، ولا اختيار للإنسان فيها.

وأما الأفعال الإنسانية الاختيارية، فهي التي تثير تساؤل الناس كلما شُرِحَ لهم معنى عقيدة القضاء والقدر، إذ سرعان ما يواجهون الشارح بسؤال معهود، وهو:

إذا كان كل شيء يحدث بمشيئة الله تعالى وعلمه، ولا يمكن أن يفعل إنسان ما لم يأذن به الله تعالى، فأين هي حرية الإنسان واختياره؟ وكيف يُحاسب الله تعالى الناس على المعاصي، مع أنها مقدرةٌ ومكتوبةٌ مسبقاً، ولا مفر من حدوثها؟!!

جواب القرآن الكريم عن هذا السؤال

إن استشكال الجمع بين عقيدة القضاء والقدر واختيار الإنسان، استشكال قديم احتج به المشركون والعصاة لتسويغ شركهم ومعاصيهم، وهو ما حكاه القرآن الكريم ورد عليه، قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأنعام:١٤٨ - ١٤٩).

وقد تضمنت الآيتان الكريمتان ثلاثة ردود رئيسة على هذه الشبهة:

الرد الأول: أنه لو كان المشرك والعاصي مُجبراً على ما صدر منه، لما استحق معاقبة الله تعالى، ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾.

وفي هذا الرد إحالة على ما يشعر به كل إنسان ويعلمه من نفسه، أنه مختار ومسؤول مسؤولية تامة عما يفعل، فهو حين يرتكب خطيئة ما، كالقتل مثلاً، يؤنب نفسه، ويدرك أنه لو عوقب على فعلته، أن ذلك يكون عين العدل.

الرد الثاني: أن المشرك والعاصي المحتجّ بالقدر على معصيته، يزعم أنه ينفذ إرادة الله تعالى وما كتبه عليه منذ الأزل، مع أن ذلك المكتوب غيبٌ لم يطّلع عليه ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾، فهَلا وَحَّدَ الله تعالى وأطاعه، ليكون التوحيد والطاعة هما المكتوبين عليه لا الشرك والمعصية؟! وفي ذلك إشارة إلى أن المكتوب عند الله تعالى، ليس إلا تسجيلاً مُسبَقاً لما سيقوم به الإنسان بمحض اختياره، ولا يؤثر في هذا الاختيار، فعلم الله تعالى، كما تشير الآية الكريمة، هو (**علم مُسبَقٌ كاشف لا يؤثر في المعلوم**)[1]، ونضرب مثالاً واقعياً، يُقرب إلى الأذهان هذه الحقيقة، ولله المثل الأعلى:

فلو توقع مدرس علامات تلاميذه، ومن سينجح منهم ومن سيرسب، وأخبر مسبقاً عن توقعاته أو سجلها، وحدث أن صدقت أكثر توقعاته، فرسب أكثر التلاميذ الذين توقع لهم الرسوب، ونجح أكثر التلاميذ الذين توقع لهم النجاح، وحصلوا على علامات مقاربة أو مطابقة لما توقعه لهم، فإنه لا يستطيع أحد أن يزعم أن توقعات المدرس كانت هي السبب في نجاح من نجح ورسوب من رسب، ولا يستطيع أحد أن ينكر ضرورة معاقبة الراسبين أو تأنيبهم، ومكافأة الناجحين والمتفوقين. ويتضح هنا أن توقع المدرس المسبق، لم يكن مؤثراً في حدوث ما توقعه، ولم يقم بإجبار أي تلميذ على النتيجة التي توقعها له، وهكذا هو علم الله تعالى المسبق بما سيفعله العباد، لا يؤثر في إحداث أفعال العباد، فلله تعالى أن يعاقب من أساء منهم وخالف، ويكافئ من أحسن وامتثل، لكن الفرق بين توقع المدرس وعلم الله تعالى، أن علم الله تعالى علم دقيق وشامل وكامل يتناسب مع كمال الذات الإلهية، ولا يمكن أن يتخلف أو يُخطئ، بينما توقع المدرس قد يُصيب وقد يُخطئ.

الرد الثالث: أن الله تعالى لو كان مجبراً العباد، لأجبرهم جميعاً على طاعته وعبادته، ولما وُجد مشركون وعصاة، لأن من أراد تحقيق شيء بالإجبار، فإنما يحقق ما يرضاه ويحبه، لا ما

([1]) **الميداني:** عبد الرحمن حسن: **العقيدة الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص ٦٤٥.

يُغضبه ويُسخطه، فوجود أمثال هؤلاء واحتجاجهم بالقدر على معاصيهم وضلالهم، هو بحد ذاته دليل على كذب احتجاجهم، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

> **أناقش:** كيف يمكن أن أفهم نسبة الهداية والإضلال إلى الله تعالى، في مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾(فاطر: ٨). أرجع إلى المعجم المفهرس للقرآن الكريم في جذري (هدى)، و(ضلَّ)، لأكوّنَ فهماً شمولياً لآيات الهداية والإضلال.

خصائص العقيدة الإسلامية

تمتاز العقيدة الإسلامية بخصائص، من أهمها:

١ - الربانية

إن تفاصيل العقيدة الصحيحة غيب عن الإنسان، وذلك مثل: صفات الملائكة ومراحل اليوم الآخر، والجنة والنار، وغير ذلك، مما لا يمكن أن يصل الإنسان فيه إلى تصورات صحيحة عن طريق التجربة والحس أو التفكير، وكم ضل الفلاسفة والمحرفون للعقيدة في الأديان السماوية الأخرى، حين اقتحموا مجال الغيب، وأطلقوا لتفكيرهم وتصوراتهم العنان، في افتراضات لا أساس لها، ولا واقع يصدقها، ولا يمكن إخضاعها للتجربة[١].

أما المسلم فإنه يستمد المعلومات الغيبية التفصيلية لعقيدته من الله تعالى، ولا يتدخل في تغييرها وفق تصوراته الخاصة، وذلك يُكسب العقيدة الإسلامية الصحةَ والدقة، لأن مصدرها الله تعالى، الذي يعلم وحده غيب هذه التفصيلات.

وبذلك أيضاً أراح الإسلام المؤمن من البحث فيما لا يمكن أن يصل فيه إلى نتيجة صحيحة، وأجاب له على كل الأسئلة الوجودية المقلقة: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ وعرفه تعريفاً شاملاً ومفصلاً بالذات الإلهية وصفاتها وأفعالها، وعرفه بخلقه والغاية من هذا الخلق، وعرفه بما هو مطلوب منه، وباليوم الآخر وما يتلوه.

٢ - موافقة الفطرة والعقل

---

(١) **الغزالي:** محمد، **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٦م، ص ٦٥ - ٧٤.

تتميز العقيدة الإسلامية بأنها عقيدة توافق الفطرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(الروم: ٣٠)، فيتقبل الإنسان هذه العقيدة براحة ورضا، لأنها تنسجم مع ذاته، وتوافق تكوينه.

كما أن العقيدة الإسلامية تتميز بموافقتها للعقل، ولا يوجد فيها ما يناقض المنطق السديد، أو التفكير السليم.

ولهذا كثرت في القرآن الكريم الاستدلالات العقلية على الحقائق الكبرى في هذه العقيدة، كما أكثر القرآن الكريم من تحدي الكافرين، أن يحتكموا إلى العقل والمنطق، وأن يأتوا ببراهين عقلية تثبت صحة معتقداتهم، قال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(النمل: ٦٤).

٣ - الوضوح والبساطة

تتميز العقيدة الإسلامية بأنها واضحة بسيطة، يفهمها الجاهل والمتعلم، ويدركها الصغير والكبير، لأنها تقوم على الفطرة وبدهيات العقل، وليست هي فلسفة معقدة، ولا تنظيرا فكرياً جامداً يصعب شرحه[1].

وانظر إلى وضوح وبساطة ما تقرره سورة الإخلاص مثلاً، التي تقرر توحيد الله تعالى وتنزهه عن مشابهة أحد، وتنزهه عن الزوجة والوالد والولد، وقارن ذلك بعقيدة التثنية (إله للخير وإله للشر) عند المجوس مثلاً، وعقيدة التثليث عند النصارى، وهي عقيدة لا يمكن أن يشرحها أحد أو يستوعبها عقل، فإن إثبات الزوجة والولد لله تعالى، يثير تساؤلات لا إجابة عليها، من مثل: كيف كان هذا الاتصال الذي أنتج الولد؟ وكيف تمت الولادة؟ وأين كان المولود قبل الولادة؟ وكيف أن الله - تعالى عما يقولون - هو ثلاثة أجزاء، ومن منها هو الإله الحقيقي؟

٤ - الإيجابية

إن العقيدة الإسلامية ليست مجرد فلسفة نظرية، أو ترف فكري لا طائل من ورائه، بل إنها عقيدة ذات آثار عملية إيجابية في حياة الفرد والأمة.

---

(1) **البغا**: د. مصطفى ذيب، **نظام الإسلام في العقيدة والأخلاق والتشريع**، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧م، ص ١٠٤ - ١٠٥.

فهي تحرر الفرد من التعلق بالأهواء والشهوات ومن حب الذات، ومن السلبية والعجز والأنانية والجشع والطمع والخوف والخضوع للطواغيت، ومن الظلم والعدوان والأذى والإفساد في الأرض.

وتجعل الفرد إنساناً نافعاً لمجتمعه والناس، يتصف بالبر وحسن الخلق، ويشعر بالطمأنينة والراحة والسعادة والقناعة، يبادر إلى الخير والبذل والعطاء، وينبعث بقوة الإيمان إلى الإنتاج والعمل والتقدم واكتشاف سنن الله تعالى في الكون، لا يسكت على ظلم، ولا يصبر على ضيم.

وهكذا أنشأت العقيدة الإسلامية ذلك الجيل الفريد من الصحابة ﷺ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، وبنوا حضارة متقدمة على أساس الإيمان والعلم والعمل، وحرروا الإنسان من الظلم والاستعباد، ونشروا الحق والخير والعدل.

ولم تكن العقيدة الإسلامية يوماً، عاملاً سلبياً يُغَيِّبُ الإنسان عن واقعه، ولا شماعة يعلق عليها المسلم عجزه وتخلفه وهزيمته، إلا حين يبتعد عن الفهم الصحيح لها، ليغدو الإيمان بالقضاء والقدر مسوغاً للسلبية والاستسلام للأمر الواقع، وليصبح الإيمان بالآخرة دافعاً إلى الرضا بالذل والفقر والظلم، أملاً في تعويض أخروي وانتقام إلهي من الظلمة والمعتدين، وليعزى كل فشل أو إخفاق أو تعثر في الحياة إلى أسباب غير مفهمومة، لا إلى ما نكسبه بأنفسنا وما نجنيه بأخطائنا!![1].

([1]) أنظر: **الغزالي:** محمد، **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**، مرجع سابق، ص ٨٥ - ٩٥، **المبارك:** محمد، **نظام الإسلام: العقيدة والعبادة**، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩٠ هـ، ١٩٧٠م، ص ١٤ وما بعدها.

أقرأ وأستمتع

العزة التي تبثُّها العقيدة الإسلامية في نفس المؤمن

إن من أهم آثار العقيدة الإسلامية في المؤمن: تلك العزة التي تملأ نفسه، بحيث يستهين معها بكل الطواغيت والجبابرة، ويثور على الظلم والقهر، وينفجر في وجه الظالمين والمستكبرين، غير آبهٍ بسلطانهم وجبروتهم، لأنه يأوي إلى ركن شديد، ونظره لا يقتصر على ظاهر الحياة الدنيا، إنما يمتد إلى يوم عظيم تشخص فيه أبصار الظالمين:

- ويصور لنا القرآن الكريم تلك العزة والتحرر في قصة سحرة فرعون الذين آمنوا بموسى عليه السلام، وكيف واجهوا الطاغية بإيمانهم، قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ (طه:٦٩ - ٧٦).

- ويروي لنا الطبري قصة دخول رِبعِيُّ بن عامر رضي الله عنه على رستم في معسكره قبل معركة القادسية، مبعوثاً من سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، يقول: (فخرج ربعيّ ليَدْخُلَ على رستم عسكره، فاحتبسه الّذين على القَنطَرَةِ، وَأُرسِلَ إلى رستم لمجيئهِ، فاستشارَ عظماءَ أهلِ فارس، فقال: ما ترونَ؟ أَنُبَاهِي أم نَتَهاونُ؟ فَأجمَعَ ملؤُهم على التهاونِ، فأظهروا الزّبْرِجَ وبسطوا البُسُطَ والنَّمارِقَ، ولم يتركوا شيئاً، وَوُضِعَ لرستم سريرُ الذّهب، وَأُلْبِسَ زِينَتَهُ من

الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب، وَأَقْبَلَ ربعيٌّ يسير على فرس له زبَّاء[١] قصيرة، معه سيفٌ له مَشُوفٌ[٢]، وغِمْدُهُ لِفافةُ ثوبٍ خَلِق، وَرُمحُه معلوبٌ[٣] بقِدٍّ، معه حَجَفة[٤] من جلود البقر، على وجهها أديم أحمر مثل الرغيف، ومعه قوسه ونَبْلُه، فلمَّا غَشَى الملكَ وانتهى إليه وإلى أدنى البُسُط، قيل له: انزل، فحَمَلَها على البساط، فلما استوت عليه، نزل عنها وربطها بوسادتين فَشَقَّهُما، ثم أدخل الحبل فيهما، فلم يستطيعوا أن يَنْهَوهُ، وإنَّمَا أَرَوْهُ التهاونَ، وعرف ما أرادوا، فأراد استحراجَهُم، وعليه درعٌ له كأنها أضاةُ[٥]، وَيَلْمَقُهُ[٦] عباءة بعيره، قد جَابَها[٧] وَتَدَرَّعَها، وشدَّها على وسطه بسَلَبٍ[٨]، وقد شدَّ رأسَه بمعجرته، وكان أكثر العرب شعرةً، ومِعجرته نِسعَة بعيره، ولرأسِه أربع ضفائر، قد قُمْنَ قِياماً كأنهن قرونُ الوعِلَة، فقالوا: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتِكم فأضعَ سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني، فإن أبيتم أن آتيَكم كما أريد رجعت، فأخبروا رستم، فقال: ائذنوا له، هل هو إلا رجل واحد! فأقبل يَتَوَكَّأُ على رمحه، وَزُجُّه نَصلٌ يقارب الخطو، ويزجُّ النَّمارِقَ والبُسُطَ، فما ترك لهم نُمرُقةً ولا بِساطاً إلا أفسده وتركه مُنهتِكاً مُخَرَّقاً، فلما دنا من رستم تعلَّقَ به الحرسُ، وجلس على الأرض وَرَكَزَ رمحَه بالبُسط، فقالوا: ما حَمَلَكَ على هذا؟! قال: إنا لا نَسْتَحِبُّ القعودَ على زينتكم هذه، فكلّمه فقال: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا، والله جاء بنا، لنُخرِجَ مَن شَاءَ من عبادةِ العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيقِ الدّنيا إلى سَعَتِهَا، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خَلْقِهِ لنَدعُوَهم إليهِ، فمَنْ قَبِلَ مِنَّا ذلك قَبِلْنا ذلك منه ورَجَعنا عنه، وَتَركناه وأرضَهُ يَلِيهَا دونَنَا، ومن أبى قاتَلناهُ أَبَدَاً، حتّى نُفْضِيَ إِلَى مَوعودِ اللّهِ، قال: وما موعودُ اللّه؟ قال: الجَنّةُ لمن مات على قتال من أبى، والظّفرُ لمن بقي، فقال رستم: قد سمعتُ مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمرَ حتى ننظر فيه وتنظُروا! قال: نعم، كم أَحَبُّ إِليكُم؟ أيوماً أو يومين؟ قال: لا، بل حتى نكاتب أهلَ رأينا، ورؤساء قومنا. وأرادَ مقاربته ومدافعته، فقال: إن مما سَنّ لنا رسول الله ﷺ وعمِلَ به أئمتنا، ألّا نُمَكِّنَ الأعداءَ من آذانِنَا، ولا

---

(١) طويلة الشعر كثيرته.

(٢) المشوف: المجلو.

(٣) يقال: علب الرمح فهو معلوب، أي حزم مقبضه بعلباء البعير، وهو عنقه.

(٤) الحجفة: الترس.

(٥) الأضاة: الغدير.

(٦) اليلمق: القباء.

(٧) جبت القميص: قورت جيبه.

(٨) السلب: ليف المقل.

نؤَجِّلَهُم عند اللقاء أكثرَ من ثلاث، فنحن متردّدون عنكم ثلاثاً، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاثٍ بعد الأجل، اختر الإسلامَ وندَعَكَ وأرضَكَ، أو الجِزَاءَ فنقبل ونكفُّ عنك، وإن كنت عن نصرنا غنيًّاً تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجاً منعناك، أو المنابذة في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤُكَ فيما بيننا وبين اليوم الرابع، إلا أن تبدَأنا، أنا كفيلٌ لك بذلك على أصحابي وعلى جميع من ترى، قال: أَسَيِّدُهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم. فخلص رستم برؤساء أهل فارس، فقال: ما ترون؟ هل رأيتم قطُّ أوضحَ ولا أعزَّ من كلام هذا الرجل؟ قالوا: معاذ الله لك أن تميلَ إلى شيءٍ من هذا وتدعَ دينك لهذا الكلب! أما ترى ثيابَهُ! فقال: وَيْحَكُم، لا تنظروا إلى الثياب، ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إنَّ العربَ تَستَخِفُّ باللباس والمأكل ويصونون الأحساب، ليسوا مثلكم في اللباس، ولا يَرَوْنَ فيه ما ترون. وأقبلوا إليه يتناولون سلاحَه، وَيُزَهِّدُونَهُ فيه، فقال لهم: هل لكم إلى أن تُرُوني فَأُرِيَكُم؟ فأخرجَ سيفه من خِرَقِه كأنه شعلةُ نارٍ، فقال القوم: اغمده، فَغَمَدَه، ثم رمى تُرساً ورَمَوْا حَجَفَته، فَخُرِقَ تُرسُهُم، وسلمت حَجَفتُه، فقال: يا أهل فارس، إنّكم عظّمتُم الطعام واللِّباس والشراب، وإنَّا صَغَّرْنَاهُنَّ. ثم رجع إلى أن ينظروا إلى الأجل)[1].

(1) **الطبري:** محمد بن جرير، **تاريخ الطبري**، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ٥١٨/٣ - ٥٢١، وانظر: **ابن كثير**، إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، ٣٩/٧.

الشريعة الإسلامية

(إن شريعة محمد ستسود العالم، لانسجامها مع العقل والحكمة).
تولستوي الروائي العالمي الشهير

بعث الله تعالى رسله إلى الناس، ليدعوهم إلى اتباع شرائعه وأحكامه، التي تحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة، وآخر هذه الشرائع هي الشريعة الإسلامية.

مفهوم الشريعة الإسلامية

تطلق الشريعة في اللغة على معنيين:

الأول: مورد الماء الذي يرده الناس للشرب. والثاني: كل شيء يفتح في استقامة وامتداد يكون فيه، ومن هنا سمي الشراع شراعاً[1].

وهكذا شريعة الإسلام، فهي الطريق المستقيم الذي يرده العباد للهداية[2].

والشريعة الإسلامية في الاصطلاح تطلق على معنيين: عام وخاص:

فالمعنى العام، يشمل جميع جوانب الإسلام النظرية والعملية، فيشمل حقائق العقيدة، كما يشمل الأحكام العملية في العبادات والمعاملات وغيرها مما اصطُلِح على تسميته بالفقه.

أما المعنى الخاص فيختص بأحكام الإسلام العملية ولا يشمل أحكامه النظرية، أي أنه يختص بالفقه دون العقيدة.

ولذلك نقول: (الإسلام عقيدة وشريعة)، ونعني بالشريعة في هذه العبارة: الأحكام الفقهية العملية في الإسلام، دون حقائق العقيدة[3].

---

(1) **ابن فارس:** أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ٢٦٢/٣، **ابن منظور:** علي بن مكرم، **لسان العرب**، مرجع سابق، ٤٢٢/٣ - ٤٢٣.

(2) **التميمي:** عز الدين الخطيب، وآخرون، **نظرات في الثقافة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٩٩.

(3) جرار: بسام: **دراسات في الفكر الإسلامي**، مركز نون للدراسات والأبحاث القرآنية، البيرة، فلسطين، ط٢، ١٤٢٧هـ، ص ١٥٧.

خصائص الشريعة الإسلامية

تتميز الشريعة الإسلامية بجملة خصائص، من أهمها:

١) الربانية

الشريعة الإسلامية منزلة من الله تعالى، بخلاف النظم والشرائع الوضعية، فإنها بشرية وليدة فكر الإنسان ونتاج عقله، وينتج عن هذه الخصيصة:

أولاً: أن الشريعة الإسلامية كاملة تخلو من النقص، ولا تحتاج إلى التعديل والاستدراك والإضافة بين فترة وأخرى، لأن منزلها هو الله تعالى المتصف بالكمال والحكمة والعلم، فلا يفاجئه شيء في المستقبل لم يكن بالحسبان.

أما النظم والشرائع الأخرى، فإنها لا كمال فيها ولا استقرار لها، تراها دائماً متغيرة، يجري عليها التعديل، وتكتشف فيها الأخطاء والفجوات، لأن من وضعها بشرٌ محدودُ التفكير قاصرُ المعرفة.

ثانياً: أن الشريعة الإسلامية تُوجِدُ عند أتباعها دافعاً ذاتياً ورغبة قوية للالتزام بها، فالمسلم يلتزم بشريعته بقوة ورغبة، وفي كل وقت وظرف، في السر والعلانية، لأن منزل هذه الشريعة هو الله تعالى، الذي لا تخفى عليه خافية [١].

وذلك بخلاف الشرائع والنظم الأخرى، فإنها تُطبَّقُ بقوة القانون، وليس بدافع الرقابة الذاتية والرغبة الحقيقية، ويضعف الالتزام بها حين تغفل أعين الدولة.

أناقش: قد يقول بعض الناس: إن الربانية ليست ميزة للشريعة الإسلامية، حيث يشاركها في ذلك اليهودية والمسيحية مثلاً!

٢) العالمية في المكان والزمان

الشريعة الإسلامية شريعة عالمية، ليست محدودة بمكان ولا مؤقتة بزمان، وليست موجهة إلى أناس معينين دون غيرهم، ولا تُميز جنساً عن جنس ولا عرقاً عن عرق، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(الأعراف: ١٥٨)[٢].

وأما النظم والشرائع الأخرى، فإنها محدودة بمكان دون غيره، وقد تصلح لزمن دون آخر، ويقوم بعضها على التمييز بين الناس على أسس عرقية ودينية وغيرها.

---

(١) **زيدان:** د. عبد الكريم، **المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية**، مرجع سابق، ص ٣٥ - ٣٩.

(٢) **زيدان:** د. عبد الكريم، **المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية**، مرجع سابق، ص ٣٩ - ٤٠.

هذا، وقد جاءت الشريعة الإسلامية، على نحو يحقق عالميتها وبقاءها وامتدادها في المكان والزمان، حيث جاءت أحكامها على نوعين:

النوع الأول: أحكام تفصيلية: تتعلق بحقائق ثابتة، لا يتصور أن يستغني الإنسان عنها في أي زمان أو مكان، ولا يتصور مجيء عصر تتغير فيه، مثل أحكام العقيدة والعبادات والأخلاق والأحوال الشخصية، فهذه الأحكام لا تتغير تفاصيلها بتغير الزمان والظروف، ولا يزاد عليها ولا ينقص منها، فالكذب مثلاً لا يمكن أن يصبح مستحسناً مع تقدم الزمن وتطور الإنسان، وصلاة الظهر أربع ركعات، لا يتغير عددها بمرور الزمن وتقدم الإنسان، ومقادير الميراث ثابتة لا تتغير ولا تتبدل.

النوع الثاني: مبادئ عامة: وهي قواعد تزوّدُ الإنسانَ بتوجيهات عامة وكلية، وذلك في المجالات التي يتطور فيها الإنسان من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى آخر، مثل أحكام الشريعة في مجالات المعاملات والاقتصاد والسياسة، حيث جاءت الشريعة ببيان مبادئها ومقاصدها العامة، التي لا يمكن أن تضيق بحاجات الناس، ولا أن تتخلف عن أي مستوى عالٍ يبلغه الإنسان، تاركة للمجتمعات والناس أن يختاروا ويُفصّلوا ما يرونه من وسائل ونُظُمٍ، بما يواكب التطورات والمستجدات ومصالح الناس، ويحقق مبادئ الشريعة ويوافق مقاصدها.

ومن الأمثلة على هذه المبادئ: مبدأ العدل في الحكم بين الناس، فمثلاً إذا رُئي أن تحقيق العدالة يستلزم إقامة محاكم، وأن تكون على ثلاث درجات، وأن تتكون من أكثر من قاض، وأن تنظم المرافعات فيها وفق أصول وقواعد مرعية، ونحو ذلك، فإن الشريعة لا تعارض ذلك، ما دام يُحقق مبدأ العدل[1].

أعلل: لا يعارض الإسلام إجراء العقود التجارية بوسائل الاتصال الحديثة، مثل شبكة الإنترنت، ضمن ضوابط محددة، كما لا يعارض صوراً حديثة للشركات، مثل شركات المساهمة، لماذا؟!

٣) الشمول والتوازن

نظمت الشريعة الإسلامية جميع جوانب الحياة، فما من شأن من شؤون الناس في الحياة الخاصة أو العامة، صغير أو كبير، إلا وعالجته بتعاليم سامية وتوجيهات إلهية وأحكام هادية، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾(النحل: ٨٩).

([1]) **زيدان:** د. عبد الكريم، **المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية**، مرجع سابق، ص ٤٣ - ٤٩.

وقد جاء هذا التنظيم على نحو يوازن بين الدنيا والآخرة، وبين المادة والروح، وبين مطالب الفرد ومطالب الجماعة، فلا يطغى جانب على آخر، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾(البقرة: ١٤٣)، وقال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾(القصص: ٧٧).

أما النظم والشرائع الأخرى، فإنها تقتصر على جوانب في الحياة وتهمل جوانب أخرى، ولم تنظم حياة الإنسان وشؤونه بشمول وتوازن، فقد يركز بعضها على الدنيا دون الآخرة، بينما يغرق بعضها في شؤون الآخرة ويهمل مطالب الدنيا، أو قد يركز بعضها على الرهبنة على حساب الجسد، أو على المادة وشهوات الجسد دون الروح، وبعضها قد يقدم مصلحة الفرد على مصلحة المجتمع، أو الاعتبارات الجماعية على المطالب الفردية.

نشاط: أَوَضِّحُ في كل من الشرائع والمذاهب الآتية، الجانب أو الجوانب التي تطرفت فيها، والجانب أو الجوانب التي أغفلتها: اليهودية، البوذية، المسيحية، الرأسمالية، الاشتراكية.

٤) تحقيق مصالح الناس في العاجل والآجل

تهدف أحكام الشريعة الإسلامية إلى إقامة العدل بين الناس، ومحاربة الظلم، وتحرير الإنسان من العبودية لغير الله تعالى، وعمارة الأرض، وحماية الضعفاء، وسد حاجات المحتاجين، وإقامة المجتمع الإنساني على أسس العدالة والتعاون والتكافل والمثل العليا في الأخلاق والمعاملات، وكل ما فيه منفعة ومصلحة فإنه من الشريعة، وكل ما فيه ضرر ومفسدة فإنه ليس من الشريعة.

يقول الشاطبي: (إن وضع الشرائع، إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل)[1]، ويقول ابن القيم: (فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَمِ ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدلٌ كلها، ورحمةٌ كلها، ومصالحُ كلها، وحكمةٌ كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست

(١) **الشاطبي:** إبراهيم بن موسى، **الموافقات في أصول الشريعة**، ضبط نصه وقدم له وعلق عليه وخرّج أحاديثه: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، السعودية، ط١٩٩٧،١م، ٩/٢.

من الشريعة في شيء، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه)[1].

> **أتنبه:** كل المذاهب والقوانين الوضعية، تزعم أنها إنما وضعت لتحقيق ما فيه مصلحة الناس، ولكن ما يميز الشريعة الإسلامية، أنها الأقدر على تحديد وتحقيق مصالح الإنسان الحقيقية، وعلى تحديد وإبعاد المفاسد والمضار الحقيقية عنه، لأن من أنزل هذه الشريعة هو الله تعالى، الذي خلق الإنسان، وهو وحده يعلم ما يريحه ويحقق سعادته ومصالحه، قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤).

وقد استفاضت نصوص الشريعة العامة والخاصة، التي تؤكد أن المقصود من إنزال الشريعة تحقيق مصالح الناس ودفع المفاسد عنهم.

فمن **الأدلة العامة:** قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، وقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٩٠).

والأدلة الخاصة، هي نصوص عللت تفاصيل الأحكام الشرعية، بتحقيق مصالح الناس ودفع المفاسد عنهم، ومنها: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (المائدة: ٩١).

قواعد التشريع الإسلامي

لقد صاغ العلماء أحكام الشريعة الإسلامية ومقاصدها في عبارات موجزة دقيقة، على شكل قواعد، تساعد في جمع شتات الفقه، وتسهل حفظه وفهمه، من خلال ما بات يعرف بقواعد التشريع الإسلامي، أو القواعد الفقهية.

وعدد القواعد الفقهية يبلغ المئات، بيد أنها ليست على نفس الشهرة والاتساع والأهمية.

---

(1) **ابن قيم الجوزية:** محمد بن أبي بكر، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، ضبط وتعليق وتخريج: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، ٦/٣ - ٧.

أتعلم: يُعَرِّفُ العلماء القاعدة بشكلٍ عامٍ على أنها: "قضية كلية منطبقة على جميع أجزائها"[1].

وأهمها القواعد الفقهية الأساسية الخمسة، وهي:

١- الأمور بمقاصدها.

٢- الضرر يُزال.

٣- اليقين لا يزول بالشك.

٤- العادة مُحكَّمة.

٥- المشقة تجلب التيسير.

فقاعدة الأمور بمقاصدها قاعدة عظيمة من قواعد الشريعة، دلت عليها نصوص كثيرة، منها قوله ﷺ: **(إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)**[2].

ومعناها: أن أعمال الشخص وتصرفاته القولية والفعلية، تختلف نتائجها وأحكامها الشرعية باختلاف قصد الشخص منها.

ومن أمثلتها: من يتزوج المطلقة ثلاثاً بقصد أن يطلقها لتحل لزوجها الأول، فإن زواجه هذا محرَّم وغير مشروع.

وقاعدة الضرر يزال قاعدة أخرى عظيمة من قواعد الشريعة، دل عليها أدلة كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ (البقرة:٢٣٣)، وقوله ﷺ: **(لا ضَرَرَ وَلا ضِرَار)**[3].

ومعناها: أن كل عمل يُسبب الضرر للنفس أو للآخرين، فإنه يكون غير مشروع، ويجب رفعه وإزالته.

ومن أمثلتها: أن الإسلام يُحرِّمُ إقامة مصنع كيماويات مثلاً في حي سكني، لما يَلحق بالسكان من ضرر، ولما يؤدي إليه من تلويث للبيئة وإتلاف لمكوناتها.

---

(١) **الجرجاني:** علي بن محمد، **التعريفات**، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ،١٩٩٨م، ص١٢١.

(٢) رواه **البخاري**، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، حديث رقم:١، ج١، ص٣.

(٣) رواه **ابن ماجه**، محمد بن يزيد، **سنن ابن ماجه**، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، دار الفكر، بيروت، كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، حديث رقم: ٢٣٤، ج٢، ص٧٨٤، وسيشار إلى هذا المرجع فيما بعد اختصاراً هكذا: رواه ابن ماجه، ورواه **أحمد**، من مسند بنى هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، حديث رقم: ٢٨٦٧، ج١، ص٣١٣، ومن مسند عبادة بن الصامت، حديث رقم: ٢٢٨٣٠، ج٥، ص٣٢٦، قال شعيب الأرنؤوط: **حديث حسن**.

ومن القواعد المتفرعة عن قاعدة (الضرر يزال): قاعدة: **(سد الذرائع)**، وقد دلت عليها نصوص كثيرة في الشريعة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ﴾(الأنعام: ١٠٨).

ومعناها: أن العمل المشروع في الأصل، يصبح غير مشروع، إذا وجدت ظروف يؤدي معها إلى مفاسد ومضار، فمع أن تسفيه الأصنام، هو أمر مطلوب في الأصل، لأنه إحقاق للحق وإبطال للباطل، إلا أنه يصبح منهياً عنه، إذا خشينا أن يرد المشركون على ذلك، بسب الله سبحانه وتعالى.

ومن الأمثلة على قاعدة سد الذرائع:

- تعليل النبي ﷺ امتناعه عن قتل زعيم المنافقين بقوله: **(دَعْهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ)**[1]، فمع أن التخلص من بعض المفسدين في المجتمع هو أمر مطلوب في الأصل، إلا أنه يصبح أمراً غير مرغوب، إذا خشينا أن يترتب عليه مفاسد أكبر.

- قيام عمر بن الخطاب ﷺ بقطع الشجرة التي تمت عندها بيعة الرضوان، لأنه رأى الناس يكثرون من الصلاة عندها، وذلك منه ﷺ سداً لذريعة الشرك[2].

والقاعدة الثالثة من القواعد الفقهية الأساسية الخمسة:

قاعدة اليقين لا يزول بالشك، وأساسها أن الظن لا يغني من الحق شيئاً.

ومعناها: أن ما ثبت بيقين، لا يزول إلا بيقين مثله، ولا يزول بمجرد الشك.

ومن أمثلتها: أن من كان قد توضأ، ثم شك إن كان وضوؤه قد انتقض أم لا، فهو على وضوء، لأن الشك لا يزيل اليقين.

والأصل بقاء ما كان على ما كان حتى يثبت بشكل أكيد ما يُغَيِّرُه. ومن هنا جاء اعتبار المتّهَم بريئاً حتى يثبت بشكل أكيد إدانته، لأن الأصل في الإنسان البراءة.

وقاعدة العادة مُحَكَّمة، من قواعد الشريعة الأساسية حتى قال العلماء: لا يُنكرُ تغيرُ الأحكام بتغير الأزمان[3].

---

(1) رواه **البخاري**، كتاب التفسير، باب سورة المنافقون، حديث رقم: ٤٦٢٢، ج٤، ص١٨٦١، ورواه **مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، حديث رقم : ٢٥٨٤، ج٤، ص١٩٩٨.

(2) أنظر هذا وأمثلة أخرى مستفيضة على هذه القاعدة في: **البرهاني:** محمد هشام، **سد الذرائع في الشريعة الإسلامية**، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م، ص٤٩٥ وما بعدها.

(3) **الزرقا:** أحمد محمد، **شرح القواعد الفقهية**، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م، ص٢٢٧.

ومعناها أن أعراف الناس وعاداتهم، لها أثر في الأحكام الشرعية المبنية على العرف.

ومن الأمثلة على ذلك: أنه إذا باع شخص لآخر سيارة، ولم يحددا ما يدخل في البيع من التوابع، فإن الحكم الشرعي ينبني على ما يقرره العرف في البلد بهذا الخصوص، فتدخل في البيع التوابع التي جرى العرف أن تدخل، مثل إطار السيارة الاحتياطي مثلاً.

ويمكن القول: إن كل ما أوجبه الشارع ولم يحدد مقداره، إنما يُلجَأ في تحديد مقداره، إلى العرف السائد في البلد.

ويجب التنبيه هنا، إلى أنه ليست كل أحكام الشريعة تتأثر بالعرف وتتغير بتغيره، وإنما يقتصر ذلك على المسائل التي تركتها الشريعة لأعراف الناس، ولم يَقصد الشارع ثباتها.

فهنالك أحكام شرعية لم تُبْنَ على العرف، بل قصد الشارع ثباتها على مر الزمان، فتبقى كما هي حتى لو جرى العرف بخلافها أحياناً كانتشار التعامل بالربا باسم الفائدة البنكية، فإن ذلك لا يجعل الربا حلالاً. وإذا جرى العرف في بلد بكشف النساء لرؤوسهن، فإن هذا العرف فاسد، ولا يجعل السفور وكشف العورات أمراً مباحاً[1].

وقاعدة المشقة تجلب التيسير، مستمدة من جملة آيات وأحاديث، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، (البقرة١٨٥)، وكقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨)، وهي نصوص صريحة في نفي المشقة والعنت عن هذا الدين.

ولأجل ذلك شرع الله تعالى الرُّخص لعباده، ومن أمثلة ذلك: رخصة قصر الصلاة وجمعها في السفر، ورخصة الفطر في السفر لأجل المشقة التي فيه.

وقد صاغ العلماء من هذه القاعدة الكلية قواعد فرعية متعددة، منها:

قاعدة: (الضرورات تبيح المحظورات)، وتكملها قاعدة (الضرورة تُقدر بقدرها). ومنها قاعدة: (إذا ضاقَ الأمرُ اتَّسَعَ)، أي وسعت الشريعة فيه برفع الحرج والتخفيف والتيسير.

([1]) **الحريري:** د.إبراهيم محمد، **المدخل إلى القواعد الفقهية**، دار عمار، عمان، ط١، ١٩٩٨م، ص١٠٨-١١٦.

الوحدة الرابعة

نظام الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾

(النساء:٦٥)

صدق الله العظيم

محتويات الوحدة وأهدافها

وتتمثل بالآتي:

١. **نظام العبادات في الإسلام: مفهوم العبادة وشروطها وخصائصها.**

الهدف: أن يناقش الطلبة نظام العبادة، لتحكم شعائرهم و سلوكهم.

٢. **نظام الأخلاق في الإسلام: مفهومه وأسسه وخصائصه.**

الهدف: أن يناقش الطلبة مفردات هذا النظام ليقتدوا به.

٣. **النظام الاجتماعي في الإسلام: مفهومه وأسسه ومنهجه.**

الهدف: أن يتدرب الطلبة على أساليب الحياة الاجتماعية الإسلامية.

٤. **النظام الاقتصادي في الإسلام: مفهومه وأسسه وخصائصه.**

الهدف: تدريب الطلبة على تنظيم نشاطهم الاقتصادي لاحقاً في ضوء مبادئ الإسلام وتعاليمه.

٥. **نظام العقوبات في الإسلام: مفهومه، وخصائصه.**

الهدف: أن يتدرب الطلبة على السلوك الحسن في ضوء هذا النظام.

٦. **النظام السياسي في الإسلام: مفهومه ومبادئه وأحكامه.**

الهدف: أن يطبق المتعلمون هذا النظام في حياتهم.

نظام العبادات في الإسلام

(لو عَلِم الملوكُ وأبناءُ الملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسيوف).
إبراهيم بن أدهم التابعي العابد الزاهد

إن عبادة الله عز وجل هي وظيفة الإنسان الأساسية التي خلق لها على هذه الأرض، قال تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾(الذاريات: ٥٦)، وبها أرسل جميع الرسل عليهم السلام، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾(الأنبياء: ٢٥).

مفهوم العبادة في الإسلام

تدل **العبادة في اللغة**، على: الخضوع والتذلل والانقياد والاستسلام[١].

ويمكن تعريف **العبادة اصطلاحاً** بأنها: التوجه إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة، حباً فيه ورجاء في ثوابه، واستشعاراً لعظمته وخوفاً من عقابه.

فمفهوم العبادة يقوم على ركنين:

١) الحب والخوف:

فيجب أن يكون الله تعالى أحب إلى العبد من كل شيء، وفي الوقت نفسه أن يكون أعظم عنده وأخوف له من كل شيء، وبهذا يلاحظ أن المعنى الشرعي للعبادة لا يكتفي بعنصر الخضوع والذل، وإنما يشمل إلى جانب ذلك عنصر المحبة والرجاء[٢].

قال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾(الإسراء: ٥٧).

---

(١) **ابن منظور**: علي بن مكرم، **لسان العرب**، مرجع سابق، ٢٣٩/٤ - ٢٤٢، **الفيروزآبادي**: مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، مرجع سابق، ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٢) **ابن تيمية**: أحمد بن عبد الحليم، **العبودية**، تعليق وتخريج: محمد بن سعيد بن رسلان، دار الإيمان، الاسكندرية، ط ٢٠٠٣، ص ١٥ - ١٧.

ومن يتفكر في نعم الله تعالى عليه، يصل إلى درجة الحب له. ومن يتفكر في خلقه تعالى وما فيه من عظمة وإحكام وإبداع، يزداد استشعاره لعظمة الله تعالى وخشيته لجلاله، ولذلك كان العلماء أكثر الناس خشية لله واستشعاراً لعظمته.

٢) العمل الصالح:

يتكامل العمل الصالح مع حب الله تعالى وخشيته، إذ العمل الصالح هو الذي ينمي في النفس ذلك الحب وتلك الخشية، تماماً كما أن مشاعر الرحمة والشفقة تنمو بالعطف على الفقراء، وتضعف بالقسوة والظلم[١].

ولا معنى لادعاء حب الله تعالى والخوف منه، ما لم يظهر أثر ذلك في السلوك.

ومن يزعم حب الله تعالى وخشيته، ثم هو يقصر في عبادته أو يسرف في معصيته، فليس صادقاً في زعمه، وإلا لفاض ذلك الشعور على ظاهره، فلهج لسانه بذكر الله تعالى، واطمأنت جوارحه في عبادته.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾(آل عمران: ٣١)،

ويقول ابن تيمية: (ومن ظن أن الذنوب لا تضره، لكون الله يحبه مع إصراره عليها، كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره، مع مداومته عليه وعدم تداويه منه)[٢].

شروط قبول العبادة في الإسلام

يشترط لقبول العبادة عند الله تعالى شرطان، هما: الإخلاص، وموافقة الشرع، وقد جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (الكهف: ١١٠)[٣].

فالإخلاص هو: التوجه إلى الله تعالى وحده بالعبادة، دون شرك أو رياء، ويلاحظ أن أكثر العبادات غير المفروضة، يُستحب أداؤها بطريقة سرية، مثل قيام الليل، وصلاة النافلة، وصدقة التطوع، لترسيخ الإخلاص في النفس[٤].

---

(١) **الصدر:** محمد باقر، مقال بعنوان: **(نظرة عامة في العبادات)** منشور بتاريخ ٢٠٠٧/١١/١٨ على موقع: (المركز الإعلامي لمكتب السيد الحسني)، alhasany.org.

(٢) **ابن تيمية:** أحمد بن عبد الحليم، **العبودية**، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(٣) **ابن تيمية:** أحمد بن عبد الحليم، **العبودية**، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٤) **الصدر:** محمد باقر، مقال بعنوان: **(نظرة عامة في العبادات)**، مرجع سابق.

وموافقة الشرع تعني: أداء العبادة بالطريقة نفسها التي بينها الشرع، دون زيادة أو نقصان أو تغيير، ومن يخالف ذلك، ولو بنية التقرب إلى الله تعالى، لا يكون عمله مقبولاً، مثل من يصلي الظهر خمس ركعات مثلاً، زيادة في التقرب إلى الله تعالى. قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾(الشورى: ٢١)، وقال النبي ﷺ: **(مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ)**[١].

أفضل العبادات في الإسلام

الذي عليه المحققون من العلماء: أن لكل حال عبادته الأفضل، فأفضل العبادات حين يقتحم عدونا علينا بلادنا هو الجهاد، ولو آل هذا إلى ترك صلاة الليل وصيام النهار، وأفضل العبادات حين حضور الضيف إكرامه، ولو أدى إلى ترك النوافل، وأفضل العبادات وقت السحر الاستغفار، وأفضل العبادات للغني إنفاق المال في سبيل الله تعالى، وأفضل عبادة للعالم تعليم الناس وإرشادهم، وأفضل العبادات في العشر الأواخر من رمضان، لزوم المسجد والخلوة والاعتكاف[٢].

خصائص العبادة في الإسلام

تتميز العبادة في الإسلام بخصائص، من أهمها:

١) الصلة المباشرة بين العبد وربه

تقوم العبادة في الإسلام على علاقة مباشرة بين العبد وربه، دون وسطاء من البشر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾(البقرة: ١٨٦).

فلا يعرف الإسلام طبقة من رجال الدين يتواسطون بين الله تعالى وعباده، لا تُقبل الصلاة ولا التوبة إلا عن طريقهم، كما لا يشترط الإسلام طقوساً ومراسم كهنوتية، لا تقبل العبادة إلا بها[٣].

---

(١) رواه **البخاري**، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود حديث رقم: ٢٥٥٠، ج٢، ص٩٥٩، ورواه **مسلم**، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم: ١٧١٨، ج٣، ص١٣٤٣.

(٢) **ابن قيم الجوزية:** محمد بن أبي بكر، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط ١٤١٩ هـ، ١٩٩٩م، ١/٧٣ - ٧٧.

(٣) **القرضاوي:** د.يوسف، **العبادة في الإسلام**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٥، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥م، ص ١٥٣.

٢) اليسر ورفع الحرج

تمتاز العبادة في الإسلام بالسهولة واليسر، فليس فيها ما يشق على الناس ويخرج عن طاقتهم، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨).

ولذلك يرفض الإسلام أن يشدد الإنسان على نفسه، ويبالغ في العبادة إلى حد يرهق جسده وروحه، ويؤثر على أدائه لواجباته الأخرى في الحياة[١]، يقول النبي ﷺ: **(خُذُوا مِنْ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا)**[٢].

ويخفف الإسلام تكاليف العبادات المفروضة في ظروف المشقة والحرج، إما **تخفيفاً كلياً**، بإسقاط العبادة كلها، مثل إباحة الإفطار في رمضان للمريض وللمسافر، وعدم وجوب الحج على العاجز عنه بدنياً أو مالياً، أو **تخفيفاً جزئياً**، بإسقاط بعض العبادة أو بعض شروطها وهيئاتها، مثل: إباحة قصر الصلاة في السفر، وإباحة الجمع بين الصلوات لعذر، كما في المطر.

٣) الشمول

تتميز العبادة في الإسلام بالشمول لكل مجالات الحياة الإنسانية، ومن هنا قال العلماء: إن مفهوم العبادة في الإسلام، لا يقتصر على الشعائر الدينية المعروفة، كالصلاة والصيام والحج، وهي ما أطلقوا عليه: **العبادات المحضة (المخصوصة)**، وإنما يمتد ليشمل كل عمل أو قول نافع، يقوم به الإنسان ابتغاء رضوان الله تعالى، وهو ما أطلقوا عليه: **العبادات العامة**، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الأنعام: ١٦٢)، وبهذا المعنى عَرَّفَ ابن تيمية العبادة بأنها: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)[٣].

فالعبادة بمفهومها العام تشمل: حسن المعاملة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان الى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والرحمة بالضعفاء، والرفق بالحيوان، وإصلاح ذات البين، والعلم، والسعي في طلب الرزق، بل حتى الغريزة وقضاء الشهوة في الحلال، والأكل

---

(١) **القرضاوي**: د.يوسف، **العبادة في الإسلام**، مرجع سابق، ص ١٩٣ - ٢٠٩.

(٢) رواه **البخاري**، كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير ونحوه، حديث رقم: ٥٥٢٣، ج٥، ص٢٢٠١، ورواه **مسلم**، كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان واستحباب أن لا يخلي شهراً عن صوم، حديث رقم: ٧٨٢، ج٢، ص٨١١.

(٣) **ابن تيمية**: أحمد بن عبد الحليم، **العبودية**، مرجع سابق، ص ٨.

والنوم وممارسة الرياضة، كل ذلك عبادة، إذا صاحبه نية نيل رضوان الله تعالى[1]، ومن الأمثلة على العبادة بمفهومها العام: قول النبي ﷺ: **(مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ فَقَالَ وَاللَّهِ لَأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنْ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ)**[2].

وبهذا المعنى الشامل للعبادة، يختلف الإسلام عن اتجاهين آخرين[3]:

الاتجاه الأول: الفصل بين العبادة والحياة: حيث يدعو هذا الاتجاه إلى حصر العبادة في أماكن خاصة بها، حتى إذا خرج الإنسان منها الى سائر حقول الحياة وَدَّعَ العبادةَ وانصرف إلى شؤون دنياه.

ويرفض الإسلام ذلك، إذ الإسلام لا يريد العبادة من أجل العبادة، وإنما يريدها من أجل الحياة، فالعبادة في الإسلام لا تحصر المسلم بين جدران المسجد، وإنما تجعل المسجد منطلقاً إلى كل نشاطات الحياة، لصبغها بصبغة العبادة.

الاتجاه الثاني: حصر الحياة في إطار ضيق من العبادة: حيث يدعو هذا الاتجاه إلى حصر الحياة كلها في أماكن خاصة، في الكنيسة والمعبد والمسجد، كما يفعل المترهبنون، حيث يعتقدون أن الإنسان يعيش تناقضاً داخلياً بين روحه وجسده، ولا يتكامل في أحد الجانبين إلا على حساب الآخر، وكي يزكو روحياً يجب أن يحرم جسده من الطيبات، ويقلص وجوده على مسرح الحياة، ويمارس صراعاً مستمراً ضد رغباته وتطلعاته، حتى يتم له الانتصار عليها جميعاً عن طريق الكَفِّ المستمر والحرمان الطويل، والممارسات العبادية المحددة.

ويرفض الإسلام ذلك أيضاً، إذ العبادة في الإسلام ليست روحانية رهبانية محضة تهمل الجسد، وترى التقرب إلى الله تعالى بتعذيبه وإهمال تنظيفه وحرمانه من متعه[4]، قال تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ (القصص: ٧٧)، وقال ﷺ: **(أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)**[5].

---

(1) **القرضاوي**: د. يوسف، **العبادة في الإسلام**، مرجع سابق، ص ٤٩ وما بعدها.

(2) رواه **مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، حديث رقم: ١٩١٤، ج٤، ص٢٠٢١.

(3) **الصدر**: محمد باقر، مقال بعنوان: **(نظرة عامة في العبادات)**، مرجع سابق.

(4) **القرضاوي**: د.يوسف، **العبادة في الإسلام**، مرجع سابق، ص ١٨١ - ١٩٢.

(5) رواه **البخاري**، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم: ٤٧٧٦.

4) الجمع بين الجانب الحسي والجانب المعنوي

إن الإنسان ليس مجرد إحساس وبدن، كما أنه ليس مجرد عقل وتفكير، وإنما هو مجموعهما، وحينما يراد من العبادة أن تؤدي دورها على نحو يتفاعل معه الإنسان تفاعلاً كاملاً، وينسجم مع تكوينه، ينبغي أن تشتمل على جانبين: جانب حسي تجسيدي، وجانب معنوي تجريدي، وهكذا هي العبادات في الاسلام، يعيش المسلم معها فكراً وحساً، منطقاً وعاطفةً، تجريداً ووجداناً.

فالمصلي في صلاته يمارس بنيته تعبداً فكرياً، وينزه ربه عن أي حد ومقايسة ومشابهة، وذلك حين يفتتح صلاته قائلاً: (الله أكبر)، وذلك يمثل الجانب المعنوي التجريدي، ولكنه في نفس الوقت يتخذ من الكعبة الشريفة شعاراً ربانياً، يتوجه إليه بأحاسيسه وحركاته، وذلك يمثل الجانب الحسي التجسيدي.

والبيت الحرام الذي يؤمه الحاج والمعتمر ويطوف به، والصفا والمروة اللذان يسعى بينهما، وجمرة العقبة التي يرميها بالحصيات، والمسجد الذي خصص مكاناً للاعتكاف يمارس فيه المعتكف عبادته.. كل هذه الأشياء معالم حسية تجسيدية رُبطت بها العبادة، في حين تمثل النيةُ والإخلاصُ والمشاعرُ الداخلية الجانبَ المعنوي في العبادة.

وبهذا يختلف الإسلام عن اتجاهين آخرين[1]:

أحدهما: يفرط في التركيز على الجانب العقلي التجريدي، فيتعامل مع الإنسان كفكر مجرد، ويشجب كل التجسيدات الحسية في مجال العبادة، على أساس أن الحق سبحانه لا يحده مكان ولا زمان، ولا يمثله نصب ولا تمثال، فيجب أن تكون عبادته قائمة على التفكر المحض والتأمل المجرد.

> **أفكر:** يقوم المعالج النفسي بمعالجة العقد الإنسانية النفسية، بأعمال وتجسيدات حسية، دون الاكتفاء بالمحادثة والإقناع العقلي، لماذا؟!

والثاني: يفرط في التركيز على الجانب الحسي التجسيدي، ويحول الشعار إلى تجسيد مادي محدود، يتوجه إليه بالعبادة، بحيث ينغمس العابد بشكل أو بآخر في الشرك والوثنية.

([1]) **الصدر:** محمد باقر، مقال بعنوان: **(نظرة عامة في العبادات)**، مرجع سابق.

لقد ميَّزَ الإسلامُ بعمق بين مفهوم الصنم الذي حطمه ومفهوم القبلة الذي جاء به، وهو مفهوم لا يعني إلا أن نقطة مكانية معينة أسبغ عليها تشريف رباني، فربطت الصلاة بها، إشباعا للجانب الحسي من الإنسان العابد، وليست الوثنية في الحقيقة إلا محاولة منحرفة لاشباع هذا الجانب استطاعت الشريعة أن تصحح انحرافها، وتقدم الأسلوب السوي في التوفيق بين عبادة الله تعالى، بوصفها تعاملاً مع المطلق الذي لا حد له ولا تمثيل، وبين حاجة الإنسان المؤلف من حس وعقل وجسد وروح.

فالإسلام توسط بين الاتجاهين المذكورين، ورفض التجريد المحض، لأنه يخالف طبيعة الإنسان، ولا يُشعره بالاتصال الحقيقي بالله تعالى، كما رفض الوثنية بكل أشكالها، وحطم الأصنام، لأنها تقضي على روح العبادة وتعطلها.

آثار العبادة في الإسلام

ليست العبادة في الإسلام مجرد شعائر ظاهرية، لا هدف منها ولا أثر لها، وإنما تعود بآثار عظيمة على الفرد والمجتمع، منها[1]:

١) تحقيق الطمأنينة والسعادة والراحة

تلبي العبادة الحاجات الروحية الملحة عند الإنسان، ولذلك يجد الإنسان فيها طمأنينته وسعادته، ويشعر بلذة الاتصال بالله تعالى ومناجاته، وتشكل له محطة يتقوى بها على مواجهة مصاعب الحياة ومتاعبها وهمومها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾(الرعد: ٢٨)، وقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥)، وكان النبي ﷺ يجد راحته وسعادته في الصلاة، حتى إذا حضر وقتها، أمر بلالاً ﷺ قائلاً: **(يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا)**[2].

---

(١) أنظر: **المبارك:** محمد، **نظام الإسلام: العقيدة والعبادة**، مرجع سابق، ص ١٦٣ وما بعدها، **القرضاوي:** د.يوسف، **العبادة في الإسلام**، مرجع سابق، ص٩٥ وما بعدها، ص ٢١٣ وما بعدها.

(٢) رواه **أبو داود**، سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود**، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، مع الكتاب: تعليقات كَمَال يوسُفْ الحوُت، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، دار الفكر، بيروت، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، حديث رقم: ٤٩٨٥، ج٤، ص٢٩٦، وسيشار إلى هذا المرجع فيما بعد اختصاراً هكذا: رواه **أبو داود**، ورواه **أحمد**، المسند، حديث رقم: ٢٣١٣٧

٢) تهذيب النفس وتقويم السلوك

إن العبادة الحقة تهذب نفس العابد، وتجبلها على فضائل الأخلاق وتنقيها من الرذائل، وتجعل من صاحبها عنصر خير وبناء في مجتمعه، وتُبعده عن الفواحش والظلم والبغي، ولذلك قرن القرآن الكريم بين العبادة وتزكية النفس فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ (الأعلى: ١٤ . ١٥)، كما ربط بين العبادة والسلوك القويم في المجتمع، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

ولكل شعيرة من شعائر العبادات في الإسلام، أثر في نفس المسلم وسلوكه:

فالصلاة تربي الإنسان على الخضوع لله تعالى وخشيته.

والزكاة تربي على الكرم والجود، وتنقي صاحبها من مظاهر الشح والبخل.

والصيام يُعَوِّدُ الإنسانَ على الانضباط والصبر والتحكم في شهواته.

والحج رحلة إلى مكان معين، يجتمع فيه الناس من كل حدب وصوب، بملابس معينة، بعيداً عن زخرف الدنيا، ليستشعر الإنسان رحلة الآخرة وجمعَ الناس ليوم عظيم.

٣) تحرير الإنسان

الإنسان مخيّر بين طريقين لا ثالث لهما: العبودية لله أو لغيره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(الإنسان ٣)، فإذا اختار عبادة الله تعالى، تحرّر من الخضوع لغيره، إذ العبادة تربط صاحبها بخالق الخلق، الذي بيده الأمر كله، فيتحرر العابد من الخضوع للشهوات والأهواء، ويتحرر من الخضوع للطواغيت، ويتمرد على كل ظلم واستكبار.

وإذا لم يختر عبادة الله تعالى، فسيكون عبداً لشهواته وأهوائه وللشياطين والطواغيت، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾(الجاثية: ٢٣).

٤) الآثار الاجتماعية للعبادة

للعبادة في الإسلام آثار اجتماعية كبيرة، ومن مظاهر ذلك:

- **صلاة الجماعة**، تذيب كل الفوارق الاجتماعية التي تميز بين الناس، حين تجمعهم في صف واحد على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية.

- **والصيام**، يذكر بالفقراء والإحساس بما يعانونه من ألم الجوع، ويلفت انتباه المسلم إلى إخوانه، فيجود عليهم بما عنده، وتقوى الرحمة والمودة بين المسلمين.

- **والزكاة**، فيها تكافل اجتماعي مالي بين الغني والفقير.

- **والحج**، مؤتمر كبير يحضره أعداد كبيرة من المسلمين من شتى بقاع العالم، من كل بلد وجنس ولون، يجتمعون في مكان واحد وزمان واحد بلباس واحد ومناسك واحدة، ليجسدوا معاني المساواة، ويتبادلوا المصالح والمنافع الدينية والدنيوية، وتتحقق بينهم أعظم أواصر التكافل والتعاون والتناصح.

أقرأ وأستمتع

من معاني شعائر الحج:

أجواء الإحرام ومحظوراته في الحج، تربط المحرم بالآخرة، وتدربه على التحرر من كل زخارف الدنيا. **وفي التلبية:** نداء تنطلق به كل حناجر الحجاج؛ لتؤكد موقفهم الذي يريد أن يلتزم بالإسلام من جديد، في مسيرتهم إلى مركز الدعوة الإسلامية الأُولى في مكّة، يلتزمون في موقفهم هذا، بكل نداءات الإسلام، في عباداته، وفي أخلاقه، وفي جهاده، وفي سياسته، واقتصاده.. وفي مواجهة كل التحديات التي يواجهها الإنسان من الشيطان الداخلي في عمق نفسه، أو من الشيطان الخارجي في عمق واقعه وفيما يحيط بحياته. **وفي الطّواف** حول الكعبة، يلوذ بجناب ربّه ويلجأ إليه من ذنوبه، ومن هوى نفسه، ووسواس شيطانه. **وفي السعي بين الصفا والمروة:** تتمثل حركة الإنسان من بداية معينة إلى نهاية معينة في أشواط، ليكون سعيه نقطة انطلاق إلى كل الساحات في العالم، إلى طلب العلم، أو تحصيل القوة، أو مواجهة التحديات التي يفرضها المستكبرون، أو قضاء حوائج الناس؛ لأن الله تعالى طلب منّا السعي من أجل هذه الأمور، كما طلبه منّا في هذا المكان. **وفي وقفات الحج، في عرفة، وفي المزدلفة، وفي منى:** يعيش المرء لياليها في لحظات تأمّلٍ وتفكير، ليكتشف ما يمكن أن يكون قد وقع فيه من انحرافٍ في خط السير، كما أن في هذه الوقفات والجمع الهائل من الناس والتزاحم والتوحد في اللباس، استحضاراً للموقف العظيم يوم القيامة بين يدي الله تعالى، حيث يقوم الناس لرب العالمين. **وفي رمي الجمار:** فكرة الصراع مع الشيطان ومحاربته، حيث يستحضر كل الشياطين في واقعه؛ ليرى أمامه كل شياطين الكفر والظلم والاستكبار في مواقع القوة في العالم، فيعبر عن رفضه لها ولطاعتها، ويعبر عن محاربته لها بأعنف الطرق.. بالرجم[1].

([1]) **فضل الله:** محمد حسين، مقال بعنوان: **(البعد العرفاني والتربوي والعبادي للحج)** منشور على موقع بينات: (موقع مكتب العلامة السيد محمد حسين فضل الله)، arabic.bayynat.org.lb.

النظام الأخلاقي في الإسلام

(وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخلَاقُ مَا بَقِيَت
فَإِن هُمُو ذَهَبَت أَخلَاقُهُم ذَهَبُوُا).
أحمد شوقي

الإسلام دين الأخلاق، فلم يُعرف عن دين أو نظام أنه اهتم بالأخلاق، مثلما عُرف عن الإسلام، وما من ميزة تميز الإسلام بها كما تميز بالأخلاق.

وتميزت الأمة الإسلامية بالأخلاق، وليس أدل على ذلك من أن أكثر من دخل في الإسلام قديماً، خاصة في شرق جنوب آسيا، وهي بقعة يقطنها معظم المسلمين اليوم . إنما دخل فيه بسبب أخلاق التجار والجنود المسلمين الفاتحين.

مفهوم الأخلاق

الأخلاق هي: (**الصفات النفسية والسلوكية للإنسان القابلة للمدح أو للذم**).

فالصفات النفسية المحمودة، مثل: حب الخير للآخرين وإحسان الظن بالناس، والصفات السلوكية المحمودة، مثل: الصدق والبر والوفاء بالعهود، وقل عكس ذلك في الصفات النفسية والسلوكية المذمومة[1].

أفكر: ما العلاقة بين الصفات النفسية والسلوكيات الخارجية عند الإنسان؟

أهمية الأخلاق في الإسلام

الأخلاق ضرورة حتمية لقيام أي مجتمع وتماسكه وتقدمه، ولنتخيل مجتمعاً يسوده الكذب مثلاً، أو خيانة الأمانة، كيف يمكن أن تكون علاقات أفراده بعضهم ببعض؟ وهل يمكن تصور تعاملهم وتعايشهم أصلاً؟

ولذلك اهتم الإسلام بالأخلاق اهتماماً كبيراً، ومن مظاهر هذا الاهتمام:

---

(1) وقيد (**القابلة للمدح أو الذم**)، يفيد تمييز الأخلاق عن الصفات والدوافع الغريزية، مثل الأكل عند الجوع، والخوف عند وجود موجباته، فإن ذلك كله ليس مما يحمد أو يذم، بخلاف الكذب أو الصدق، أنظر: **الميداني:** عبد الرحمن حسن، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، دار القلم، دمشق، ط٤، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م ص ١٠

١) إقتران الدعوة إلى الأخلاق بالدعوة إلى التوحيد

رفع الله تعالى الأخلاق إلى منزلة تقارب منزلة التوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾(الإسراء: ٢٣).

وجعل الدعوة إلى مكارم الأخلاق، جوهر الرسالات السماوية، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾(الحديد: ٢٥).

٢) جعل مكارم الأخلاق من أهم صفات الرسول ﷺ، ومن أهم غايات بعثته

كان النبي الكريم ﷺ متميزاً بأخلاقه الكريمة قبل البعثة، حتى عرف بين الناس بـ (الصادق الأمين)، وهذه خديجة - رضي الله عنها - تصف لنا أخلاق النبي ﷺ قبل الإسلام، فتخاطبه مواسية ومهدئة: **(كَلّا وَاللهِ، مَا يُخزِيكَ اللهُ أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحمِلُ الكَلَّ، وَتُكسِبُ المَعدُومَ، وَتُقرِي الضَّيفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ)**[1].

وهكذا امتاز النبي ﷺ بأخلاقه، حتى إن الله تعالى لم يمدحه بكثرة الصلاة والصيام والصدقة وغير ذلك مما عرف به، وإنما مدحه بأخلاقه الكريمة، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم:٤).

وهذا يدل على أن حسن خلقه ﷺ، كان له الدور الأكبر في منزلته العظيمة التي بلغها عند الله تعالى، ومن أهم أسباب اصطفائه نبياً، ولا عجب، فجوهر الإسلام الدعوة إلى مكارم الأخلاق، كما قال النبي ﷺ : **(إِنَّمَا بُعِثتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخلَاقِ)**[2].

٣) جعل مكارم الأخلاق من أكثر الأعمال أجراً وقربة إلى الله تعالى

---

(١) جزء من حديث طويل في بدء نزول الوحي، رواه **البخاري**، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ حديث رقم: ٣، ج١، ص٤، ورواه **مسلم**، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم: ١٦٠، ج١، ص١٣٩.

(٢) رواه **أحمد في مسنده**، بلفظ: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)، حديث رقم: ٨٩٣٩، ج٢، ص٣٨١، ورواه **البيهقي**، أحمد بن الحسين، **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٩٩٤م، بلفظ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها التي من كان متخلقا بها كان من أهل المروءة التي هي شرط في قبول الشهادة على طريق الاختصار، حديث رقم: ٢٠٥١٧، ج١٠، ص١٩١، وسيشار إلى هذا المرجع فيما بعد اختصاراً على النحو: رواه **البيهقي**، قال الهيثمي: رواه أحمد **ورجاله رجال الصحيح**، أنظر: **الهيثمي**: علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، دار الريان للتراث، القاهرة، ط ١٤٠٧ هـ، ١٥/٩.

كثرت نصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية التي تبين عظيم ثواب الأخلاق، وتجعل المتصفين بها أقرب الناس منزلاً من النبي ﷺ يوم القيامة، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(فصلت: ٣٤ - ٣٥)، وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: **(لَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا)**[1]، وفي الحديث الشريف أيضا: **(مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ)**[2]، وعن أبي هريرة ﷺ: أَنَّ رسول الله ﷺ قال: **(أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)**[3].

العوامل المؤثرة في الأخلاق

هل يمكن لسريع الغضب أن يُصبح حليماً وللبخيل أن يغدو كريماً؟ وفي المقابل هل يمكن أن يصبح الحليمُ حادَّ المزاج؟ وأن يصبح الكريمُ بخيلاً؟ أم أن الله تعالى خلق الناس على سجايا مختلفة لا تتغير؟ وطَبَعَهَم بطباع متفاوتة لا تتبدل؟

والجواب: أنّ هناك عاملين رئيسين يؤثّران في أخلاق الإنسان: عامل خَلْقي طبع اللهُ تعالى الإنسانَ عليه، وعامل اكتسابي يعود إلى البيئة التي ينشأ فيها المرء، وإلى ما يبذله كل إنسان من جهد في تغيير أخلاقه.

فالله تعالى خلق الناس متفاوتين في ميولهم واستعداداتهم وطباعهم، وهذا ملحوظ بوضوح، ومنذ الصغر، فبعض الأطفال مثلاً، تتضح عليهم سمات الهدوء والوداعة، وبعضهم

---

(1) رواه **البخاري**، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم حديث رقم: ٣٣٦٦، ج٣، ص١٣٠٥.

(2) رواه **الترمذي**، كتاب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في حسن الخلق، حديث رقم: ٢٠٠٢، ج٤، ص٣٦٢، وقال الترمذي: هذا **حديث حسن صحيح**، ورواه **أحمد**، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو رضى الله تعالى عنهما، حديث رقم: ٦٥١٤. قال الألباني: **صحيح**.

(3) رواه **مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٨١، ج٤، ص١٩٩٧.

تبرز فيه الحدة وضيق المزاج وشدة الانفعال والصراخ، وبعض الأطفال يميلون أكثر إلى مساعدة الآخرين، بينما يميل آخرون أكثر إلى الاستئثار، وربما إلى شيء من العدوانية.

ولذلك وردت نصوص شرعية تفيد بأن الإنسان يُخلق مطبوعاً على أخلاق معينة، ومن ذلك: قوله ﷺ لأشج عبد القيس: **(إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ، الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ)**[1]، وفي رواية: **(قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَشَيْءٌ جُبِلْتُ عَلَيْهِ أَمْ شَيْءٌ حَدَثَ لِي؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : بَلْ شَيْءٌ جُبِلْتَ عَلَيْهِ)**[2].

لكن هذه الميول والاستعدادات، إنما هي بمثابة البذرة، تبقى مستكنة إذا لم تُتَعَهَّد بالعناية ولم تتوافر لها الظروف الملائمة، وتظهر وتنمو إذا وجدت إرادةٌ وظروفٌ لتنميتها، سواء أكانت في اتجاه الخير أم في اتجاه الشر.

ولذلك وردت نصوص شرعية تفيد بأن الأخلاق تُكتسبُ، وأن الإنسان هو من يزكي نفسه ويربيها على الأخلاق الفاضلة، أو يهوي بها إلى حضيض الأخلاق السيئة. ومن هنا أيضاً كانت الأخلاق الحسنة سبباً للمدح وعلو الدرجات، بينما كانت الأخلاق السيئة سبباً للذم ونزول الدركات[3].

ولكن لو فرضنا شخصين، أحدهما يميل إلى الهدوء، بينما يتصفُ الآخر بالحدة وسرعة الانفعال، وأنهما خضعا لظروف متشابهة تنمي الميل إلى الحلم، فإن الثاني ستخف حدته، دون أن يصل إلى درجة الحلم التي وصل إليها الأول، وهذا معنى قول النبي ﷺ: **(النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا)**[4].

---

(1) رواه **مسلم**، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه، حديث رقم: ١٧، ج١، ص٤٨.

(2) رواه **ابن ماجه**، كتاب الزهد، باب الحلم، حديث رقم: ٤١٨٧، ج٢، ص١٤٠١، ورواه بقريب من هذا اللفظ: **النسائي**، أحمد بن شعيب، **المجتبى من السنن (سنن النسائي)**، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦م، باب قول الله: ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، ذكر أسماء الله تعالى وتبارك، حديث رقم: ٧٧٤٦، ج٤، ٤١٦، قال الألباني: **إسناده صحيح على شرط الشيخين**، وسيشار إلى هذا المرجع فيما بعد اختصاراً هكذا: رواه النسائي.

(3) أنظر قريباً من طريقة جمعنا بين هاتين الطائفتين من النصوص، في: **الميداني:** عبد الرحمن حسن، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص ١٧٩ - ١٩٤.

(4) جزء من حديث تتمته: **(وَالْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ)**، رواه **مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم: ٢٦٣٨، ج٤، ص٢٠٣١، وفي **البخاري** جزء من حديث آخره: (...**قَالَ فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا)**، كتاب

أناقش: قد يسوّغُ بعض المجرمين جرائمهم، بأنهم مجبولون على الشر، ما رأيك في ذلك؟!

قواعد الأخلاق

ما معايير التمييز بين حسَن الأخلاق وقبيحها؟ وكيف يمكن التزام الأخلاق الحسنة؟ يمكن استخلاص قواعد شرعية لذلك، من أهمها:

١) التزام الشرع

إن خير ميزان لتمييز الأخلاق الحسنة، وأفضل ما يساعد على التخلق بها، التزامُ الإسلام وأحكامه، فإن الإسلام لم يأمر إلا بكل حسن، ولم ينه إلا عن كل قبيح، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾ (النحل: ٩٠).

٢) تزكية النفس عن الهوى

قد تُزيّن نفس المرء له قبائح الأعمال فيراها حسنة، وتأمره بالسوء، وتسوّلُ له الظلم والعدوان، ومن نظر في كثير من الرذائل والأخلاق الذميمة، لوجد أن سببها الرئيس هوى في النفس ومبالغة في حب الذات والشهوات.

أتأمل: قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩)، يوضح أثر النفس وسلطانها، حيث يصور شح النفس رجلاً مقاتلاً شديد المراس، يهجم على صاحبه، وليس أمامه إلا أن يصده بقوة وبواق شديد يرده، وليس ذلك الواقي إلا تزكية النفس.

ومن هنا اهتم الإسلام بتزكية النفوس وتأديبها وتهذيبها[1]، حتى تحتكم للحق وللخير ولا تنساق وراء هواها ووساوسها الأمارة بالسوء.

أتأمل: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴾ (المعارج: ١٩-٢٢)، فهذه الآيات الكريمة تبين أن للعبادة أثراً كبيراً في تخليص الإنسان من الأخلاق الذميمة، حتى تلك التي طُبع عليها.

أحاديث الأنبياء، باب واتخذ الله إبراهيم خليلاً، حديث رقم: ٣١٧١، ج٣، ص ١٢٢٢، وباب أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت، حديث رقم: ٣١٩٤، ج٣، ص١٢٣٥.

(١) أنظر: **الغزالي:** محمد، **خلق المسلم**، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ١٩٩٩م، ص ٧ - ٩.

٣) تَكَلُّفُ الأخلاق الحسنة

نعني بتَكَلُّفِ الأخلاقِ الحسنة: أن يحمل المرء نفسه على التخلق بالأخلاق الفاضلة والتخلص من الرذائل، وذلك يكون بالتدرب على السلوك القويم، وهجر كل ما يشين، حتى يصبح الخلق الجديد عادة وسجية مستقرة في النفس، وذلك يشبه تنمية الجسد وتقويته بالرياضات البدنية.

فمن يكذب، يتحَرَّى الصدقَ، حتى يصبح الصدق سجية فيه، ومن يسرع إليه الغضب لأتفه الأسباب، ليتصنَّع مظاهر الهدوء والحِلم عند كل موجة غضب، ومن يعاني من البخل، ليتكلّف الإنفاق في مواطنه، وهكذا.. في جهاد يتدرج فيه المرء في مراتب الكمال، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾(العنكبوت: ٦٩)، ويقول النبيﷺ: **(وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ)**[١].

يقول الميداني: (إن التدريب العملي والممارسة التطبيقية، ولو مع التكلف في أول الأمر، وقسر النفس على غير ما تهوى، من الأمور التي تكسب النفس الإنسانية العادة السلوكية، طال الزمن أو قصر، والعادة لها تغلغل في النفس يجعلها أمراً محبباً، وحين تتمكن في النفس تكون بمثابة الخلق الفطري، وحين تصل العادة إلى هذه المرحلة تكون خلقاً مكتسباً، ولو لم تكن في الأصل الفطري أمراً موجوداً)[٢].

أناقش: من الأمثال الشائعة: (الطَّبعُ غلب التَطَبُّعَ)، ما رأيك في ذلك؟

٤) معاملة الناس بمثل ما تحبُّ أن يعاملوك به:

هذه قاعدة تشتمل على ميزان دقيق يحدد السلوك الحسن، فعند كل سلوك للإنسان مع الآخرين، ليتخيل نفسه مكانهم وهم مكانه، ولينظر هل يرتضي ذلك النوع من السلوك منهم في حقه أم لا، وعلى ضوء ذلك ليقرر كيف يعاملهم، يقول النبيﷺ: **(لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)**[٣].

---

(١) رواه **البخاري**، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، حديث رقم: ١٤٠٠، ج٢، ص٥٣٤، ورواه **مسلم**، كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر، حديث رقم: ١٠٥٣، ج٢، ص ٧٢٩

(٢) **الميداني:** عبد الرحمن حسن، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص ٢٠٨.

(٣) رواه **البخاري**، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم: ١٣، ج١، ص١٤، ورواه **مسلم**، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، حديث رقم:٤٥،ج١، ص٦٨.

وهكذا يستقيم سلوك الإنسان، ويلتزم الصدق مع الآخرين، لأنه يحب من الآخرين أن يكونوا صادقين معه، وسيكون أميناً معهم، لأنه هكذا يحب أن يكونوا معه، ولن يحقد أو يحسد أو يغتاب، لأنه لا يحب ذلك من الآخرين تجاهه[1].

٥) الابتعاد عن كل ما يجد الإنسان في نفسه منه شيئاً

من فضل الله تعالى على الناس أنه فطرهم على الخير، وكل من يُقدم على شر أو عمل قبيح، فإنه يحسُّ بتلك الفطرة تنازعه وتمانعه، وحتى عندما تلتبس عليه الأمور، فإنه يجد نوعاً من الصراع الداخلي والتردد. يقول النبي ﷺ: **(الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ)**[2].

فالحديث الشريف يضع معياراً نفسياً دقيقاً للتمييز بين الصواب والخطأ، والحسن والقبيح، خاصة في الأمور المشتبهة، ومن يتأمل في كثير من الأفعال المستقبحة التي يرتكبها الإنسان، يجد أنه قارنها أو سبقها ذلك الشعور النفسي الخفي، الذي يقوم على التردد والتشكك، مع الحرص على إخفاء الأمر عن الآخرين.

٦) اختيار الرفيق الصالح

للرفيق أثر كبير في سلوك رفيقه وأخلاقه، وهذا أمر ملحوظ، ولذلك قيل في المثل الدارج: (الصاحب ساحب)، ومن هنا ركز الإسلام على أهمية اختيار الرفيق الصالح وحذّرَ من رفقة السوء، قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾(الزخرف: ٦٧).

٧) الاقتداء بالصالحين

إنَّ للنموذج الحي والقدوة العملية أثراً كبيراً في النفس، وقد كان من فضل الله تعالى على الناس، أنه لم يكتف بأن أمرهم بالتزام الأخلاق الفاضلة والتخلق بها، بل ضم إلى ذلك إيجاد نماذج حية، ضرب المثل بهم وأمر بالاقتداء بأخلاقهم، وعلى رأس هذه النماذج نبينا ﷺ، الذي كانت أخلاقه تطبيقاً عملياً لكل ما دعا إليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(الأحزاب:٢١).

وكل من سار على هدي الله تعالى ورسوله ﷺ فهو قدوة ينبغي احتذاؤها، وعلى المسلم أن يحذر من الإعجاب بغير الصالحين والمهتدين أو التعلق بهم والميل إليهم، لأن ذلك من أكبر أسباب انحدار الأخلاق وسوء السلوك.

---

(١) أنظر: **الميداني:** عبد الرحمن حسن، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص ٨١ - ٨٢.

(٢) رواه **مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، حديث رقم: ٢٥٥٣، ج٤، ص١٩٨٠.

خصائص النظام الأخلاقي في الإسلام

يتميز النظام الأخلاقي في الإسلام، بخصائص، من أهمها:

١) الثبات

يقيم الإسلام الأخلاق على أساس ثابت متين لا يتغير ولا يتزعزع هو أساس الدين والعقيدة، وهو ما يَسِمُهَا بالثبات، فالالتزام بالأخلاق في الإسلام مسألة مبدأ، وليس التزاماً مرتبطاً بالمصلحة يتبدل بتبدلها، ولا بالظروف يتغير بتغيرها، ولا يمكن أن يفرط المسلم بها بحال، فالمسلم يلتزم الصدق مثلاً، ولو لم يوافق مصلحته الخاصة في بعض الأحيان، ودافعه في ذلك نيل رضوان الله تعالى.

وبقدر ما يكون المسلم متمسكاً بعقيدته يرتقي في أخلاقه، بينما يدل سوء الأخلاق على ضعف العقيدة ووهنها في النفس، يقول النبي ﷺ: **(وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ)**[١]، ومن هنا كانت علامات النفاق مساوئ الأخلاق: الكذب في الحديث، وإخلاف الوعد، والغدر عند العهد، والفجور عند المخاصمة.

٢) الدافع الذاتي

ركز الإسلام على إيجاد دوافع ذاتية قوية في نفس المسلم تفوق قوة الدوافع المادية الآنية، وتحمله على الالتزام بالأخلاق في كل حالاته، ولو لحقه من ذلك ضرر دنيوي أو فاته نفع مادي، لأنه يرجو في الآخرة نفعاً أعظم ويخاف عقاباً أعم.

وذلك يضمن التزام أفراد المجتمع بها في السر والعلن وفي كل حال، ويحقق النفع العام الذي يعود على كل أفراد المجتمع[٢]، سواء أعادت على الملتزم بها بنفع مادي أم لم تعد، وسواء وجدت رقابة الدولة والمجتمع أم لا.

٣) الشمول

أوجب الإسلام التزام الأخلاق في كل ميادين الحياة[٣]:

فهي أخلاق تحكم العلاقة الزوجية على أساس من العشرة بالمعروف والتواد والتراحم، وعلاقة الإبن بوالديه بالبر والطاعة، وعلاقة الوالدين بأولادهما بالرفق والرحمة.

---

(١) رواه **البخاري**، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، حديث رقم: ٥٦٧٠، ج٥، ص٢٢٤٠.

(٢) **البغا**: د. مصطفى ديب، **نظام الإسلام في العقيدة والأخلاق والتشريع**، مرجع سابق، ص ١٥٥ - ١٥٩.

(٣) أنظر: **الميداني**: عبد الرحمن حسن، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص ٥٥ - ٥٦.

وهي أخلاق تحكم علاقة الفرد بمجتمعه على أساس الصدق والكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة، كما تحكم عالم المال بالكرم والبذل والبعد عن البخل والإسراف وعن التفاخر بالأموال.

وهي أخلاق تحكم علاقة الحاكم بالمحكومين على أساس العدل والشورى والطاعة بالمعروف، وتحكم علاقة المسلم بغير المسلم من إحسان وبر وقسط.

وهي أخلاق تحكم المسلم حتى في تعامله مع أعدائه حالة الحرب، من وجوب الوفاء بالمعاهدات والابتعاد عن الغدر وعن قتل المدنيين المسالمين.

وهي أخلاق تحكم المسلم في تعامله مع البيئة، فتوجب عليه الابتعاد عن التخريب والإفساد في الأرض.

الفلسفة المادية للأخلاق

تقوم الفلسفة المادية للأخلاق على أساس مادي نفعي، وهو:

أن أي عمل أو خُلُق يُحكم عليه بأنه صواب أو خطأ، خيرٌ أو شرٌ، بقدر ما يعود على صاحبه من نفع ولذة. فالخير هو ما يعود على الإنسان بنفع مادي، والشر هو ما يعود على الإنسان بألم مادي وخسارة مادية[1].

وهذه الفلسفة يتوجه عليها انتقادان جوهريان:

الأول: أنها فلسفة تهدم الأخلاق الإنسانية من أساسها، حيث تقرر (نسبية الأخلاق)، وعدم وجود مقياس إنساني عام لها، من دين أو ضمير أو حس إنساني مشترك، وإنما يغدو مقياسها مقياساً مادياً نفعياً محضاً، يختلف باختلاف العادات والتقاليد والزمان والبيئة والظروف والأشخاص، فليس هناك فضيلة مطلقة ولا رذيلة مطلقة[2].

وعلى سبيل المثال: لا يعود هناك معنى لفضيلة العفة، إذا دُفِعَ مبلغٌ كبيرٌ للتحلل منها، ويغدو نهب ثروات الآخرين وظلمهم واحتلال بلادهم، فضائل أخلاقية بالنسبة إلى من يقوم بها، لأنها تعود بالنفع عليه[3].

---

(1) وقد صاغ هذه الفلسفة الفيلسوف (بنتام) (١٧٤٨ – ١٨٣٢م)، بما عرف بـ (مذهب المنفعة)، أنظر: **بدوي:** د. عبد الرحمن، **الأخلاق النظرية**، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٧٥م، ص ٢٤٧ وما بعدها.

(2) أنظر: **بدوي:** د. عبد الرحمن، **الأخلاق النظرية**، مرجع سابق، ص ٢٥٢ - ٢٥٣، **الميداني:** عبد الرحمن حسن، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص ٩٧ - ١٠٤.

(3) أنظر تحليلاً ونقداً عميقين للفلسفة المادية في الأخلاق وآثارها المدمرة، في: **بيجوفتش:** علي عزت، **الإسلام بين الشرق والغرب**، الناشر: مجلة النور الكويتية، الكويت، ط١، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م، ص ١٧٧ - ٢١٥.

الثاني: أنها فلسفة تجرد الإنسان من إنسانيته، والواقع يثبت أن الإنسان ليس حيواناً بيولوجياً محكوماً بشكل آلي لحسابات اللذة والألم، وإنما هو مخلوق متميز متجاوز للمرجعية المادية المحضة، ولذلك يصعب على الفلسفة النفعية تفسير قيام الناس بأعمال أخلاقية عظيمة تخلو من المنافع المادية، مثل: أداء الواجبات الاجتماعية التي تتضمن تضحية من أجل الآخرين، كالعناية بذوي الاحتياجات الخاصة والمرضى الذين لا أمل في شفائهم، ومثل المخاطرة في سبيل إنقاذ إنسان مشرف على الهلاك، ومثل التضحية في سبيل قيم معنوية، كالتضحية بالنفس من أجل الوطن أو القيم الإنسانية أو من أجل الشرف[1].

أقرأ وأستمتع
من أخلاق السلف الصالح

- رُويَ أن عمرَ بنَ عبد العزيز أتاه ليلة ضيفٌ وكان يكتب، فكاد السراج يُطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه، فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال: أفأنبِّهُ الغلامَ؟ فقال: هي أول نومة ينامها، فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتاً، فقال الضيف: قمت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر، ما نقص مني شيء، وخير الناس من كان عند الله متواضعاً[2].

- قال ابن سيرين: (ما حسدتُ أحداً على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى الجنة! وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى النار!)[3].

([1]) **بيجوفتش:** علي عزت، **الإسلام بين الشرق والغرب**، مرجع سابق، ص ١٧٧-٢١٥.

([2]) **حوى:** سعيد، **المستخلص في تزكية الأنفس**، دار عمار، عمان، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٢٤١.

([3]) **المقدسي:** أحمد بن عبد الرحمن، **مختصر منهاج القاصدين**، خرج أحاديثه وعلق عليه: عصام عبد الرحيم، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩م، ص ٢٠٢.

النظام الاجتماعي في الإسلام

(إن الإسلام جاء بالحضارة إلى القبائل البربرية "الهمجية"، وَحَوَّلَ جماعاتٍ منفصلةً من الوثنيين إلى أممٍ، إنه جعل الخطوة مع العالم الخارجي ممكنة، إنه وسع النظر، ورفع مستوى المعيشة بإنشائه جوًا اجتماعيًا راقيًا، وأسبغ على أتباعه الوقار، واحترام النفس، واحترام الناس. إن الإسلام أدخل فن القراءة والكتابة. وبفضله تم تحريم تعاطي المسكرات.. والثأر والعادات البربرية الأخرى).

المستشرق البريطاني أندرسون

اهتم الإسلام ببناء مجتمع قوي متماسك، ونجح في تقديم نموذج فريد وغير مسبوق لذلك هو المجتمع الإسلامي الذي بناه النبي ﷺ في المدينة المنورة، على أساس نظام محكم ومتميز من الأحكام والتعاليم الاجتماعية التي جاء بها الإسلام إلى البشرية.

نظرة تاريخية

كانت المجتمعات البشرية قبل الإسلام، تقوم على أساس رابطة العائلة، أو النسب والقرابة، أو القبيلة، أو اشتراك اللغة، أو الوطن والمصلحة الوطنية. أما الدين فقد كان مستبعداً في تلك المجتمعات، ولم يكن يشكل رابطة حقيقية فيها، بل لقد كان تابعاً لرابطة العرق والجنس والقبيلة، حتى إنه كان لكل قوم (إلههم القومي)، وحتى في المجتمعات التي جاءتها رسالات سماوية، لم يكن الدين يشكل رابطة حقيقية، لأنها كانت رسالات محدودة بمكان وزمان وقوم معينين، وبقيت رابطة الدم والقبيلة والجنس هي الرابطة الرئيسة، إلى حد أنها طغت على رابطة الدين، كما هو الحال في بني إسرائيل مثلاً.

وهي أسس ضعيفة، وتتضمن في ثناياها عوامل الفرقة والنزاع والظلم الطبقي والتفكك الاجتماعي، إذا ما خلت من الاستناد إلى أساس الدين والإنسانية[1].

([1]) **إبن عاشور:** محمد الطاهر، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، دار النفائس، عمان، ط١، ٢٠٠١م، ١٧١-١٨٢.

وليس بعيداً عن الأذهان واقع العرب قبل الإسلام، فقد كانت الحروب والنزاعات عند العرب، تقوم بين القبيلة والقبيلة، وداخل القبيلة نفسها، بسبب كلمة تُثار فيها الحمية الجاهلية، التي كانت تُعمي صاحبها وتفقده صوابه، فيهب ليقاتل أخاه، لا لحق يدافع عنه أو باطل يدفعه، وإنما هي القبيلة والعشيرة والآباء والأجداد[1].

وهو ما صوره الشاعر الجاهلي بصورة صارخة، حين قال:

وَأحيَانَاً عَلَى بَكرٍ أَخِينَا إِذَا لَم نَجِد إِلَّا أَخَانَا

أسس النظام الاجتماعي في الإسلام

تلكم هي الأسس التي قامت عليها المجتمعات البشرية قبل الإسلام، حتى جاء الإسلام فأقام النظام الاجتماعي على أساسين لم يكونا معهودين من قبل: أساس الدين، وأساس الإنسانية. وذلك من غير أن يقضي الإسلام على الأسس الطبيعية التي تجمع الناس، كالقرابة والعرق واللغة، على ما نبين.

أساس الدين

إن الدين هو الذي يوجد الرغبة الحقيقية لدى أفراد المجتمع للتخلي عن تعصبهم الأعمى للعرق، وتفاخر بعضهم على بعض، وتنازعهم وتناحرهم، ويوجِدُ في كل منهم الشعورَ الحقيقي بالمساواة والأُخُوَّةِ نحو الآخرين، لأنه الأساس الذي يربط الناس كلهم برب واحد ومصير واحد وهدف واحد، فتتوحد مشاعرهم وتطلعاتهم، وتتشوّفُ قلوبهم لنيل رضوان الله تعالى، وتتعلق نفوسهم بالآخرة.

وهكذا نجح النبي ﷺ نجاحاً باهراً في بناء مجتمع إسلامي في المدينة المنورة، في وقت قصير جداً في أعمار المجتمعات، وعلى نحو لم تعهد البشرية له مثيلاً في التماسك والتآخي والتعاضد، وفي بيئة كانت من أشد البيئات آنذاك فرقة وتنازعاً وتمزقاً، بيئة تحكمها العصبيات القبلية، وتستبد بها الولاءات النسبية، والتفاخر بالآباء والأجداد، قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(الأنفال: ٦٣).

---

(1) أنظر عرضاً جيداً لمظاهر التفكك والظلم الاجتماعي في المجتمعات القديمة قبل الإسلام في: **أبو زهرة:** محمد، **دراسات إسلامية في النفس والمجتمع**، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت، ص٥ - ١١.

أساس الإنسانية

إن أساس الدين قد يكون، في بعض الأحيان، عاملاً من عوامل التفرقة وتفكك المجتمع، حين يُوَظَّفُ توظيفاً عرقياً، أو يُستند إليه في التعصب الأعمى ضد من لا يؤمن به، ولا يعدو أن يكون في مثل هذه الحالات عاملاً إضافياً يُضاف إلى العوامل العرقية التي قد تفرق المجتمع، وهو ما حدث في المجتمعات الإنسانية قبل مجيء الإسلام كما قلنا.

ولكن الأمر مختلف تماماً، إذا كان الأساس الديني الذي يستند إليه المجتمع هو الإسلام، فلم يكن الإسلام يوماً ديناً قومياً أو عرقياً خاصاً، بل كان رحمة لغير المؤمنين به كما كان رحمة للمؤمنين به، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(الأنبياء: ١٠٧).

وكما أرسى بين المؤمنين به رابطة الأخوة الدينية، فقد أرسى بين البشر كلهم رابطة الأخوة الإنسانية على أساس وحدة الجنس البشري، فالناس كلهم إخوة، ربهم واحد وأبوهم واحد وأصلهم واحد من تراب، وإن اختلف اللون أو اللغة أو العرق أو الدين، ولغير المسلمين في المجتمع الإسلامي من الحقوق ما للمسلمين، وعليهم من الواجبات ما عليهم.

إن هذه النظرة الإنسانية، هي الكفيلة بالقضاء على كل أسباب الفرقة والعصبية بين بني آدم، إنها النظرة التي تصحح المفهوم الخطأ عن حكمة اختلاف الناس في اللون والعرق واللغة والنسب، فلم تكن حكمة الله تعالى من هذا الاختلاف أن الله تعالى فضل الأبيض على الأسود، أو العربي على غيره، أو ذا النسب على الوضيع، ولا أن يفخر بعضهم على بعض، ولا ليتعصبوا لشعوبهم وقبائلهم وأصولهم، وإنما خلقهم مختلفين ليتعارفوا ويجتمعوا ويتواصلوا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ (الحجرات: ١٣).

وعلى أساس هذه النظرة الإنسانية الراقية إلى الناس كل الناس، أقام النبي ﷺ علاقة المسلمين بغيرهم في مجتمع المدينة المنورة، وعلاقة المسلمين بغيرهم من المجتمعات الأخرى، وانبثقت تلك الحضارة الإسلامية الإنسانية الفريدة، التي جمعت العربي بالفارسي والرومي والهندي والصيني، وجمعت الأبيض بالأسود، وتعارفوا كلهم وتعاونوا، ليقدموا للبشرية تلك الحضارة الفريدة والعلوم العجيبة.

إقرار الإسلام للروابط الاجتماعية الطبيعية

إن من عظمة الإسلام وواقعيته أنه لم يلغ الروابط الاجتماعية الطبيعية في المجتمع، فهو لم يلغ رابطة القرابة والنسب مثلاً، ولا رابطة القبيلة أو الوطن والقومية واللغة، وإنما أعاد صياغة هذه الروابط وتنظيمها وتفعيلها على أساس ديني وإنساني مشترك تحتكم إليه.

وبذلك استفاد الإسلام من هذه الروابط في زيادة ترابط مجتمع وتماسكه، وتلافى ما تنطوي عليه من عوامل الفرقة والتفكك والنزاع، فغدت بذلك عوامل قوة واتحاد بعد أن كانت عوامل فرقة وتنازع.

والروابط الاجتماعية الطبيعية التي يتشكل منها نسيج أي مجتمع هي دوائر متفاوتة في الاتساع، ونقتصر هنا على بيان أهمها، وهي:

الأسرة، ثم علاقات القرابة والجيران، ثم العلاقات الاجتماعية والإنسانية الأوسع، قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴾ (النساء:٣٦).

منهج الإسلام في تنظيم المجتمع

بعد أن أرسى الإسلام الأساس الديني والإنساني المشترك، عمل على توثيق الروابط الطبيعية بتشريعات فريدة ومتميزة، وذلك في اتجاهين: الترابط المعنوي، والتكافل المادي.

أولاً: تشريعات سامية لتقوية الترابط المعنوي

١) **الأسرة:** الأسرة هي الخلية الأولى والحلقة الأهم في بناء المجتمع، وهي من خصائص الجنس البشري، ومن ضرورات إنشاء نسل صالح يشكل النسيج الاجتماعي المتماسك، إذ في الأسرة ينشأ الإنسان أول ما ينشأ لتتعهده بالرعاية والعناية، وفيها يتلقى تربيته وثقافته وعلومه الأولى.

ومن هنا أولى الإسلام الأسرة عناية بالغة، وليس أدل على ذلك من أن أكبر مساحة في آيات الأحكام في القرآن الكريم قد خصصت لبيان أحكام الأسرة، وبتفصيل كبير، ولم يكثر التأكيد على التقوى والتزام حدود الله تعالى في القرآن الكريم في موضع على الإطلاق، كما كثر في مواضع بيان أحكام الأسرة.

وقد أقام الإسلام الأسرة على أسس من السكينة والمودة والرحمة والمعاشرة بالمعروف، وعمل على تقوية هذه الأسس وضمان استمرارها بتشريعات متميزة، ومن ذلك:

- خلق الله تعالى ذلك الدافع الفطري الغريزي في كل من الذكر والأنثى نحو الآخر، وشرع تلبيته عبر رباط مقدس حث عليه حثاً شديداً، هو رباط الزواج، وسماه القرآن الكريم ميثاقاً غليظاً، وحرم الزنى، الذي لا يحقق للإنسان معاني السكينة والمودة والرحمة، ويُخرج إلى المجتمع نسلاً تائهاً ضائعاً، لا يشعر بأي انتماء لقيم أو أخلاق، وتنتشر فيه الجريمة والانحلال والفقر والمرض، ويكون ذلك أعظم سبيل إلى دمار المجتمع وانهياره.

- ونظّمَ الإسلامُ الزواجَ في كل مراحله تنظيماً معجزاً، فوضع أحكاماً قبل الإقدام عليه تضمن استمراره وتحقيقه لأهدافه، مثل: ضرورة اختيار كل من الزوجين لصاحبه على أساس الأخلاق والدين، وأن يتم الزواج بالتراضي من طرفيه بعد فترة خطبة كافية، كما أوجب الإسلامُ قبولَ الولي وموافقته.

- كما نظّمَ الإسلامُ العلاقة الزوجية بعد قيامها، ومن ذلك: أنه أوجب على كل من الزوجين معاشرة الآخر بالمعروف، وحدد الحقوق والواجبات والوظائف بينهما على أساس التقابل والتوازن، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾(البقرة: ٢٢٨).

وفرض للأولاد حقوقاً مادية وتربوية، في النفقة والإرضاع والعناية والتعليم والتربية على الصلاح والأخلاق والدين، وفي المقابل أكد على حقوق الوالدين على الأبناء بالطاعة والبر والصلة والرحمة، مقابلةً للإحسان بالإحسان.

- وما كان الإسلام ليعتني بإنشاء الأسرة وتنظيم علاقات أفرادها بعضهم ببعض ثم يهمل معالجة الأسباب المهددة لوجودها، ولذلك جاء الإسلام بتنظيم إلهي لمعالجة الخلافات الأسرية على مراحل متتابعة، لا يجوز الانتقال إلى مرحلة تالية منها قبل استنفاد المرحلة التي قبلها:

وتبدأ تلك الحلول بالتحاور بين الزوجين، حيث يحثهما الإسلام على أن يحلا مشاكلهما بينهما بالتفاهم والتحاور، وأن يُبقِيَا ذلك بينهما ولا يُطلعا أحداً عليه.

وإذا فشلت الحلول الداخلية بين الزوجين، وبدأت مشاكلهما تظهر للأقربين، فإن أهل كل منهما يوفدون حكماً.

وإذا فشل الحكمان في الإصلاح، كان اللجوء إلى القضاء، والقاضي يسعى مرة أخرى في الإصلاح، وله فوق ذلك سلطة حمل كل من الزوجين على أداء واجباته الزوجية، ويتخذ من الإجراءات التعزيرية ما يراه مناسباً.

فإذا استحكم الخلاف واشتد التنازع، واستحالت الحياة الزوجية، فإن الإسلام يشرع الطلاق، حلاً أخيراً تحتّمُه الضرورة.

وبهدف الإمعان في التأكد من أن الحياة الزوجية قد استحالت على كل الأحوال، شدد الإسلام في أحكام الطلاق وضَيَّقَ من سبله، وحذر تحذيراً شديداً من مخالفة المسلم لشيء من ذلك، ومن هذه الأحكام:

أن الإسلام حصر الوقت المباح لإيقاع الطلاق، فحَرَّمَ إيقاعَه مثلاً حال الحيض. كما أوجب الإسلام أن يكون الطلاق على ثلاث مراحل، وحرم إيقاع ثلاث طلقات مرة واحدة. ورتب على وصول الزوجين إلى المرحلة الثالثة، شروطاً غير سهلة في حل رجوع بعضهما إلى بعض.

٢) القرابة: يتلو دائرةَ الأسرة دائرةُ **القرابة**، حيث حث الإسلام على صلة الأرحام، وجعل الأقربين أولى بالود والرحمة والتواصل والتناصر من غيرهم، قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾(الأنفال: ٧٥).

٣) علاقات الجيران: شبَّهَ الإسلام الجار بالقريب في وجوب الصلة والبر والمعروف وكل خير، يقول النبي ﷺ: **(مَا زَالَ يُوصِينِي جِبْرِيلُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ)**[1].

٤) العلاقات الاجتماعية والإنسانية: وقد أقامها الإسلام على أساس الأخوة الدينية والإنسانية، والتعاون على الخير والإصلاح والأمر بالمعروف، ومحاربة الفساد والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾(المائدة: ٢)، وذلك يعمل على تماسك المجتمع، وتكوين رأي عام فاضل، ويساعدُ في القضاء على الآفات الخلقية والاجتماعية التي تهدد المجتمع[2]، إذ لا شيء يفكك المجتمع مثل انتشار الفساد والسلبية والانحلال والمنكرات والظلم.

---

(1) رواه **البخاري**، كتاب الأدب، باب الوصاءة بالجار، حديث رقم: ٥٦٦٨، ج٥، ص٢٢٣٩، ورواه **مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، حديث رقم: ٢٦٢٥، ج٤، ص٢٠٢٥.

(2) **أبو زهرة: محمد، دراسات إسلامية في النفس والمجتمع**، مرجع سابق، ص ١٨ - ١٩.

كما اهتم الإسلام بتهذيب الفرد وتربيته على فضائل الأخلاق، وزرع فيه حب البذل والخير والتعامل البناء مع الآخرين، والشعور بالأخوة والمساواة نحو أخيه في الدين وأخيه في الإنسانية، بعيداً عن الأنانية والسلبية والحقد والحسد والتعصب الأعمى، وبذلك يكون عضواً إيجابياً وتربة صالحة لإنشاء مجتمع متماسك.

وذلك كله دون أن يلغي الإسلام كيان الفرد وشخصيته، ودون أن يذيبه في الجماعة كما فعلت النظم الجماعية والاشتراكية المتطرفة، ودون أن يلغي تميزه ودوافعه الذاتية لتحقيق مصالحه الخاصة، ما دامت لا تتعارض مع المصلحة العامة، ذلك أن الفردية في إطار الأخوة الدينية والإنسانية، من العوامل المهمة في تطور المجتمع وتحقيق مصالحه[1].

ومن التشريعات التي شرعها الإسلام لتقوية الحس الاجتماعي والأخوي المشترك، تلك العبادات الجماعية التي تميز الإسلام بها وأوجب على الفرد القيام بكثير منها، مثل صلاة الجمعة والجماعات والأعياد والحج، مما يعمل على ترسيخ شعور الفرد بانتمائه لجماعته، وتوثيق علاقاته بسائر أفراد المجتمع وفئاته، لينصهر سائر أفراد المجتمع في بوتقة واحدة، ويشعروا بشعور واحد في الآمال والأهداف والتطلعات.

وحث الإسلام على مشاركة المرء لأخيه في مناسباته الاجتماعية في أفراحه وأتراحه، مما يؤكد معاني الأخوة والمواساة، ويقوي المشاعر الإنسانية المتبادلة.

ثانياً: نظم مالية لتقوية التكافل المادي

إن التأكيد على المعاني الدينية والإنسانية والقرابية وغيرها، لا يكفي لقيام مجتمع متماسك متآخ إذا أغفلنا الجانب المادي، فالتفاوت الفاحش بين الغني والفقير في المجتمع ووجود فئات محرومة ومسحوقة، من العوامل المهمة التي تعمل على تفريق المجتمعات وزيادة الاحتقان الطبقي، بما يغدو معه الحديث عن الأخوة الدينية أو الإنسانية حديثاً مثالياً لا معنى له.

ومن هنا اهتم الإسلام - وبواقعيته المعهودة - بالجانب المادي في المجتمع اهتماماً لا يقل عن اهتمامه بالجانب المعنوي، ووضع نظماً مالية مادية للتكافل بين أفراد المجتمع، وحسب مبدأ الأولوية بين دوائره، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾(البقرة: ٢١٥)، ويقول النبي ﷺ: **(إِبْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقَ عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضُلَ شَيْءٌ فَلِأَهْلِكَ، فَإِنْ فَضُلَ عَن أَهْلِكَ**

([1]) أبو زهرة: محمد، **دراسات إسلامية في النفس والمجتمع**، مرجع سابق، ص ١٥ - ١٧، ١٣٥ وما بعدها.

شَيْءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فَإِنْ فَضُلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا، يَقُولُ فَبَيْنَ يَدَيْكَ وَعَنْ يَمِينَكَ وَعَنْ شِمَالِكَ)[1].

وتبدأ نظم الإسلام في التكافل المادي **بالأسرة**، التي نظم فيها الحقوق والواجبات المالية بين الزوجين والأولاد.

ثم دائرة **القرابة**، حيث فرض الإسلام نظامين أساسيين من التكافل المالي بين الأقرباء هما: نظام النفقة ونظام الميراث، ونظام النفقة يفرض على القريب الغني سد حاجة قريبه الفقير، حسب أولوية معينة تتبع درجة القرابة. وهو نظام يقابل نظام الميراث، فكما أن القريب ينتفع من قريبه بالميراث، فإن عليه التزاماً مقابله هو التزام النفقة.

ثم يتلو ذلك دائرة **الجوار**، حيث أوجب الإسلام التكافل بين الجار وجاره المحتاج، يقول النبي ﷺ: **(مَن كانَ يُؤمِنُ بِاللّهِ وَاليَومِ الآخِرِ، فَليُكرِم جَارَه)**[2]، وعن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: **(... لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ)**[3].

وأما **العلاقات الاجتماعية والإنسانية** الأوسع، فقد فرض الإسلام فيها نظماً مادية إلزامية في التكافل المالي أشهرها نظام الزكاة، وهو أحد أهم طرق معالجة الفقر والحرمان في المجتمع الإسلامي، ومنها نظام الكفارات المالية.

فما أعظمه من دين، وقد جعل تكافل المسلم مع إخوته من المحتاجين والفقراء، ركناً لا يتم إسلامه إلا به، وشرطاً لا تتكفَّرُ ذنوبه إلا بتحققه!

وأبعد من ذلك، فالأساس الديني والإنساني الذي أقام الإسلام عليه المجتمع، كفيلٌ بتفجير طاقات الخير والتكافل المالي بين أفراد المجتمع، بما يتجاوز تلك النظم الإلزامية إلى الإنفاق التطوعي الذي حث عليه الإسلام حثاً شديداً وضاعف من أجره، وجعله سبباً لتكفير الخطايا، ورفع البلاء والمرض، ومباركة الرزق، ونيل أعلى الدرجات في الآخرة، يقول النبي ﷺ: **(إِنَّ الصَّدَقَةَ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ)**[4].

([1]) رواه **مسلم**، كتاب الزكاة، باب الإبتداء في النفقة بالنفس ثم أهله ثم القرابة، حديث رقم:٩٩٧، ج٢، ص٦٩٢.

([2]) رواه **البخاري**، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، حديث رقم: ٥٦٧٣، ج٥، ص٢٢٤٠، ورواه **مسلم**، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان، حديث رقم:٤٧، ج١، ص٦٨.

([3]) رواه **البخاري**، كتاب الأدب، باب لا تحقرن جارة لجارتها، حديث رقم: ٥٦٧١، ج٥، ص٢٢٤٠، ورواه **مسلم**، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بالقليل، حديث رقم: ١٠٣٠، ج٢، ص ٧١٤.

([4]) رواه **الترمذي**، كتاب الإيمان، حديث رقم: ٢٦١٦، وقال الترمذي: هذا **حديث حسن صحيح**، ورواه **أحمد**، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه، حديث رقم: ١٤٤٨١، قال شعيب

وقد ضرب النبي ﷺ لنا مثالاً يحتذى في التكافل المالي بين أفراد المجتمع، حين قال: **(إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ)**[1].

وهناك نوع آخر من الإنفاق المالي ندب الإسلام إليه، لا يهدف بشكل أساسي إلى معالجة الحاجة والفقر، وإنما يهدف إلى توطيد علاقات أفراد المجتمع بعضهم ببعض، وتأكيد معاني الأخوة والمشاعر الإنسانية النبيلة، ومن ذلك: أن النبي ﷺ حث على الهدية، فقال: **(تَهَادُوا تَحَابُّوا)**[2]، وحث على الوليمة في المناسبات الاجتماعية كالزواج، وأوجب على المسلم إجابة دعوة أخيه إذا دعاه إلى شيء من ذلك، وقبول هديته.

مخاطر معاصرة تواجه المجتمعات الإسلامية

إن المجتمعات الإسلامية من أكثر المجتمعات تماسكاً وتلاحماً والتزاماً بالعفة والمحافظة على مؤسسة الأسرة والتمسك بها، وذلك كله بفضل الإسلام الذي لا يزال المؤثرَ الأكبرَ فيما يتعلق بالبناء الاجتماعي وتنظيم أحكام الأسرة المسلمة.

وذلك التميز يُغيظ المستعمر ويقف حجر عثرة في سعيه لإضعاف المجتمعات الإسلامية والسيطرة عليها، ولذلك يدأب على محاربة عوامل التماسك الاجتماعي عند المسلمين ويسعى جاهداً لتفكيك مؤسسة الأسرة ونزع قداستها من نفوسهم.

ومن أهم السبل التي يتبعها المستعمر لتحقيق ذلك:

١ - إشاعة القيم المتطرفة في المادية والفردية، التي تُضعف الدافع الديني والمشاعر الإنسانية، وتوهن من رغبة المسلم في القيام بواجباته الاجتماعية.

٢ - إثارة الإقليمية والإثنيات العرقية والطائفية والدينية، كي يصبح كل مجتمع إسلامي مهدداً بالتقسيم من داخله إلى طوائف وعرقيات متناحرة.

الأرنؤوط: (**إسناده قوي على شرط مسلم رجاله ثقات غير ابن خثيم، وهو عبد الله بن عثمان، فصدوق لا بأس به**).

([1]) رواه **البخاري**، كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام والنقد والعروض، حديث رقم: ٢٣٥٤، ورواه **مسلم**، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل الأشعريين رضي الله عنهم، حديث رقم: ٢٥٠٠، وأرملوا: قل زادهم أو نفد في الغزو.

([2]) رواه **البيهقي**، كتاب الهبات، باب التحريض على الهبة والهدية صلة بين الناس، حديث رقم: ١١٧٢٦، ج٦، ص١٦٩، قال الألباني: **حسن**، أنظر: **الألباني: محمد ناصر الدين، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٥ هـ، باب الهبة، حديث رقم: ١٦٠١، ج٦، ص٤٤.

٣ - إشاعة الانحلال الخلقي وإثارة شهوة الجنس وتعرية المرأة، وفي ذلك تهديد كبير للأسرة ولقيم العفة في المجتمعات الإسلامية.

٤.الطعن في المبادئ الإسلامية والقيم المجتمعية والعادات الأصيلة التي تنسجم مع اسلامية المجتمع.

٥ - مهاجمة مؤسسة الأسرة بشكل مباشر، وتنظيم المؤتمرات العالمية المتعلقة بالأسرة، والتي من أخطرها: (مؤتمر المرأة) الذي عقد في بكين عام ١٩٩٥. وكان مِن أخطر ما تناوله المؤتمر المذكور:

تشريع إقامة علاقات جنسية خارج إطار الزوجية. والحديث عن صور لـ (الأسرة) تتجاوز صورتها الطبيعية المعروفة بين رجل وامرأة، إلى إقامة أسرة بين رجل ورجل، وبين امرأة وامرأة. بالإضافة إلى تشريع الإجهاض. ومهاجمة المهمة الرئيسة للمرأة في تنشئة الجيل والقيام بعمل المنزل وتدبير شؤونه.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾(النساء: ٢٧).

النظام الاقتصادي في الإسلام

(أظن أننا بحاجة أكثر في هذه الأزمة إلى قراءة القرآن بدلاً من الإنجيل، لفهم ما يحدث بنا وبمصارفنا، لأنه لو حاول القائمون على مصارفنا احترام ما ورد في القرآن من تعاليم وأحكام، وطبقوها، ما حَلَّ بنا ما حَلَّ من كوارثَ وأزماتٍ، وما وصل بنا الحال إلى هذا الوضع المزري؛ لأن النقود لا تلد النقود).

بوفيس فانسون/رئيس تحرير مجلة "تشالينجز" الاقتصادية الشهيرة/ ٢٠٠٩م/في تعليق له على الأزمة المالية العالمية الأخيرة.

الاقتصاد عصب الحياة، والقوام المادي لمعيشة الأمة، وكلما قوي اقتصاد أمة تحققت الحياة الكريمة لأفرادها، وتعززت مكانتها بين الناس.

مفهوم النظام الاقتصادي في الإسلام

يمكن تعريف **النظام الاقتصادي في الإسلام** بأنه: (مجموعة المبادئ والأحكام المستمدة من الشريعة الإسلامية، والتي تنظم الحياة الاقتصادية للأمة).

فقد نظم الإسلام بمبادئه وأحكامه شؤون الاقتصاد، ومن تلك المبادئ: مبدأ توزيع الثروة ومنع تركزها، كما قال تعالى: ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾(الحشر: ٧)، ومن الأمثلة على تلك الأحكام: تحريم الربا وتحريم الاحتكار.

والعلم الذي يبحث في الحياة الاقتصادية هو علم الاقتصاد، والإسلام لا يرفض ما يتوصل إليه العلم من قوانين علمية محايدة، ولكن الإسلام يختلف مع النظم الاقتصادية الأخرى في مواقفها من بعض الظواهر الاقتصادية.

ويمكن تقسيم القوانين والقواعد الاقتصادية حسب موقف الإسلام منها إلى نوعين:

النوع الأول: قوانين اقتصادية مطلقة لا تختلف فيها وجهات النظر من مجتمع لآخر أو من نظام لآخر، مثل: قوانين التحليل الاقتصادي لظاهرة البطالة مثلا. ومثل قانون العرض والطلب، القاضي بأنه كلما ازداد عرض السلعة قل ثمنها والعكس صحيح، وكلما ازداد الطلب

على السلعة ازداد ثمنها والعكس صحيح، فهذا مما يمكن أن تتفق فيه وجهة نظر الاقتصاد الإسلامي مع وجهة نظر الاقتصاد الرأسمالي مثلاً.

النوع الثاني: قواعد اقتصادية نسبية تختلف فيها وجهات النظر والأحكام من مجتمع لآخر أو من نظام لآخر، مثل الموقف من الملكية الفردية، ودور الدولة في الاقتصاد، فهذا النوع من القواعد هو الذي تختلف فيه النظم الاقتصادية وتتميز عن بعضها بعضاً، فيرى النظام الاشتراكي مثلاً ضرورة تقليص الملكية الفردية إلى حد كبير بهدف القضاء عليها، بينما يرى النظام الرأسمالي ضرورة إطلاق الملكية الفردية مع قيود طفيفة، أما النظام الإسلامي فيقف موقفاً وسطاً، لا يلغي فيه هذه الملكية ولا يطلقها.

وعليه، فإن الإسلام لا يعارض النوع الأول من القوانين الاقتصادية، لأنها قوانين علمية مطلقة ومحايدة مثل قوانين الفيزياء والرياضيات، وإنما يتخذ موقفاً متميزاً من النوع الثاني من القواعد الاقتصادية، وهي قواعد لا تكتسب صفة القانون العلمي المطلق، ويعالج الإسلام هذا النوع من القواعد ضمن منظومة من المبادئ والقيم والأحكام الشرعية، تشكل النظام الاقتصادي في الإسلام.

> **أتعلم:** يُعرّفُ أحد المختصين بالبحث في الاقتصاد الإسلامي علم الاقتصاد بأنه: (العلم الذي يهدف إلى الوصول إلى أمثل الطرق في الإنتاج والتوزيع، في ظل إطار معين من القيم والتقاليد والتطلعات الحضارية للمجتمع)[1].

هذا، وقد نشطت الدراسات الاقتصادية الإسلامية في العصر الحديث، وتناولت بالبحث القضايا الاقتصادية المعاصرة، لتقديم حلول للمشاكل الاقتصادية، مستمدة من مبادئ النظام الاقتصادي الإسلامي وقيمه وأحكامه، ومن الفقه الإسلامي، وبالاعتماد على أساليب التحليل العلمي والاقتصادي.

كما انتشرت المؤسسات الاقتصادية التي تعمل وفق أحكام الشريعة، مثل: المصارف الإسلامية، وشركات التأمين الإسلامية، ومؤسسات إدارة الزكاة.

كما بدأ يظهر عدد من الأقسام الأكاديمية في الجامعات تختص بتدريس الاقتصاد الإسلامي ومؤسساته، وكان منها: **قسم الشريعة والمصارف الإسلامية** في كلية الشريعة في جامعة النجاح الوطنية.

---

(1) بتصرف يسير في بداية التعريف عن: **صقر:** د. محمد : **الاقتصاد الإسلامي: مفاهيم ومرتكزات**، نشر المركز العالمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، ص ٢٦.

الإنتاج

حث الإسلام على الإنتاج والعمل حثاً شديداً، والنصوص في هذا مستفيضة، منها: قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾(الملك: ١٥)، ويقول النبي ﷺ: **(مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)**[1]، في إشارة منه ﷺ إلى قيمة العمل والإنتاج، إلى حد أنه لا يمنع شرفُ منصب النبوة عن وظيفة الإنتاج والعمل ولا يشغل عنه، ولا ينزل العمل بالنبي عن منزلته التي رفعه الله تعالى إليها.

التوزيع

تشغل مشكلة تحقيق العدالة في توزيع الثروة والدخل، الاهتمام الأبرز في أي نظام اقتصادي، وللإسلام تميزه في معالجة هذه المشكلة وتحقيق العدل فيها.

نظرة الإسلام إلى مشكلة التوزيع

إن إحلال المساواة بين الناس في الثروة والدخل، هو أمر غير عادل ولا مقبول، وَيُفقِدُ الناسَ الدافع نحو الإنتاج والعمل.

وفي المقابل، إن تركز ثروة المجتمع في أيدي فئة قليلة، ووجود طبقة واسعة من الفقراء المعدمين، هو أمر مرفوضٌ أيضاً ويخل بالعدل الاجتماعي بين أفراد المجتمع.

لذلك اتخذ الإسلام موقفاً وسطاً من مشكلة التوزيع، وعد تفاوت الناس في الثروة سنة من سنن الله تعالى، لا ينبغي معاندتها، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾ (النحل:٧١)، وفي نفس الوقت حارب الفقر وتركز الثروة، قال تعالى: ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾(الحشر: ٧).

نظم التوزيع الإسلامية

أتى الإسلام بنظم متميزة للتوزيع، لتحقيق أهداف دينية واجتماعية واقتصادية، من أهمها:

---

(1) رواه **البخاري**، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، حديث رقم: ١٩٦٦، ج٢، ص٧٣٠.

١ - **الزكاة:** وهي نظام يهدف إلى تطهير النفوس من الشح والتعلق بالدنيا، كما يهدف إلى معالجة حقيقية لمشكلة الفقر.

٢ - **الصدقات التطوعية:** حيث يندفع إليها المسلم بدافع ديني كبير، وهي تُشكل مورداً إضافياً لمعالجة مشكلة الفقر، خاصة إذا لم تفِ الزكاة لمعالجتها، كما أنها تُشكل تمويلاً مدنياً ومجتمعياً لكل سبل الخير والمصالح العامة في المجتمع.

٣ - **الوقف**: وهو التصدق بمنفعة رأس المال على التأبيد، وهو نظام اختياري حث الإسلام عليه، وأدام أجره حتى بعد موت صاحبه، وهو المُعَبَّرُ عنه في الأحاديث النبوية بـ**(الصدقة الجارية)**، مثل: التبرع بأرض لإقامة مستشفى خيري أو مدرسة أو مسجد أو دار لرعاية الأيتام والمساكين أو ذوي الاحتياجات الخاصة.

وقد لعبت الأوقاف دوراً مهماً عبر العصور الإسلامية في إنشاء مؤسسات المجتمع المدني، وتغطية حاجات المجتمع الدائمة في شتى المجالات الدينية والاجتماعية والمعيشية والصحية والتعليمية.

٤ - **الإرث والوصية:** وهما نظامان لتوزيع الثروة بعد الموت، يسهمان في تقليص تركز الثروة في المجتمع، وذلك في الميراث بتوزيعها على عدد من أقرباء المتوفى، وتتوسع دائرة التوزيع في الوصية، حيث يوزع جزء من ثروة الميت على غير أقربائه، وقد حرم الإسلام أي تحايل أو إخلال بهذين النظامين، حتى من صاحب الثروة نفسه، إلا وفق شروط حددها.

٥ - **الكفارات المالية:** وهي أجزية مالية إلزامية لمحو بعض الذنوب، تهدف إلى تهذيب نفس المذنب، كما تهدف إلى الإسهام في معالجة مشكلة الفقر، وقديماً أسهمت في معالجة مشكلة الرق.

٦ - **الأضحية:** وهي عبادة مالية سنوية اختيارية، تهدف إلى تحقيق معنى في نفس المسلم هو التضحية في سبيل الله تعالى، كما تهدف إلى تحقيق تكافل خاص مع الفقراء، بإدخال الفرحة إلى قلوبهم في يوم العيد، وبإطعامهم نوعاً خاصاً من الطعام، قد يكون كثير منهم محرومين منه طوال السنة أو غير مكثرين منه[١].

---

(١) في استقصاء واسع لنظم التوزيع الإسلامية وطبيعتها ومميزاتها وأهدافها، أنظر: **الزرقا**: د. محمد انس، **نظم التوزيع الإسلامية**، مجلة أبحاث الاقتصاد الإسلامي، جدة، عدد (١)، مجلد (٢)، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، وانظر:

الملكية

ألغت الاشتراكية الملكية الفردية، في حين أطلقت الرأسمالية العنان للأفراد في التملك وفي التصرف ولو بطرق تلحق الضرر بالمجتمع، بزعم تقديس الحرية الفردية، أما الإسلام فقد توسط في ذلك وكان أكثر واقعية وموافقة للفطرة.

فقد أقر الإسلام الملكية الفردية، وعدَّ حب الإنسان للمال والتملك فطرة طبيعية، بل لقد سمى القرآن الكريم المال خيراً، كما في قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾(البقرة: ١٨٠)[1]، وذلك ما لم يبالغ الإنسان في حب المال إلى درجة تنسيه الآخرة ويتجاوز معها القيم والأخلاق الإسلامية، وعلى هذا يُحمل مثل قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾(الفجر:٢٠)، حيث ذم المبالغة والمجاوزة، ولم يذم أصل الميل.

ومن ناحية أخرى، فإن الإنسان ليس مطلق اليد في الكسب والتصرف فيما يملك، وإنما هو محدد بضوابط تحقق له وللمجتمع الخير في الدنيا والآخرة، إذ المالك الحقيقي للمال هو الله تعالى، الذي سخر هذا المال للإنسان وائتمنه عليه ضمن تلك الضوابط، والتي من أهمها:

١) تحريم أكل المال بالباطل: حرم الإسلام أكل مال الناس بالباطل، بالرشوة أو الغش أو الاحتيال ونحو ذلك، وَتَوَعَّدَ آكلَ المال بالباطل بالعقاب الشديد في الآخرة، وفي الدنيا بنزع البركة، وقد ينتقم الله تعالى منه في بدنه وأهله وماله.

وقد تخفى بعض طرق أكل المال بالباطل على بعض الناس: فالموظف الذي يستخدم المال العام في مصالحه الشخصية، أو الذي لا يلتزم بساعات دوامه الرسمي، يأكل جزءاً من راتبه بالحرام، والعامل الذي لا يُخلص في عمله، يأكل جزءاً من أجرته بالحرام، ورب العمل الذي يهضم بعض حقوق عامله، يأكل المال بالحرام، ومن يسأل الناس دون حاجة، فإنه يأكل أموالهم بالحرام.

٢) أداء حقوق الله تعالى: أوجب الله تعالى في المال حقوقاً، منها: الإنفاق على الأهل بالمعروف، والإنفاق على الفقراء والمساكين، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾(الحديد: ٧)، وقال تعالى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾(النور: ٣٣).

المصري: د. رفيق يونس، **أصول الاقتصاد الإسلامي**، دار القلم، دمشق، سوريا، الدار الشامية، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ص ٢٢٧ وما بعدها.

([1]) **السباعي:** د. مصطفى، **التكافل الاجتماعي في الإسلام**، دار الوراق، الرياض، ط١، ١٩٩٨م، ص ١٣٠.

وتوعد من يكنز ماله ولا يفي بحقوق الله تعالى فيه بالعذاب الشديد، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة: ٣٤).

على أن النهي عن كنز المال لا يعني تحريم الادخار، فإن المسلم - بعد أن يؤدي حقوق الله تعالى في ماله - مأمور بالادخار، وقد كان النبي ﷺ يدخر لأهله قوت سنة[١]، لما في الادخار من منافع بمواجهة كل طارئ، والتخطيط للمستقبل، ولما فيه من آثار اقتصادية إيجابية كبيرة على الاستثمار في المجتمع.

٣) الاعتدال في الإنفاق: حث الإسلام على الاعتدال في إنفاق المال من غير إسراف ولا تقتير: قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾(الفرقان:٦٧).

ومما ابتلي الناس به في هذا العصر، تلك **النزعة الاستهلاكية التي تتجاوز الموارد الخاصة**، حيث يسارعون إلى شراء كل جديد واستهلاكه، مهدرين أموالهم على مظاهر تفاخرية كاذبة لا داعي لها.

ويعمل المنتجون الرأسماليون على التأثير في رغبات الناس وتنمية تلك النزعة الاستهلاكية، من خلال الإعلانات المدروسة، والتفنن في إنتاج الكماليات وتزيينها، وتقديم تسهيلات كبيرة في طرق الدفع، ويصبح كثير من أفراد المجتمع مدينين فترات طويلة من حياتهم، ولا يتمكنون من الادخار وتحقيق التنمية والتقدم لهم ولمجتمعاتهم.

ومن هنا ندرك حكمة الإسلام حين نفّر من الدَّين تنفيراً شديداً[٢]: فكان النبي ﷺ يتعوذ من الدَّين[٣]، وكان يقول: **(يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ)**[٤].

---

(١) رواه **البخاري**، كتاب النفقات، باب حبس نفقة الرجل قوت سنة على أهله وكيف نفقات العيال، حديث رقم: ٥٠٤٢، ج٥، ص ٢٠٤٨.

(٢) **القرضاوي:** د. يوسف: **دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٣) رواه **البخاري**، كتاب الجهاد والسير، باب من غزا بصبي للخدمة، حديث رقم: ٢٧٣٦، ورواه **مسلم**، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، حديث رقم: ٢٧١٣.

(٤) رواه **مسلم**، كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين، حديث رقم: ١٨٨٥.

٤) الابتعاد عن الكبر والحسد: الكبر والحسد آفتان من الآفات التي ترتبط غالباً بالمال، حيث يورث المالُ بعضَ الأغنياء نوعاً من الكبر والمباهاة والترفع على الناس، وهو ما نهى عنه الإسلام بشدة، يقول النبي ﷺ: **(لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ)**[1].

وفي المقابل، فإن بعض الناس ممن ضُيِّقَت عليهم أرزاقهم، ينظرون إلى غيرهم بنوع من الحسرة والتمني، وربما الحسد على ما آتاهم الله تعالى من فضله، وذلك أيضاً مما نهى عنه الإسلام.

وكُلٌّ من الغني إذا تفاخر وتكبر، والفقير إذا حسد وتحسر، بعيد عن فهم حكمة الله تعالى في المنح والمنع. وكلٌّ منهما لا يدركُ أن الاعتزازَ الحقيقيَّ إنما يكون بالإيمان والعمل الصالح لا بالمال والثروة.

قال تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(الزخرف: ٣٢).

خصائص النظام الاقتصادي في الإسلام

يمتاز النظام الاقتصادي الإسلامي بخصائص، من أهمها:

١) التوازن في معالجة الظواهر الاقتصادية

إن الإسلام دين الوسطية، لا يتطرف في جانب على حساب آخر، ومن الأمثلة على هذا التوازن في شؤون الاقتصاد:

طريقة الإسلام في التعامل مع الملكية، حيث إنه لم يلغها ولم يُطلِقهَا، بل أقرها ضمن ضوابط معينة.

وطريقة الإسلام في معالجة مشكلة التوزيع، حيث عدَّ التفاوت ظاهرة طبيعية، ولكنه سعى من جهة أخرى إلى منع تركز الثروة وإلى معالجة مشكلة الفقر.

٢) الجمع بين الدوافع المادية والدوافع الروحية

تركز بعض النظم الاقتصادية على الدافع المادي في السلوك الاقتصادي للإنسان، كما هو الحال في الرأسمالية، التي تقدس اللذة المادية والربح المادي. بينما تنكر الاشتراكية الدوافع المادية، وتدعو إلى تضحية المرء بكل ما يملك من أجل الآخرين.

([1]) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، حديث رقم: ٩١، ج١، ص٩٣.

أما الإسلام فقد تميز بالجمع بين نوعين من الدوافع، لحفز الإنسان على السلوك الاقتصادي النافع: الدوافع المادية والدوافع الروحية.

فقد أكد الإسلام على مشروعية طلب العوائد المادية، لما في ذلك من أثر في حفز الناس على العمل والإنتاج، وهو ما يحقق تقدم المجتمع وازدهاره. حيث وصف القرآن الكريم العائد المادي بأنه (**فضل الله**)، أمر الناس بـ (**ابتغائه**)، قال تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾(المزمل: ٢٠).

كما ركز الإسلام على تقوية الدوافع الروحية، لما لها من أثر كبير في ضبط الدوافع المادية، وفي تفجير طاقات الإنتاج والعمل النافع، وخاصة في حال ضعف الدوافع المادية أو غيابها، يقول النبي ﷺ: **(إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ)**[1].

<u>أتأمّلُ:</u> جمع القرآن الكريم في أكثر من موضع بين الجوانب الروحية والجوانب المادية، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾(الجمعة: ٩-١٠).

٣) انضباط السلوك الاقتصادي بالأخلاق

ضبط الإسلام السلوك الاقتصادي للمسلم، بإطار من القيم والأخلاق الإسلامية، وهو ما يشكل حماية فعالة للمجتمع، وكابحاً يكبح المسلم عن سلوك كل طريق في تحقيق الربح والعائد المادي، ولو بالإضرار بالآخرين وبالمجتمع.

فالمسلم يتعامل مع الآخرين في دنيا المال والأعمال، بالأمانة والصدق والوفاء، ويبتعد عن كل ما يضر بالآخرين ولو حقق له عائداً مادياً مجزياً، فلا ينتج أو يبيع ما يلحق الضرر بالناس، ولا يغش ولا يستغل ولا يحتكر.

([1]) رواه **أحمد**، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، حديث رقم: ١٣٠٠٤، ج٣، ص١٩١، قال شعيب الأرنؤوط: (**إسناده صحيح على شرط مسلم**).

المصارف الإسلامية

انتشرت البنوك في العصر الحديث، واتسع نطاق عملها وازدادت أهميتها، ولم يعد يمكن تصور وجود اقتصاد حديث دون أن تلعب البنوك فيه دوراً رئيساً.

لكن عمل البنوك اليوم يقوم على أساس الربا الذي حرمه الإسلام تحريماً شديداً، ومن هنا نشأت الحاجة الى إنشاء مصارف إسلامية.

نشأة المصارف الإسلامية

بدأ تنظير الكتاب الإسلاميين لفكرة (**بنوك بلا فوائد**) منذ خمسينيات القرن الماضي، في وقت لم يكن أحد من الاقتصاديين الآخرين يتخيل إمكانية تحقق هذه الفكرة، وكانوا يرونها ضرباً من الخيال.

وشاء الله تعالى لهذه الفكرة أن تتحقق رغم كل الصعوبات، ففي سنة ١٩٧٥م أُعلن عن أول محاولة رسمية لتأسيس مصرف إسلامي، يلتزم أحكام الشريعة الإسلامية ولا يتعامل بالفوائد الربوية، وذلك في إمارة دبي، وهو (**بنك دبي الإسلامي**).

ثم تلا ذلك قيام الأمير محمد الفيصل آل سعود بتأسيس سلسلة من البنوك الإسلامية، ابتدأها بـ (**بنك فيصل الإسلامي**) في مصر، و(**بنك فيصل الإسلامي**) في الخرطوم[1].

ثم تتابع إنشاء المصارف الإسلامية في العالم العربي والإسلامي، بل وفي العالم كله، ويبلغ عددها الآن المئات، وتدير استثمارات بمئات المليارات، كما تقوم بنوك عالمية عريقة اليوم بتقديم خدمات مصرفية إسلامية.

التمويل في المصارف الإسلامية

يقوم التمويل في المصارف الإسلامية على أساس **المشاركة في العائد**، ربحاً كان أو خسارة، فالعائد غير محدد مسبقاً، ولكنه متوقف على نتيجة الاستثمار، بخلاف التمويل في المصارف الربوية الذي يقوم على أساس الإقراض الربوي، حيث العائد محدد مسبقاً، بغض النظر عن نتيجة الاستثمار.

---

(1) أنظر: **القرضاوي:** د. يوسف، **ابن القرية والكتاب، ملامح سيرة ومسيرة**، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٦م، ٣٤١/٣ وما بعدها.

ولا شك أن المشاركة في العائد أكثر عدلاً للطرفين، كما أنها تؤدي إلى استثمار أوسع للمال في المجتمع، إذ يتضامن المصرف مع المستثمر حال الخسارة، ويُعفيه من الفائدة الربوية التي تشكل عبئاً عليه قد يمنعه من طلب التمويل، خاصة إذا كان قدر الفائدة يقارب الربح المتوقع، أو كانت هناك مخاطر للخسارة.

ويتخذ التمويل في المصارف الإسلامية طرقاً، منها: المشاركة المنتهية بالتمليك، وبيع المرابحة للآمر بالشراء[1].

شركات التأمين الإسلامية

انتشرت شركات التأمين في هذا العصر، وأصبحت من ضرورات الحياة الاقتصادية المعاصرة بسبب تطور الحياة وطرق التجارة وزيادة المخاطر، ويقوم التأمين على أساس فكرة التضامن مع من نزلت به مصيبة أو خسارة مفاجئة بدل أن ينوء بتحملها وحده.

وقد حث الإسلام على التضامن، ودعا إلى التعاون على الخير، والتكافل بين أفراد المجتمع في مواجهة النوازل والمصائب، وشرع نظماً لتحقيق ذلك، مثل: مصرف **(الغارمين)** من مصارف الزكاة، ونظام **(الدية على العاقلة)**[2].

غير أن الفقهاء المعاصرين اختلفوا في حكم التأمين كما تجريه شركات التأمين المعاصرة، فذهب أكثرهم إلى تحريمه، بينما ذهب فريقٌ منهم إلى إباحته بشروط محددة، ولكل من الفريقين أدلته، والأمر محل اجتهاد واحتمال، وفيه سعة[3].

وما يهمنا هنا، أنه ظهرت فكرة إنشاء شركات تأمين إسلامية، تُحقق قدراً أكبر من العدالة، وقد لاقت هذه الفكرة النجاح والتطبيق والانتشار.

---

(1) بالإضافة إلى طرق التمويل هذه، تقوم المصارف الاسلامية بطبيعة الحال، بتقديم **الخدمات المصرفية** التي تقدمها البنوك الأخرى، مثل: قبول الودائع، وفتح الحسابات الجارية، وتحويل الأموال، أنظر: **شيخون:** د.محمد، **المصارف الإسلامية**، دار وائل، عمان، ط١، ٢٠٠٢هـ، ص ٨٧ - ٨٨.

(2) **جعفر:** د.عبد القادر، **نظام التأمين الإسلامي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٦م، ص ٢٧١ - ٢٨٢.

(3) أنظر في تفصيل حجج كل فريق في: **ثنيان:** سليمان بن إبراهيم، **التأمين وأحكامه**، دار العواصم المتحدة، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م، ص ١٥٥ وما بعدها.

الأساس الذي تقوم عليه شركات التأمين الإسلامية

يقوم عمل شركات التأمين الإسلامية على أساس **التأمين التعاوني**، أي المشاركة بين المستفيدين والمؤسسين في الأرباح والخسائر وتكاليف تغطية الحوادث المؤَمَّن عليها، بينما يقوم عمل شركات التأمين التجارية، على أساس التأمين التجاري، حيث يكون المؤسسون فقط شركاءَ فيما بينهم في الأرباح والخسائر وتكاليف تغطية الحوادث المؤَمَّن عليها، أما المستفيدون فينحصر التزامهم بدفع أقساط التأمين للشركة.

آلية التوزيع في شركات التأمين الإسلامية

تقوم إدارة شركة التأمين الإسلامية خلال مدة زمنية معينة هي سنة مثلاً، بإدارة رأس مال الشركة وأقساط المستفيدين، حيث تستثمر جزءاً من ذلك في مشاريع استثمارية، وترصد جزءاً لمواجهة المخاطر التي أمَّن المستفيدون ضدها، وجزءاً ثالثاً بمثابة أجرة للإدارة، وبعد ذلك كله، هناك أحد احتمالين:

١) أن يَفضُلَ ربحٌ، فهذه حالة **الفائض المالي**، حيث يوزع على المؤسسين والمستفيدين، كلٍّ ونسبة مساهمته، أما في شركات التأمين التجارية فيذهب الفائض كله للمؤسسين، ولا يعود شيء من الأقساط للمستفيدين.

٢) إذا لم يفِ ما جُمعَ من مال وما تحقق من أرباح لمجابهة المخاطر، فهذه حالة **العجز المالي**، وهنا من المفروض ومن الناحية النظرية، أن يُطالب المؤسسون والمستفيدون بمبالغ إضافية لتغطية هذا العجز، كل بنسبة ماله[١]، أما في شركات التأمين التجارية، فيتحمل المؤسسون وحدهم تغطية العجز[٢].

---

(١) لكن يمكن للإدارة معالجة مثل هذه الحالة قبل أن تقع، بتكوين احتياطي دائم من رأس المال والأقساط.

(٢) قد شرحنا أصل فكرة التوزيع في شركات التأمين الإسلامية بصورة مبسطة جداً، والأمر فيه تفاصيل أدق، أنظر: **شبير:** د. محمد عثمان، **المعاملات المالية المعاصرة في الفقه الإسلامي**، دار النفائس، عمان، ط٣، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م، ص ١٤٨ - ١٤٩.

النظام الجنائي في الإسلام

(إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا). حديث نبوي شريف

رواه البخاري ومسلم

النظام الجنائي في الإسلام، من القضايا التي طَعن فيها أعداء الإسلام عليه، وصوروه ديناً وحشياً وهمجياً، لا يناسب روح العصر والإنسانية، وأنه إذا حكم، فإنه سيأتي لتقطيع الأيدي والأرجل والرؤوس، وسَيَحمِلُ الناسَ على ما لا يريدون.

وهو هجوم متجنٍّ، فالنظام الجنائي في الإسلام نظام فريد ومميز، يكفل تحقيق الأمن والاستقرار والطمأنينة للفرد والمجتمع أكثر من أي نظام جنائي آخر.

البيئة التي تُطبق فيها العقوبات في الإسلام

حرص الإسلام على توفير بيئة اجتماعية تنتشر فيها الفضيلة، وتتربى فيها النفوس على الإيمان والعمل الصالح، ويقوى فيها أثر الوازع الديني، وتحب الخير والبر، وتنفر من الشر والعدوان والإفساد والإضرار بالآخرين، كما يسود فيها مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي يسهم إسهاماً كبيراً في أن يسود جو نظيف عفيف في المجتمع، لا يشجع على ارتكاب الجريمة[1].

كما عمل الإسلام على معالجة واقعية للدوافع المادية والظروف الاجتماعية التي تساعد على الجريمة، من الفقر والبؤس والبطالة والجهل والظلم والتفكك الأسري، وغير ذلك، فكفل لكل فرد في المجتمع معيشة كريمة ولائقة، وفرصة العمل والأجر العادل، وعمل على تأسيس

(1) أنظر: **شلتوت**: د. محمود: **الإسلام عقيدة وشريعة**، دار الشروق، القاهرة، ط١٧، ١٩٩٧م، ص ٢٩٦ - ٢٩٨.

نظام قضائي عادل، ينصف المستضعفين من المعتدين والظالمين، كما اهتم بتقوية التماسك الأسري والتكافل الاجتماعي.

فالإسلام لا يُسارع إلى إيقاع العقوبة بالجاني، قبل أن يوفر له تلك البيئة الاجتماعية، ويُلغي لديه كل الدوافع إلى ارتكاب جريمته، حتى إذا تجرأ بعد ذلك وارتكب جريمته كان مستحقاً لأقصى العقوبات الرادعة.

وإذا اختلت شروط تلك البيئة الاجتماعية، كان للجاني شأن آخر، فالسارق مثلاً لا يعاقب إذا كان دافعه إلى السرقة هو الحاجة الماسة، ذلك أن التقصير هنا وقع من المجتمع في حقه قبل أن يقع منه في حق المجتمع.

العقوبات في الإسلام ثلاثة أنواع:

الحدود، وهي: عقوبات محددة شرعاً وجبت حقاً لله تعالى على جرائم معينة، مثل: الزنى، والقذف، والسرقة. **والقصاص**، وهو: عقوبة وجبت حقاً للعبد على جرائم الاعتداء على النفس أو الأعضاء، وذلك بمعاقبة الجاني بمثل ما فعل. **والتعزير**، وهو: عقوبة غير محددة شرعاً فوّض الشارع تحديدها إلى القضاء، وذلك على كل جريمة ليس فيها حد أو قصاص، مثل: جريمة الغش في البيع، أو شتم الناس بألفاظ فاحشة[1].

مبادئ النظام الجنائي في الإسلام

يقوم النظام الجنائي في الإسلام على مبادئ سامية، من أهمها:

١) التثبت من وقوع الجريمة

يؤكد الإسلام على ضرورة التثبت من حصول الجريمة ومن صحة نسبتها إلى المتهم بها، ويشترط لذلك توافر أدلة قوية واضحة لا لبس فيها، ويمنع الأخذ بالتهمة والظن، وذلك من حقوق الإنسان الأساسية التي أقرها الإسلام.

ومن هنا قرر الإسلام مبدأ (إسقاط العقوبات بالشبهات)[2]، والمقصود بالشبهة: وجود احتمال، ولو كان احتمالاً ضعيفاً، يشكك في وقوع الجريمة أو في توافر القصد الجنائي، وهذا قريب من المبدأ القانوني: (الشك يفسر لصالح المتهم).

---

(١) في تعريف الجريمة والعقوبة وأنواع الجرائم والعقوبات في الإسلام أنظر: **عودة:** د.عبد القادر، **التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي**، دار الكاتب العربي، بيروت، د. ت، ٦٦/١ وما بعدها، ٦٠٩/١ وما بعدها.

(٢) لا يقتصر تطبيق هذا المبدأ على الحدود والقصاص، بل يشمل التعزير، على الرأي الذي نرجحه عند الفقهاء، لأنه مبدأ تقتضيه العدالة والأصل المتفق عليه من أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته، ولا وجه للرأي الذي يقصره

ومن الأمثلة على ذلك: أن المعترف بالزنى إذا تراجع عن اعترافه يسقط عنه الحد، لشكنا في أيهما كذب: في الاعتراف أم في الإقرار، وأن من ضبط سكراناً، إذا ادعى أنه ظن ما في الإناء عصيراً وأقام دلائل - ولو ضعيفة - على كلامه، فإنه لا يقام عليه الحد لاحتمال صدقه فيما قال، وأن مَن يسرق من مال صاحب العمل لأن له عنده أجراً، فإنه لا يقام عليه الحد وإن كان ما سرقه أكثر من أجره، لاحتمال أنه سرق ليأخذ أجره، ومن ذلك أن الزوجة إذا سرقت من زوجها لا يقام عليها الحد، لأنه يُتساهل عادة في المال بين الزوجين[1].

٢) التناسب بين العقوبة والجريمة

إن من أهم أسس العدل في أي نظام جنائي، أن يتناسب قدر العقوبة مع خطورة الجريمة، فلا تُحدد عقوبة تافهة على جريمة خطيرة، ولا عقوبة كبيرة على خطأ صغير، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾(البقرة: ١٩٤).

ومن الأمثلة على هذا المبدأ: عقوبة القصاص، فأساس فكرة القصاص يقوم على المماثلة بين الجريمة والعقوبة، ومعاقبة المجرم بمثل ما فعل، حتى إنه إذا قتل شخص شخصاً آخر، فإنه عند أكثر العلماء، يُقتل بالطريقة نفسها التي قتله بها.

وانسجاماً مع مبدأ التناسب بين العقوبة والجريمة، قال الفقهاء: إذا خشينا أن يؤدي القصاص في الأعضاء إلى موت الجاني أو إلحاق ضرر به أكبر من الضرر الذي ألحقه بالمجني عليه، فإن القصاص يسقط في هذه الحالة، ويُعدَلُ عنه إلى التعويض المالي، وذلك مثل من يشج شخصاً آخر في رأسه، بحيث لو اقتصصنا من الجاني لخشينا هلاكه.

٣) اقتصار العقوبة على الجاني

إن من العدل أن يتحمل الجاني وحده تبعة جريمته، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ (الأنعام: ١٦٤)، فالإسلام لا يقر العقوبات الجماعية، أو الضغط على أهل الجاني وأقربائه أو أصدقائه لحمله على الكف عن جرائمه، أو لحمله على تسليم نفسه مثلاً.

على الحدود والقصاص، أنظر في هذه القضية: **العوا:** د. محمد سليم، **في أصول النظام الجنائي الإسلامي، دراسة مقارنة**، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص ١٢٧ - ١٣٠.

(١) أنظر: **عودة:** د. عبد القادر، **التشريع الجنائي الإسلامي**، مرجع سابق، ٢٠٧/١ - ٢١٦.

ومن مظاهر هذا المبدأ: أن المرأة الزانية إذا كانت حاملاً، فإنه لا تقام عليها العقوبة حتى تضع حملها وتفطم وليدها، رعاية لوليدها الذي لا ذنب له.

أتنبهُ: يُحمّلُ الإسلامُ أقرباء القاتل خطأ، غرامة مالية هي الدية، يتقاسمونها بينهم مع القاتل حسب قدراتهم المالية، وليس ذلك من باب معاقبة غير الجاني، وإنما هو من باب التكافل الأسري والقرابي الذي حث الإسلام عليه ورسخه، ذلك أن القاتل هنا قد انعدم عنده القصد الجنائي العدائي، ولا يد له في تلك الجريمة، سوى ما قد يكون حصل منه من تقصير في الاحتياط، ولم يَدُر في خلده أن تقصيره سيفضي إلى هذه النتيجة المريعة، وهو أشبه بمن أصابته مصيبة، فواجب المجتمع وخاصة أقرباءه، أن يقفوا معه في محنته، ولذلك لا يُحمل الإسلام الأقرباء أية تبعة مالية، حين يكون القتل عمداً عدواناً.

٤) المساواة في تطبيق العقوبة

لا يفرق الإسلام في تطبيق العقوبة بين شخص وآخر ولا بين فئة وأخرى، فالعقوبة في الإسلام تُطبق على الغني والفقير، وعلى الشريف في قومه والإنسان العادي، وعلى الحاكم والمحكوم، وعلى المسلم وغيره، فالناس كلهم سواسية، وإنما التميز بالتقوى والسلوك القويم، فإذا ساء السلوك فلا تميز ولا كرامة.

روت عائشة رضي الله عنها: **(أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ ﷺ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ ﷺ أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)**[1].

([1]) رواه **البخاري**، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم: ٣٢٨٨، ج٣، ص١٢٨٢، ورواه **مسلم**، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود حديث رقم: ١٦٨٨.

خصائص النظام الجنائي في الإسلام

يمتاز النظام الجنائي في الإسلام بخصائص عديدة، من أهمها:

أولاً: الردع

إن أهم معيار لتحديد نجاح أي نظام جنائي وكفاءتة، هو في مدى ما يحققه هذا النظام من فعالية في الحد من الجريمة، وردع من تحدثه نفسه بارتكابها.

ولو أخذنا الجرائم الكبرى التي خصها الإسلام بعقوبات بدنية، لوجدنا أن كثيراً من الجناة اليوم يستهينون بارتكابها، لأنهم يرون في السجن عقوبة غير رادعة، فهم - خاصة في الدول المتقدمة - يتمتعون في السجن بمزايا معيشية كبيرة، فضلاً على كونهم عالة على المجتمع في نفقات طعامهم وشرابهم ومعيشتهم مدة طويلة، ولذلك تعاني تلك المجتمعات من أعلى معدلات الجريمة[1].

أما النظام الجنائي الإسلامي، فينطوي على فعالية كبيرة في الحد من تلك الجرائم الكبرى، ولذلك خصها بعقوبات بدنية، تشكل رادعاً نفسياً قوياً لكل من تحدثه نفسه بارتكاب تلك الجرائم، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾(الملك: ١٤).

ومن الأمثلة على ذلك:

١) القصاص

لا شيء يردع من يفكر في قتل أخيه ظلماً وعدواناً مثل نظام القصاص في الإسلام، الذي يضع كل من تسول له نفسه ذلك، أمام حقيقة أنه سيُفعل فيه مثل ما سيفعل بضحيته، بالطريقة نفسها، وخطوة بخطوة، إلى حد يصل معه إلى تصور نفسه يخطط لقتل نفسه وتعذيبها، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٩).

٢) قطع يد السارق

إن هذه العقوبة في الإسلام تُعالج بشكل معجز جريمة السرقة، حيث الفكرة الرئيسة التي تستحوذ على ذهن السارق قبل إقدامه على جريمته وهي أن السرقة تمثّلُ الطريقة

---

(1) هناك أصوات خافتة في المجتمعات المتقدمة بين فقهاء القانون الجنائي والمفكرين، تتعالى بين الفينة والأخرى مطالبة بالعودة إلى العقوبات البدنية، لإنقاذ تلك المجتمعات من مستنقع الجرائم الذي تغرق فيه، أنظر: **العوا:** د. محمد سليم، **في أصول النظام الجنائي الإسلامي**، مرجع سابق، ص ٣٣٢ - ٣٣٤.

الأسهل للحصول على المال والسعادة، والتي توفر العمر والجهد، فقابل الإسلامُ هذه الفكرة بفكرة مضادة، تحمل السارق على الموازنة والتروي قبل أن يقدم على جريمته، فأن تبقى اليد وتتعب بالعمل الشريف، خير من أن تزول بالكلية.

٣) جلد الزاني

إن عقوبة جلد الزاني في الإسلام تشكل أيضاً رادعاً نفسياً قوياً للزاني، فصورة اللذة التي يرسمها للزنى في نفسه، سيقابلها صورة أخرى بتفاصيل مضادة من العذاب، فصورة الجسد في المتعة المحرمة، يقابلها صورة ذلك الجسد يتلوى تحت ضربات السياط، وعلى ملأ من الناس.

ثانياً: الإنسانية

يسود العالمَ اليومَ رأيٌ عام يرفض العقوبات البدنية، كالإعدام والقطع والجلد، ويستهجنها بشدة، ويعدها عقوبات همجية ووحشية، تهين الإنسان، وتهدر كرامته وتعتدي على حقوقه، وتُعامله بحيوانية، إذ الحيوان هو الذي يُذبح ويجلد ويضرب كما يقولون، وقد استبعدت قوانين الدول اليوم العقوبات البدنية، واستبدلتها بعقوبات (إنسانية)، تتمثل بشكل أساسي في السجن والغرامات المالية.

ومن هنا يعيب بعض الناس على الإسلام العقوبات البدنية التي رتبها على الجرائم الكبرى التي تهدد المجتمعات، ونحن نؤكد هنا على عدة أمور:

١) إن الطاعنين في العقوبات البدنية، يُغفِلونَ جانبَ المجتمع الذي ينهار أمنه، ويُروّعُ أهلُه، ويهملون جانب المجني عليه، وما يلحق به من أذى وضرر وإهانة، أَوَلَيس المجني عليه إنساناً أيضاً؟! أليست إنسانيته أحق بالمراعاة من إنسانية الجاني، الذي خرق بجريمته كل الاعتبارات الإنسانية؟!

فدعوتهم إلى الرفق بالقاتل، تنطوي على وحشية وقسوة بالمقتول، وإهدار لإنسانيته وحقوقه، وهو إنسان بريء قُتِلَ ظلماً وعدواناً، ودعوتهم إلى الرفق بالسارق، إنما هي دعوة للرفق بيد أثيمة، تريد أن تعيش على تعب الآخرين دون جهد منها، إلا جهدها في سرقة تعبهم، وهي دعوة للقسوة والوحشية في حق جهد وتعب وكد وصبر سنين طويلة ليد شريفة، وقد يتبع ذلك آلام وأحزان وأمراض تلازم المجني عليه طيلة حياته، وهو يرى تعب سنين طويلة يذهب في لحظة.

إن النظام الجنائي الذي هو أجدر بوصف الإنسانية، إنما هو النظام الذي يحافظ على كرامة المعتدى عليه الآمن المسالم وحقوقه وإنسانيته، ويحميه وينتصر له من الذين يستبيحونه ويعتدون عليه بهمجية ووحشية وقسوة[1].

٢) إن الهدف الأساسي لأية عقوبة إنما هو الزجر والردع وحفظ الأمن والسلام الاجتماعيين، وذلك لا يتصور تحقيقه إلا بإهانة المجرم، وإشعاره بأنه بارتكابه لجريمته قد انحدر عن كل إنسانية، وأهدر احترام الآخرين له، وأية عقوبة لا تحمل هذه المعاني تفقد هدفها ومسوغ وجودها.

فالعقوبة لم توضع للتكريم، وحتى العقوبات الحديثة فيها إهانة للمجرم، وإهدار لحقوقه ومس بكرامته، فإن الإنسان إذا سُجنَ، سُلبت حريته وفَقَدَ شعوره بإنسانيته، وشعر بأنه يعامل كالحيوان أو أدنى، إذ الحيوان في البراري يتمتع بالحرية، وهل يستطيع أحد أن يزعم أن في السجن تكريماً للمجرم وحفظاً لحقوقه؟!

٣) على أنه ليس صحيحاً أن عقوبات الإسلام تعاقب المجرم بهمجية ووحشية بمثل ما يُعامل الحيوان، والمتأمل في هدي الإسلام وفي كيفية إقامة العقوبات البدنية في نظامه، يدرك أنه يهدف إلى **إشعار المجرم بالإهانة النفسية، أكثر من إلحاق الأذى الجسمي به**، والقاعدة المشهورة عند الفقهاء في هذا أن: **(الحد شُرع زاجراً لا مهلكاً)**، ومن الأمثلة الدالة على هذا المعنى:

أن الجلد يفرق على الأعضاء، ولا يُجمع على عضو واحد خوف التلف أو الهلاك، وأنه يجب تجنب المقاتل مثل الوجه والرأس، وأن السوط ينبغي أن لا تكون له عقدة تؤلم ألماً شديداً وتترك أثراً في الجسم، وأن الجالد لا يجوز أن يرفع يده بحيث يظهر إبطه، ولا أن يمدها فوق رأسه، لأنّ ذلك مبالغة في الضّرب، وأنّ المحدود لا يُمدّ ولا يُربط ولا تُشدّ يده، **لما في ذلك من تشبيه بالحيوان**، وأن المريض لا يقام عليه الحد حتى يبرأ، لئلا يزداد ألمه أو يؤدي إلى هلاكه، وأن السارق يقطع بأسهل ما يمكن، بأداة حادة، ويضبط لئلا يتحرك فيجني على نفسه.

٤) وينبغي التنبه هنا إلى أن العقوبات البدنية التي فرضها الإسلامُ، إنما هي عقوبات على جرائم محدودة، هي أكثر الجرائم خطراً وتهديداً للمجتمعات البشرية عبر العصور، ولذلك تتطلب عقوبات بدنية خاصة، كي تشكل رادعاً قوياً وحقيقياً لكل من تسول له نفسه ارتكابها.

---

(١) أنظر في هذا المعنى: **جرار:** بسام نهاد، **دراسات في الفكر الإسلامي**، مرجع سابق، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

وما سوى هذه الجرائم لا يمانع الإسلامُ أن تكون عقوبتها السجن أو غيره من العقوبات التعزيرية.

ثالثاً: إحترام الخصوصيات والحريات الشخصية

يتصور بعض الناس أن النظام الجنائي في الإسلام إذا طُبقَ، فإنه سيتتبع الناس في كل صغيرة وكبيرة، وسيخرق الخصوصيات، وينتهك الحقوق والحريات، وَيُجَرِّمُ الناسَ لأتفه الأسباب، ويشيع جواً من الشعور بالقلق والرعب والخوف، من القتل وتقطيع الأيدي والجلد.

وهذا تصور مناقض تماماً للحقيقة، ويمكن توضيح ذلك في الآتي:

١) الحث على الستر

حث الإسلام كل مرتكب لإثمٍ أن يستر على نفسه، وحث الناس أن يستروا على العصاة الذين لا يجاهرون، وحسابهم على الله تعالى، وفي هذا دليل على أن الإسلام لا يخترق الخصوصيات للمواطنين.

يقول النبي ﷺ: **(الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)**[١].

كما كان النبي ﷺ يُعرِضُ عن الجاني المُقِرّ على نفسه، ويُلمح له بالتراجع عن إقراره، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: **(أَتَى رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، فَنَادَاهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي زَنَيْتُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَتَنَحَّى تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي زَنَيْتُ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، حَتَّى ثَنَى ذَلِكَ عَلَيْهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ، دَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَبِكَ جُنُونٌ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَهَلْ أَحْصَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : اذْهَبُوا بِهِ فَارْجُمُوهُ)**[٢].

٢) التشديد في وسائل إثبات المعاصي الشخصية

يشدد الإسلام في وسائل إثبات المعاصي الشخصية، مما يُضيّق من طرق ثبوتها والمعاقبة عليها، ما لم يتعمد مرتكبها إظهارها وإشاعتها والمجاهرة بها والمفاخرة بارتكابها، وإلا غدت جريمة اجتماعية ولم تعد معصية شخصية.

---

(١) رواه **البخاري**، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم: ٢٣١٠، ج٢، ص٨٦٢، ورواه **مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٨٠، ج٤، ص ١٩٩٦.

(٢) رواه **البخاري**، كتاب الحدود، باب سؤال الإمام المقرَّ هل أحصنت، حديث رقم: ٦٤٣٩، ج٦، ص٢٥٠٢، ورواه **مسلم**، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، حديث رقم: ١٦٩١، ج٣، ١٣١٧.

وذلك يدل على اتجاه عام في الإسلام إلى المعاقبة لا على معاصٍ شخصية، وإنما على جرائم اجتماعية تمس أمن المجتمع وجو الطهارة والعفة السائد فيه، وتشجع على الرذيلة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(النور: ١٩).

وفي هذا دليل إضافي آخر على أن الإسلام لا يخترق الخصوصيات، ولا يعتدي على الحريات.

ولو أخذنا جريمة الزنى مثلاً، فإن الإسلام يشترط في إثباتها أربعة شهود، ولو شهد ثلاثة، فإنهم هم الذين يُجلدون، وليس المتهم.

ويصعب تصور توافر هذا العدد من الشهود، إلا أن يكون الزاني قد ارتكب فعلته على قارعة الطريق وأمام أعين الناس، مما يدل على أن العقوبة لم تكن على الفعلة ذاتها بقدر ما هي على إشاعتها في الناس، ولم تكن على معصية شخصية بقدر ما هي على جريمة اجتماعية تهدد طهارة المجتمع كله، إذا لم تقابل بالعقوبة العلنية من الدولة.

يقول عبد الحميد أبو سليمان في ذلك: (لدلالة شهادة الأربعة أنّ المعيار هو اعتبار أنّ الفعل قد تمّ أمام المجتمع جهراً وعلانية، وفي ذلك إشاعة للفاحشة والفساد، وعدوان على حرية الآخرين وخيارهم). ويقول: (إن الجهر والإشهار والإصرار والاستهتار هي الأمور المقصودة عامة فيما يتعلق بنزوات النفوس والغرائز، مثل الزنا وشرب الخمر وتعاطي المخدرات)[1].

أتأمّلُ: لم يُروَ أنه أقيم حد الزنى في التاريخ الإسلامي بشهادة شهود!

وفي تقرير الإسلام مبدأ إسقاط العقوبات بالشبهات كما سبق توضيحه، دليل على أن الإسلام لا يتصيد الناس لأتفه الأسباب، ولا يتعطش إلى سفك الدماء والجلد والتقطيع، بل يتشوّف إلى إسقاط العقوبة بأضعف الاحتمالات.

([1]) **أبو سليمان:** د. عبد الحميد، **الأمن والسلام الإجتماعي، هدف نظام العقوبات الإسلامي**، مجلة إسلامية المعرفة، العدد (١٤)، السنة الرابعة، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، ص ١٧٢ - ١٧٤.

النظام السياسي في الإسلام

العلاقات السياسية الداخلية

(بفضل مبدأي الإسلام الأساسيين: مبدأ السلطة لله وحده وهو الذي يجعل كل سيادة اجتماعية نسبية. ومبدأ الشورى الذي يستبعد أية وساطة بين الله والشعب. يُزَالُ، في آنٍ واحدٍ، أيَّ استبدادٍ مطلقٍ يضفي القداسةَ على السلطة، ويصبو إلى أن يجعل من القائد إلهاً على الأرض).

الفيلسوف الفرنسي الشهير روجيه جارودي

إن الإسلام دين شامل، نظم كل شؤون الحياة وجوانبها بما في ذلك شؤون الحكم والدولة والسياسة، وتميز بهذا التنظيم عن كل النظم الوضعية.

تنظيم الإسلام للجانب السياسي

يزعم بعض الناس أن الإسلام إنما جاء لينظم علاقة الإنسان بربه، ويوجهه إلى العمل لآخرته ليس أكثر، فالإسلام - بزعمهم - دين لا دولة، وآخرة لا دنيا، وسلطته محصورة في المحراب لا تجاوز جدرانه، وسيطر فريق من هؤلاء على نظم الحكم في العالم الإسلامي، وطبقوا نظم الاستعمار وَنَحَّوا الإسلام بعيداً[1].

([1]) أنظر استقصاء وتحليلاً جيداً لهذه الحركة التغريبية، وكيف اخترقت حياة المسلمين وعلمنت القوانين والحكم فيهم في: **عمارة:** د.محمد، **الإسلام والسياسة**، مركز الراية للتنمية الفكرية، جدة، ط١، ٢٠٠٥م، ص٥٣ - ٧٤.

والحقيقة أن إقامة نظامٍ يحكم بالإسلام، هو من ضرورات الدين القاطعة الواضحة، التي لا يسع أحداً إنكارها[1]، ومما يدل على ذلك:

١ - تضافرت النصوص قاطعة الثبوت والدلالة، التي تأمر بالحكم بالإسلام، وتُشدد في النكير على من لا يُحَكِّمُ الإسلام في كل شؤون الحياة، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤)، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (النساء: ٦٠).

٢ - الأمر بإقامة بعض أحكام الإسلام، يقتضي وجود دولةٍ إسلامية تُطبق ذلك. لأنه إذا كانت بعض معالم الإسلام مثل الصلاة، يمكن أن تقام على المستوى الفردي دون دولة، فإن جانباً من أحكام الإسلام لا يمكن أن يُقام دون وجود دولة تُقيمُه، مثل إقامة العدل، والقضاء بين الناس، والجهاد، والنظام الجنائي. ومعلومٌ أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

٣ - تضافرت نصوص كثيرة تشتمل على مفردات النظام السياسي وتأمر بإقامته، مثل النصوص التي ذكرت الإمام العادل، والنصوص التي ذكرت البيعة، مثل قول النبي ﷺ: **(مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً)**[2].

<u>أفكر:</u> لم يرد لفظ (الدولة) في النصوص الشرعية الآمرة بإقامة حكم الله تعالى، لماذا؟

٤ - أسس النبي ﷺ، دولة ونظام حكم، ونظّم شؤون الأمة، وأرسى قواعد العدل في المجتمع، وقاد الجيوش، وكاتَبَ الملوك، وأرسل السفراء، وعلى هدي النبي ﷺ سار صحابته ﷺ من بعده، وأقاموا دولة ونظام حكم، حتى إنهم انشغلوا عن دفن النبي ﷺ، بأمر تعيين خليفة

---

(١) أول من حمل لواء التنظير ومن داخل الإسلام، لفكرة أن الإسلام دين لا دولة، هو الشيخ الأزهري **علي عبد الرازق**، في كتابه **(الإسلام وأصول الحكم)**، في بدايات القرن العشرين، وقد أثار كتابه حينها معارك فكرية طاحنة، وتناوله العلماء بالمناقشة والدحض، أنظر تحليلاً ومناقشة لأهم ما جاء فيه، في: **عمارة:** د.محمد، **الإسلام والسياسة**، مرجع سابق، ص٧٥ - ١٤٣.

(٢) رواه **مسلم**، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة، حديث رقم: ١٨٥١، ج٣، ص١٤٧٨.

من بعده، دلالة على أهمية وجود دولة إسلامية ونظام حكم إسلامي، وكذلك فعل المسلمون وأقاموا دولة الإسلام قروناً متطاولة.

أناقش: يزعم كثير من العلمانيين أن مقصد الإسلام ليس هو هذه الحياة الدنيا الحقيرة التافهة، وإنما الحياة الآخرة الباقية، وأن الإسلام أسمى وأشرف من أن يتلطخ بوحل السياسة وأكاذيب الساسة!

مبادئ النظام السياسي في الإسلام

أمرت نصوص الشريعة بإقامة حكم الله تعالى، ولم يترك الإسلام هذا الجانب من غير قواعد تحكمه ومبادئ توجهه، فقد حددت الشريعة المبادئ العامة لنظام الحكم والمقاصد التي يسعى لتحقيقها. بل لقد عرضت الشريعة لجملة قضايا كالحاكمية التي هي لله تعالى، وكالبيعة التي تؤكد أن الحكم في الإسلام نظامٌ تعاقديٌ بين الإمام والرعية وأنه يقوم على الاختيار الحر، ذلك فضلاً عن الحديث في العدالة والمساواة ونُصرة المستضعفين والنُّصح للحاكم والرعية والدفاع عن الأوطان والأموال والأعراض، وهي جميعها من صميم عمل الدولة.

وكذلك ترك لنا النبي الكريم ﷺ تجربة تطبيقية رائعة في الحكم والإدارة وكذلك صحابته الكرام، تجربة تُشكّلُ ثروةً هائلةً مما يمكن أن يُقتدى به في شؤون الحكم والسياسة ورعاية مصالح الأمة.

وذلك كله من غير رفضٍ لما توصّل إليه الناس في زماننا من أدواتٍ ونظم للحكم وإدارة شؤون الرعية. فمع أن الإسلام لم يترك جانب الحكم والسياسة من غير تنظيم وتوجيه، إلا أن الملاحظ أن الإسلام قد أرسى الأسس العامة لذلك وقرر المبادئ الأساسية دون أن يخوض في التفاصيل التطبيقية، تاركاً مثل هذه التفاصيل للناس حسب اختلاف الزمان والمكان وحسب ما يصل إليه الإنسان من تطور في الوسائل. ولا شك أن هذا يدل على مرونة الإسلام في نظامه السياسي.

فالإسلام مثلاً لم يُقَيِّد الناسَ بشكلٍ معيّن للحكومة، ولا بعدد محدد لأعضائها. كما أنه لم يحدد طريقة معينة لانتخاب رئيس الدولة، ولا مدة معينة لرئاسته. وهو لم يحدد آلية معينة لاتخاذ القرار السياسي، بل ولم يحدد آليات معينة لتطبيق الشورى التي أكّدَ عليها في آياتٍ تُتلى على رؤوس الأشهاد إلى يوم الدين.

وكل ما يستحدثه الإنسان في هذا الإطار ويتوصل إليه من آليات ثبتت فاعليتها، ولا تتعارض مع مبادئ الإسلام ومقاصده في الحكم، فإن المسلم مأمور باتباعها. ولا يجوز للمسلمين الجمود على آليات ونظم قديمة، حتى لو كانت آليات اتبعها المسلمون في إدارة الحكم عبر تاريخ الإسلام المديد. والحكمة ضالة المؤمن. وكل أمة تفيد من غيرها، وقد أفاد المسلمون من غيرهم، والحضارة فعلٌ تراكميٌ تتوارثه الأجيال وتزيد فيه باعتبار ذلك من باب المشترك الإنساني.

وفيما يأتي نعرض لأهم مبادئ الإسلام ومقاصده في نظام الحكم:

١) الحاكمية لله تعالى

تستند الدولة الإسلامية إلى أحكام الشريعة، وهذه الأحكام تنطبق على الحاكم والمحكوم على حد سواء، فالحاكم منفّذ للأحكام وليس مشرّعاً لها، وليس له امتيازات خاصة تبيح له ما هو محظور على الناس، وينطبق عليه ما ينطبق على غيره من الأمة، والحاكم يكتسب الشرعية بقدر ما يكون مطبقاً لهذه الأحكام، ويفقدها بقدر ما يتنكر لهذه الأحكام، كما قال النبي ﷺ: (**لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**)[١]، وقال أبو بكر ﷺ: (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم)[٢].

٢) العدل

العدل أساس كل حكم صالح وناجح، وقد أمر الإسلام الحاكمين بالعدل بين الناس. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ (النساء: ٥٨).

وقد وعد الإسلامُ الحاكمَ العادل بالأجر العظيم عند الله تعالى، حتى جعل الإمامَ العادل مع الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة، يوم لا ظل إلا ظله تعالى، كما تَوَعَّدَ الظالمين بأوخم العواقب في الدنيا وأشد العذاب في الآخرة.

---

(١) رواه **البخاري**، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض...، حديث رقم: ٦٨٣٠، ج٦، ص٢٦٤٩، ورواه **مسلم**، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، حديث رقم: ١٨٤٠، ج٣، ص١٤٦٩.

(٢) أخرجه **الصنعاني**، عبد الرزاق بن همام، **مصنف عبد الرزاق**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ، كتاب الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي رواية الإمام عبد الرزاق، باب لا طاعة في معصية حديث رقم:٢٠٧٠٢، ج١١، ص٣٣٦.

فنظام الحكم الإسلامي هو النظام الذي يوصل الحقوق إلى أصحابها، وَيُنصِفُ المظلومين والمستضعفين، ولا يعتدي على الناس بغير حق، ويتنزه عن إهدار المال العام أو أكله بالباطل.

والإسلام لا يمانع بالأخذ بالمبادئ الدستورية الحديثة التي تعمل على تقرير العدل، مثل: ضرورة تقنين الفقه الإسلامي، أي صياغته في نصوص وقواعد قانونية محددة وواضحة يسهل الاطلاع عليها والتحاكم والتقاضي على أساسها.

ومثل: مبدأ الفصل بين السلطات الثلاث (التشريعية والتنفيذية والقضائية)، وهو مبدأ لا يصعب تبينه في عهد الخلفاء الراشدين ﷺ، حيث كان الخليفة نفسه يخضع لسلطة القضاء ولحكم الشرع كأي فرد من الأمة[1].

ومثل سن تشريعاتٍ صارمةٍ لا تسمح للسلطة التنفيذية بتجاوز صلاحياتها والتغوّل على السلطات الأخرى.

٣) البيعة والاختيار

المقصود بـ (**البيعة والاختيار**): التعاقد الاختياري بين الأمة والحكام، على أساس التزام الحكام بمبادئ النظام السياسي في الإسلام، والتي منها رعاية الحكام لمصالح الرعية، وفي المقابل يلتزم أفراد الأمة بطاعتهم بالمعروف، ما داموا ملتزمين بتلك المبادئ.

فالحاكم في الإسلام لا يُنصَّبُ حاكماً، إلا باختيار الناس ورضاهم، والنبي ﷺ نفسه، لم يأت إلى المدينة المنورة إلا باختيار أهلها ورضاهم ورغبتهم في تحكيم الإسلام، وَتَمَثَّلَ هذا الاختيارُ في بيعتي العقبة الأولى والثانية. والخلفاء الراشدون لم تثبت الخلافة لأي منهم، إلا بعد أن بايعهم أكثر المسلمين آنذاك.

كما يرفض الإسلام أخذ الحكم بالقوة أو توريثه في سلالة معينة. فقد مات النبي ﷺ دون أن يعين خليفة من بعده، مع ما في ذلك من احتمال أن يتنازع الناس من بعده وتضيع في لحظة كل جهود النبي ﷺ طوال ثلاث وعشرين سنة. فهل أغفل النبي ﷺ ذلك ساهياً، وهو الذي بَيَّنَ تفاصيل قضايا أقل أهمية، مثل قضايا النظافة واللباس؟! لقد أراد النبي ﷺ أن يؤكد أن تعيين رئيس الدولة إنما هو حق للأمة وباختيارها، دون فرض من أحد أو وصاية من أحد.

([1]) أنظر: **أمين:** د.أحمد محمد، **الدولة الإسلامية والمبادئ الدستورية الحديثة**، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٥م، ص٣٥ وما بعدها.

٤) الشورى

الشورى هي: أن تكون إدارة شؤون الناس واتخاذ القرارات بشأن ذلك، على أساس جماعي يقوم على اختيار الناس ورضاهم واستشارتهم، ثم السير وَفق ما يشيرون به، بدل تفرد الحاكم وحده بالقرار في كل ذلك.

أفكر: في فائدتين من فوائد الشورى.

وقد أوجب الإسلام إقامة الشورى، وألزم الحاكمَ باستشارة الناس واتباع ما أشار به أهل الحل والعقد في البلد، قال تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾(آل عمران:١٥٩)، بل لقد جعل الإسلام الشورى صفة لازمة للمؤمنين، مثل الصلاة والزكاة، وذلك في سورة من القرآن الكريم خُصّت باسم (سورة الشورى)، للدلالة على أهمية الشورى، حيث قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(الشورى: ٣٨). لذا فلا عجب أن كان النبي ﷺ أكثر الناس استشارة لأصحابه.

ومن مظاهر الحكم الشوري في الإسلام:

١ - أن الحاكم في الإسلام لا يبرم أمراً عاماً إلا بعد أن يستطلع آراء الناس وأولي الرأي فيهم خاصةً. فهو لا يستبد برأيه دونهم، بل يقدم رأي غالبية أهل الحل والعقد ويعمل به، حتى لو خالف رأيُهم رأيَه، ما دامت المسألة قد جُعلت بيد أهل الحل والعقد الممثلين للأمة وذوي الرأي والاختصاص.

والإسلام لا يعرف "الحاكم المُلْهَم" ولا "الزعيم المُسدَّد" ولا "القائد المعصوم"، الذي يرى ما لا يراه الناس ويبصر ما لا يبصرونه. بل لقد قال تعالى في ذم فرعون: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾(غافر: ٢٩).

ولو كان أحد من حقه أن يزعم الإلهام والاستغناء عن رأي الناس وأهل الاختصاص منهم، لكان هو النبي ﷺ لأنه يوحى إليه. ومع ذلك فإن النبي ﷺ كان أكثر الناس استشارة لأصحابه، بل وربما نزل عن رأيه لقول أهل الرأي والنُّهى فيهم. فقد نزل إلى رأي الحباب بن المنذر ﷺ في معركة بدر[1]، واستشار في غزوة أحد، وكان رأيُه أن يبقى المسلمون في المدينة،

([1]) **ابن هشام:** عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ٢٥٩/٢ - ٢٦٠.

ورأيُ أكثرِ المسلمين أن يخرجوا إلى المشركين، فترك رأيه وأخذ برأي الأغلبية[1]، وذلك كي يرسم لنا منهجاً في احترام الحاكم لرأي الأغلبية.

أناقش: يردد بعض الناس مقولة: أن حكم الأغلبية ليس معياراً للصواب، وربما يستدلون ببعض الآيات القرآنية، من مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾(يوسف: ١٠٣)!

٢ - الحاكم يُنتقد ويُساءَلُ باعتباره مسؤولاً عن قراراته وسياساته بل ومسؤولاً عما يجري في البلاد في ظل حُكمه. ولا يعرف الإسلامُ حاكماً لا يُسأل عما يفعل، وإنما الذي لا يُسأل عما يفعل هو الله تعالى وحده. كما لا يعرف الإسلام حاكماً يلتصق بكرسيِّ الحكم لا يتزحزح عنه مهما فعل إلا بالموت أو الانقلاب.

فهذا أبو بكر الصديق ﷺ يخاطب الناس قائلاً: (إن أحسنت فأطيعوني وإن أسأت فقوموني)[2]. وخطب عمر بن الخطاب ﷺ في الناس فقال: (اسمعوا وأطيعوا)، حتى قاطعه أحدهم قائلاً: (لا سمعاً ولا طاعة يا عمر)، وكان اعتراض الرجل على أن كل واحد من المسلمين أصابه ثوب، وعمر أصابه ثوبان، فاستعان عمر بابنه عبد الله ﷺ، الذي بيّن للناس، أنه إنما أعطى حصته لأبيه، وعندها قال الرجل: (الآن السمع والطاعة يا أمير المؤمنين)[3].

يقول الدكتور مصطفى السباعي:

(كان العالم القديم والوسيط ينكر على الشعب حقه في الإشراف على أعمال حكامه، كما يجعلون الصلة بينه وبين الحاكم صلة بين العبد وسيده، فالحاكم هو السيد المطلق يتصرف بالشعب كما يشاء، وكانت المملكة تعتبر مُلكاً خاصاً للمَلك، تورث عنه كما تورث بقية أملاكه،... وظل الأمر كذلك حتى قامت الحضارة الإسلامية تعلنُ - فيما تعلن من مبادئها - أن الشعب هو صاحب الحق في الإشراف على حكامه، وأن هؤلاء ليسوا إلا أجراء يسهرون على مصالح الشعب وكرامته بأمانة ونزاهة. وفي هذا يقع لأول مرة في التاريخ، أن يحاسِب فردٌ

---

(١) **ابن هشام:** عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ٧/٣ - ٨.

(٢)**ابن هشام:** عبد الملك بن هشام، مرجع سابق، ٣٤٠/٤ - ٣٤١.

(٣)**الصّلابي:** د. علي محمد محمد، **فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: شخصيته وعصره**، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، ص١٣٢.

من أفراد الشعب حاكمَه عما يلبس من أين جاء به، فلا يُحكم عليه بالإعدام ولا يقاد إلى السجن ولا ينفى من الأرض، ولكن يقدِّم له الحاكمُ حسابه حتى يقتنع ويقتنع الناس![1].

الموقف من الديمقراطية

لا شك أن الديمقراطية بمعناها البسيط، باعتبارها حكم الشعب لنفسه، إنما هي نتاج فلسفة غربية، قد تختلف مع الرؤية الإسلامية لنظام الحكم في بعض جوانبها، حيث إن الديمقراطية في بعض جوانبها قد تخالف مبدأ الحاكمية لله تعالى كما لو اختار غالبية الشعب الاحتكام لغير الإسلام.

بيد أن هذا التخوف، كما يرى بعض المفكرين، غير متصور في مجتمع إسلامي، إذا تُرِك الخيارُ له، لأنه سيختار الحكم بالإسلام حتماً[2]. فهذه المخاوف، وكما يقول الشيخ الغزالي، سوف تنتفي مع أي دستور ينص على أن الإسلام دين الدولة، إذ يستحيل معه الخروج على شيء من كتاب الله تعالى وسنة رسوله[3].

ونحن مع كل ما سبق، نفضل التمسك بمصطلح (الشورى) الذي له دلالاته الحضارية والثقافية الخاصة بنا، ونُؤْثر التمسك بمفهوم الشورى الذي فرضه الإسلام وطبقه النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم، ولكن، دون أن يحول ذلك من الإفادة من الآليات الحديثة للديمقراطية ونظم الحكم والإدارة، مثل: طرق تنظيم الانتخابات، وطرق تشكيل المجالس النيابية والبلدية، وطرق اختيار رئيس الدولة. ذلك أن هذه الآليات ليست إلا وسائل محايدة، وليست مذهباً ولا اعتقاداً، حتى توصف بالكفر أو الإيمان[4].

٥) ضمان الحقوق والحريات العامة

كفل الإسلام لكل مواطن في الدولة الإسلامية الحقوق والحريات العامة، وقرر حرمة كل مواطن واحترام نفسه وماله وخصوصياته، وَمَنَعَ الحاكمَ أو غيره من الاعتداء عليها.

---

(1) **السباعي:** د. مصطفى، **من روائع حضارتنا**، مرجع سابق، ص ٤٥.

(2) ومن هنا نجد أنه لا معنى للنقاش الذي يدور في كتابات الإسلاميين المعاصرين عن الدولة الإسلامية، حول مبدأ السيادة في الدولة الإسلامية هل هو لله أم للأمة، أنظر في هذه الآراء على سبيل المثال: **أمين:** د.أحمد محمد، **الدولة الإسلامية والمبادئ الدستورية الحديثة**، مرجع سابق، ص٢٠ - ٣٤.

(3) **الغزالي:** محمد، **الغزو الثقافي يمتد في فراغنا**، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، ص ٤٣.

(4) يشتد بعض الناس في الإنكار على من ينادي بالديمقراطية، ويعدونها نظام كفر، حيث يرون أنها تُسند الحكم إلى الشعب وليس إلى الله تعالى، أنظر على سبيل المثال: **الخياط:** د. عبد العزيز، **النظام السياسي في الإسلام**، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩م، ص ٩٢ - ٩٤.

ونقتصر هنا على الحديث في الحقوق السياسية، حيث كفل الإسلام هذه الحقوق العامة لكل مواطن في الدولة، كحقه في إبداء آرائه السياسية، ونقد السلطة الحاكمة، والمعارضة السياسية السلمية، وتكوين أحزاب سياسية.

وقد علّم النبي ﷺ صحابته أن يمارسوا هذه الحقوق والحريات السياسية حتى معه نفسه ﷺ، فهذا الحُبَابَ بن المنذر يبدي رأيه في المنزل الذي نزل فيه النبي ﷺ في غزوة بدر قائلاً: **(يَا رَسُولَ اللّهِ أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ أَمَنْزِلًا أَنْزَلَكَهُ اللّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدّمَهُ وَلَا نَتَأَخّرَ عَنْهُ، أَمْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ قَالَ: بَلْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ فَإِنّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ، فَانْهَضْ بِالنّاسِ حَتّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ، فَنَنْزِلَهُ ثُمّ نُغَوّرُ مَا وَرَاءَهُ مِنْ الْقُلُبِ، ثُمّ نَبْنِي عَلَيْهِ حَوْضًا فَنَمْلَؤُهُ مَاءً، ثُمّ نُقَاتِلُ الْقَوْمَ فَنَشْرَبُ وَلَا يَشْرَبُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرّأْيِ، فَنَهَضَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ النّاسِ، فَسَارَ حَتّى إذَا أَتَى أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ نَزَلَ عَلَيْهِ، ثُمّ أَمَرَ بِالْقُلُبِ فَغُوّرَتْ، وَبَنَى حَوْضًا عَلَى الْقَلِيبِ الّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ فَمُلِئَ مَاءً ثُمّ قَذَفُوا فِيهِ الْآنِيَةَ)**[1].

وكان الخوارج قد كَوَّنُوا طائفةً من المسلمين لهم آراؤهم الخاصة في الأمور السياسية، ومع أنهم طعنوا في علي كرّم الله وجهه، وهو رئيس الدولة الإسلامية حينها، إلا أنه جَسَّدَ لنا قواعد الإسلام في السماح بتكوين أحزاب سياسية، وفي حق المعارضة السلمية في أن تعبر عن آرائها[2]، حين قال: (لهم علينا ثلاث: أن لا نبدأهم بقتال ما لم يقاتلونا، وأن لا نمنعهم مساجد الله أن يذكروا فيها اسمه، وأن لا نحرمهم من الفيء ما دامت أيديهم مع أيدينا)، ثم قال: (على أن لا تسفكوا دماً حراماً، ولا تقطعوا سبيلاً، ولا تظلموا ذمياً)، ثم لم يقاتلهم حتى خرقوا هذه الشروط[3].

---

(1) **ابن هشام:** عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية**، مرجع سابق، ٢/٢٥٩ - ٢٦٠.

(2) يثور جدل بين الكتاب الإسلاميين في قضايا الدولة الإسلامية حول مدى مشروعية وجود أحزاب سياسية في الدولة الإسلامية، ويختلفون على رأيين بين مجيز ومانع، ونحن نرى أن وجود تعددية حزبية هو من ضرورات إقامة حكم عادل وشوري بعيد عن كل صور الدكتاتورية، والإسلام قد أجاز التعددية في التشريع من خلال المذاهب الفقهية، أفلا يجيز التعددية السياسية؟! أنظر حول الرأيين المذكورين ومناقشة ذلك في: **أمين:** د.أحمد محمد، **الدولة الإسلامية والمبادئ الدستورية الحديثة**، مرجع سابق، ص ١٦٥ - ١٨١، وأنظر أيضاً: **القرضاوي:** د.يوسف، **من فقه الدولة في الإسلام**، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ٢٠٠١م، ص ١٤٧ - ١٦٠.

(3) **الهندي**، علي بن حسام الدين، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م، كتاب الفتن من قسم الأفعال، تتمة فتن الخوارج، حديث رقم: ٣١٥٩٦، مرجع سابق، ج١١، ص٤١٧.

حقوق غير المسلمين في المجتمع الإسلامي

إن كفالة الإسلام لحقوق الإنسان الخاصة والعامة لا تقتصر على المسلمين فقط، بل تشمل أيضاً غير المسلمين داخل المجتمع الإسلامي، فقد قرر الإسلام حرمة نفس كل مواطن وماله واحترام خصوصياته، وحقه في التزام دينه وممارسه شعائره حتى لو لم يكن مسلماً، في احترامٍ للتعددية الدينية على قاعدة لكم دينكم ولي دين. فغير المسلمين في المجتمع الإسلامي لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فيما يتعلق بالالتزامات والحقوق المدنية.

وقد كان مجتمع المدينة المنورة النموذج الأمثل للعدل والاشتراك في حقوق المواطنة وواجباتها، بقطع النظر عن المعتقدات الخاصة للمواطنين، وكانت الصحيفة التي وضعها النبي ﷺ أول دستور بشري يؤسس لمفهوم المواطنة على أساس من العدل والأخوة، فوق كل اعتبار عرقي أو طبقي أو ديني، وفق هدي القرآن الكريم الذي خاطب البشر جميعاً وكرمهم، وقرر وحدة أصلهم وربهم[1].

وفيما يخص الجزية المفروضة على غير المسلمين: فإن هذه الجزية إنما كانت بمثابة بدل مالي عن حماية الدولة الإسلامية لمواطنيها غير المسلمين، لأن الإسلام لم يكن يلزمهم واجب الدفاع عن دار الإسلام، حتى قال بعض الفقهاء: إنهم إن اختاروا المساهمة في الدفاع عن البلد باختيارهم، تسقط الجزية عنهم[2].

على أن المسلمين بالمقابل يدفعون التزاماً مالياً إجبارياً هو الزكاة، ولكن لما كانت الزكاة ذات دلالة دينية تعبدية تخص المسلمين، فقد أعفى الإسلامُ غيرَ المسلمين منها، وأوجب

---

(1) **الغنوشي:** د.راشد، **حقوق المواطنة، حقوق غير المسلم في المجتمع الإسلامي**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط٢، ١٤١٣هـ، ١٩٩٩٣م، ص ٤٨ - ٤٩.

(2) **زيدان:** د. عبد الكريم، **أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م، ص ١٢١، ويرى بعض المفكرين المعاصرين أن الجزية بهذه الصفة لم تعد واردة، على اعتبار أن العلة الأساسية التي بنيت عليها لم تعد موجودة، باشتراك الجميع في الدفاع والمنعة، انطلاقاً من الدفاع عن العقيدة جهاداً في سبيل الله تعالى، أو الدفاع عن الوطن الذي بات ينتمي إليه الجميع، أنظر: **هويدي:** د. فهمي، **مواطنون لا ذميون**، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ص١٤٤.

عليهم التزاماً مالياً تجاه الدولة سمّاه الجزية، مراعاة لمشاعرهم الدينية، فضلاً عمّا في ذلك من تخفيفٍ عليهم، حيث إن مقدار الزكاة يفوق مقدار الجزية[1].

أفكر: لم تكن الجزية تؤخذ من النساء، والشيوخ المتقدمين في السن، وذوي الاحتياجات الخاصة، والصغار، والمجانين، والرهبان، والفقير غير القادر مالياً على دفعها[2]، ماذا يمكن أن أستنتج من ذلك؟!

(1) ويميل بعض الفقهاء المعاصرين إلى المساواة بين المسلم وغير المسلم، وذلك بتوحيد الالتزامين (الزكاة والجزية) في القدر والشروط، وهو ما فعله عمر ﷺ مع نصارى بني تغلب في الشام، بناء على طلب منهم، أنظر: **القرضاوي:** د. يوسف، **فقه الزكاة**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، ١/١١٦ - ١٢٢.

(2) **إبن قدامة:** عبد الله بن أحمد، **المغني على مختصر الخرقي**، ضبطه وصححه: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، ٨/٣٤٩ - ٣٥١.

أقرأ وأستمتع

صور من تسامح المسلمين مع غير المسلمين في المجتمع الإسلامي

يذكر د. السباعي بعض صور هذا التسامح منقطع النظير، فيقول:

(لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وفيها من اليهود عدد كبير، كان من أول ما عمله من شؤون الدولة، أن أقام بينه وبينهم ميثاقاً تحترم فيه عقائدهم، وتلتزم الدولة بدفع الأذى، ويكونون مع المسلمين يداً واحدة على من يقصد المدينة بسوء، فطبق بذلك رسول الله ﷺ مبادئ التسامح الديني في البذور الأولى للحضارة الإسلامية.

وكان للرسول جيران من أهل الكتاب، فكان يتعاهدهم ببره ويهديهم الهدايا ويتقبل منهم هداياهم،... ولما جاء وفد نصارى الحبشة أنزلهم رسول الله ﷺ في المسجد وقام بنفسه على ضيافتهم وخدمتهم،... وجاءه مرة وفد نصارى نجران، فأنزلهم في المسجد، وسمح لهم بإقامة صلاتهم فيه، فكانوا يصلون في جانب منه، ورسول الله والمسلمون يصلون في جانب آخر، ولما أرادوا أن يناقشوا الرسول في الدفاع عن دينهم، استمع إليهم وجادلهم، كل ذلك برفق وأدب وسماحة خلق،... وعلى هدي الرسول الكريم في تسامحه الديني ذي النزعة الإنسانية الرفيعة، سار خلفاؤه من بعده، فإذا بنا نجد عمر بن الخطاب حين يدخل بيت المقدس فاتحاً، ... وتحين صلاة العصر وهو في داخل كنيسة القدس الكبرى، فيأبى أن يصلي فيها كي لا يتخذها المسلمون من بعده ذريعة للمطالبة بها واتخاذها مسجداً، ونجده وقد شكت إليه امرأة مسيحية من سكان مصر أن عمرو بن العاص قد أدخل دارها في المسجد كرهاً عنها، فيسأل عَمراً عن ذلك، فيخبره أن المسلمين كثروا وأصبح المسجد يضيق بهم، وفي جواره دار هذه المرأة، وقد عرض عليها عمرو ثمن دارها وبالغ في الثمن فلم ترض، مما اضطر عَمراً إلى هدم دارها وإدخالها في المسجد، ووضع قيمة الدار في بيت المال تأخذه متى شاءت، ومع أن هذا مما تبيحه قوانيننا الحاضرة،...، فإن عمر لم يرض ذلك، وأمر عَمراً أن يَهدم البناء الجديد من المسجد، ويعيد إلى المرأة المسيحية دارها كما كانت.

هذه هي الروح المتسامحة التي سادت المجتمع الذي أظلته حضارتنا بمبادئها، فإذا بنا نشهد من ضروب التسامح الديني، ما لا نجد له مثيلاً في تاريخ العصور، حتى في العصر الحديث، فمن مظاهر التسامح الديني أن كانت المساجد تجاور الكنائس في ظل حضارتنا الخالدة، وكان رجال الدين في الكنائس يعطون السلطة التامة على رعاياهم في كل شؤونهم

الدينية والكنسية...، ومن مظاهر التسامح الديني أن كانت الوظائف تعطى للمستحق الكفء، بقطع النظر عن عقيدته ومذهبه، وبذلك كان الأطباء المسيحيون في العهدين الأموي والعباسي محل الرعاية لدى الخلفاء، ... كان ابن أثال الطبيب النصراني طبيب معاوية الخاص، وكان سرجون كاتبه، وقد عين مروان أثناسيوس مع آخر اسمه إسحق في بعض مناصب الحكومة في مصر،... وكذلك كانت الحظوة للشعراء والأدباء لدى الخلفاء والأمراء، بقطع النظر عن أديانهم ومذاهبهم، وكلنا يعلم مكانة الأخطل في العهد الأموي،...، ويقول "ليفي بروتستال"، في كتابه إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر: "إن كاتب الذمم كثيراً ما كان نصرانياً أو يهودياً، والوظائف مما يتقلده النصارى واليهود، وقد كانوا يتصرفون للدولة في الأعمال الإدارية والحربية، ومن اليهود من كانوا ينوبون عن الخليفة بالسفارات إلى دول أوروبا الغربية". ألست ترى معي أن قول جوستاف لوبون: "إن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم"، هو إنصاف للحق قبل أن يكون إنصافاً للمسلمين؟!)[1].

(1) **السباعي:** د. مصطفى، **من روائع حضارتنا**، مرجع سابق، ص ٦٥ وما بعدها.

النظام السياسي في الإسلام

العلاقات السياسية الخارجية

(الله ابتعثنا، والله جاء بنا، لنُخرِجَ مَن شَاءَ من عبادةِ العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيقِ الدّنيا إلى سَعَتِهَا، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام).
الصحابي الجليل ربعي بن عامر مخاطباً رستم القائد العسكري لجيوش الفرس

إذا كان الإسلام قد نظم مبادئ الدولة الإسلامية، وعلاقة الحاكم بالمحكومين داخلها، فإنه لم يغفل تنظيم علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول.

أساس علاقة الدولة الإسلامية بالدول الأخرى

أرسى الإسلام هذه العلاقة على الأخوة الإنسانية والمساواة البشرية، فالإسلام ينظر إلى البشر كل البشر. على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وبيئاتهم وقومياتهم وأديانهم . على أنهم إخوة في الإنسانية مكرمون، ربهم واحد، وأصلهم واحد، وخلقوا من نفس واحدة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾(الحجرات: ١٣).

وبناء على ذلك، فإن الإسلام يدعو إلى أن تسود بين البشر علاقة الأخوة والعيش المشترك بسعادة وأمن وسلام، كما يدعو إلى السلم العالمي على أساس من العدل والمساواة والاحترام المتبادل وحفظ الحقوق الإنسانية والتعارف والتعاون على كل ما فيه خير للبشرية، بعيداً عن الصراعات والنزاعات والحروب والظلم والعدوان والعنصرية والتسلط والتعالي.

أهم قواعد علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول:

١) الأصل السلم وليس الحرب

إن إرساء الإسلام للأخوة الإنسانية، يقتضي مما يقتضيه، أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو السلم وليس الحرب[١].

إن لجوء المسلمين إلى القتال لا يكون بمبادرة منهم، وإنما يكون ذلك منهم لرد العدوان والبغي والظلم، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾(الممتحنة: ٨).

٢) أهمية العلاقات الدبلوماسية

شرع الإسلام إقامة علاقات دبلوماسية بين الدولة الإسلامية والدول الأخرى، وأقر تبادل السفراء والممثلين الدبلوماسيين، لما في ذلك من منافع وتعاون على ما فيه خير البشرية، وفي ذلك أيضاً فرصة الدعوة إلى الإسلام وإظهار صورته الصحيحة للآخرين.

وقد بعث النبي ﷺ الرسلَ إلى الملوك والزعماء، وكان كل رسول يتكلم بلسان من يُبعَثُ إليهم، كما استقبل رسلَ الدول والقبائل الأخرى وأكرم وفادتهم[٢].

٣) إقرار الحصانة الدبلوماسية

والمقصود بذلك: عدم التعرض لذات المبعوث الدبلوماسي وعدم القبض عليه، حتى لو أخل ببعض قوانين الدولة المضيفة، وإنما تُخطر دولته بذلك ويُطلب منها استدعاؤه[٣].

وقد أقر الإسلام هذا المبدأ، وأرساه النبي ﷺ في سيرته: فقد جهز النبي ﷺ جيشاً بقيادة أسامة بن زيد ﷺ لينتقم لمقتل رسوله إلى الحارث الغساني، وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: **(جَاءَ ابْنُ النَّوَّاحَةِ وَابْنُ أُثَالٍ رَسُولَا مُسَيْلِمَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُمَا أَتَشْهَدَانِ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَا: نَشْهَدُ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ لَوْ**

---

(١) **الزحيلي:** د. وهبة، **آثار الحرب في الإسلام**، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٩٩٨م، ص ١٣٠ - ١٣٨.

(٢) رواه **البخاري**، كتاب الشروط، باب ما يجوز من الشروط في الإسلام والأحكام والمبايعة، حديث رقم: ٢٥٦٤، ج٢، ص٩٦٧، ورواه **مسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، حديث رقم: ١٧٨٤، ج٣، ص١٤١١، وأنظر: **باعمر:** أحمد سالم محمد، **الدبلوماسية بين الفقه الإسلامي والقانون الدولي**، دار النفائس، عمان، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، ص ٦٩ وما بعدها.

(٣) **الزحيلي:** د. وهبة، **آثار الحرب في الإسلام**، مرجع سابق، ص ٣٣٦.

كُنْتُ قَاتِلًا رَسُولًا لَقَتَلْتُكُمَا، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَمَضَتْ السُّنَّةُ أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ)[1]، وقد اتفق الفقهاء على مبدأ تأمين الرسل والسفراء[2].

> **أتعلّم:** غير المسلم إذا دخل إلى بلاد المسلمين بتأشيرة دخول رسمية، بهدف السياحة أو التجارة أو التعليم أو غير ذلك، فإنه يأخذ حكم المستأمن، الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾(التوبة: ٦)، فلا يجوز التعرض له، ما لم يخرق قوانين الدولة التي دخلها[3].

٤) إقرار المعاهدات ووجوب احترامها

شرع الإسلام إبرام الاتفاقيات والمعاهدات بين الدولة الإسلامية وغيرها، وأوجب على المسلمين احترامها، ما دامت معاهدات تهدف إلى إحلال السلم الدولي وحفظ الحقوق الإنسانية والتعاون على كل خير.

فالإسلام يؤيد أية معاهدة تهدف إلى إحلال السلم على أساس من العدل، أو تهدف إلى التعاون على رد اعتداء المعتدين، مثل معاهدات حسن الجوار، ومعاهدات عدم الاعتداء. قال تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (الأنفال: ٦١). فقد عقد النبي ﷺ المعاهدات والأحلاف، وأشهرها صلح الحديبية مع قريش عام ٦ هـ، ودخلت قبيلة خزاعة في حلفه كما دخلت بنو بكر في حلف قريش.

والإسلام يؤيد أية معاهدة تهدف إلى إحقاق الحق ونصرة المظلومين وحفظ الحقوق والحريات لكل الناس، مثل معاهدات تسليم المجرمين، وقد شارك النبي ﷺ مع أعمامه في حلف الفضول قبل بعثته، وكان حلفاً يهدف إلى نصرة المظلوم، وإرجاع الحقوق إلى أصحابها،

---

(1) رواه **أحمد**، مسند ابن مسعود، حديث رقم: ٧٣٦١،، قال الهيثمي: إسناده حسن، أنظر: **الهيثمي:** علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، مرجع سابق، كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل الرسل، ٣١٤/٥.

(2) **باعمر:** أحمد سالم محمد، **الدبلوماسية بين الفقه الإسلامي والقانون الدولي**، مرجع سابق، ص ١٢٧ وما بعدها.

(3) **شومان:** عباس، **العلاقات الدولية في الشريعة الإسلامية**، الدار الثقافية، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م، ص٨٢-٨٤.

وقال بخصوصه: **(لَقَد شَهِدتُ فِي دَارِ عَبدِ اللهِ بنِ جَدعَانَ حِلفاً، مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمُرَ النَّعَمِ، وَلَو دُعِيَ بِهِ فِي الإِسلَامِ لَأَجَبتُ)**[1]، وكتب عمر ﷺ لأهل القدس العهدة العمرية.

كما يؤيد الإسلام أية معاهدة تهدف إلى تحقيق الخير للبشرية، مثل معاهدات حماية البيئة، ومعاهدات التعاون العلمي، ومعاهدات التعاون الاقتصادي والتبادل التجاري، وغير ذلك من أوجه التعاون على كل خير[2].

لكن الإسلام يرفض ولا شك، بعض الأحلاف الدولية للقوى المستكبرة، والتي تهدف إلى العدوان على المستضعفين، ولو كانت الأحلاف تحت عناوين إنسانية خادعة.

الجهاد في سبيل الله تعالى

يأتي الجهاد في الإسلام على معنيين، معنى عام ومعنى خاص:

أما المعنى العام، فهو: بذل الإنسان أقصى جهده ووسعه في أوجه الخير كنصرة الحق، وإشاعة الخير، ومطاردة الشر، والسعي في طلب الرزق، والتعلم، والعبادة، وتزكية النفس، ومغالبة الأعداء، ومدافعة الشيطان، وتغيير المنكر، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾(الحج: ٧٧ . ٧٨).

وأما الجهاد بمعناه الخاص، فهو القتال في سبيل الله، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾(النساء: ٧٦)[1].

---

(٢) رواه **البيهقي**، حديث رقم: ١٢٨٥٩، ج٦، ص ٣٦٧، ورواه **ابن حبان:** محمد بن حبان، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م، حديث رقم: ٤٣٧٤، ج١٠، ص٢١٦، وسيشار إليه فيما بعد اختصاراً هكذا: ورواه ابن حبان، قال شعيب الأرنؤوط: **حديثه يقرب من الحسن**، ورواه **البزار**: أحمد بن عمرو، **مسند البزار**، تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ط١، ١٤٠٩ هـ، باب ما روى حميد بن عبد الرحمن عن أبيه، حديث رقم: ١٠٢٤، ج٣، ص٢٣٥.

(٢) أنظر: **هلال:** إياد، **المعاهدات الدولية في الشريعة الإسلامية**، دار النهضة الإسلامية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص١١١ وما بعدها.

أفكر: بأي المعنيين ورد الجهاد في قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾(التوبة: ٤٤). وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(العنكبوت: ٦٩).

وسنقصر الحديث هنا على تناول الجهاد بمعناه الخاص، أي القتال في سبيل الله سبحانه وتعالى.

أهمية الجهاد في سبيل الله تعالى وفضله

الجهاد في سبيل الله تعالى ذروة سنام الإسلام، والسبيل لنيل العزة والكرامة وصد عدوان المعتدين، وهو من أحب الأعمال وأقربها إلى الله تعالى، لأن المؤمن فيه يضحي في سبيل الله تعالى بأغلى ما يملك، بالنفس والولد والمال.

وقد تضافرت النصوص الشرعية الكريمة التي تحث عليه وتدل على عظم ثوابه، ومنها: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾(الصف: ٤)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾(آل عمران: ١٦٩ . ١٧١)، وقوله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(التوبة: ١٩ - ٢٢).

---

(١) **القرضاوي:** د. يوسف، **خطابنا الإسلامي في عصر العولمة**، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م، ص١٦٣ - ١٦٤، وانظر: **أبو فارس:** د. محمد عبد القادر، **الجهاد في الكتاب والسنة**، دار الفرقان، عمان، ط١، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، ١٤ - ١٥.

ويقول النبي ﷺ : (**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ**)[1]، ويقول ﷺ: (**رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ الْغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا**)[2].

أفكر: للجهاد أثر كبير في تقوية الإيمان في النفوس، وفي توحيد الأمة، لماذا؟!

كما تضافرت النصوص الشرعية الكريمة التي تحذر من تركه والقعود عنه، منها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾(التوبة: ٣٨ - ٣٩)، **وقوله تعالى:** ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾(التوبة:٨١-٨٢).

أفكر: ما أثر ترك الجهاد على الأمة؟

أهداف الجهاد في الإسلام

إن أهداف الجهاد في الإسلام أهداف إنسانية نبيلة وسامية، لإحقاق الحق ونشر الخير والعدل، ومحاربة الظلم والبغي والعدوان.

وقد تضافرت النصوص الشرعية التي تحدد أهداف الجهاد في هذا الإطار الإنساني السامي، ونعرض لأهم هذه الأهداف كما حددتها النصوص الشرعية:

---

(1) جزء من حديث رواه **البخاري**، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، حديث رقم: ٢٦٣٧، ج٣، ص ١٠٢٨.

(2) رواه **البخاري**، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله وقول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اصبروا..."، حديث رقم: ٢٧٣٥، ج٣، ص١٠٥٩.

١) رد العدوان ومحاربة الظلم والإفساد

إن الجهاد في سبيل الله تعالى ليس حرباً عدوانية يبادر بها المسلمون غيرهم، وإنما هو وسيلة إلى صد عدوان الآخرين ورفع ظلمهم ووقف إفسادهم، وإلى حماية الأوطان والأنفس والأعراض والمقدسات، كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾(الحج: ٣٩ - ٤٠).

> **أتعلّم:** الجهاد مصدر الفعل الرباعي جاهد، وفي ذلك معنى المفاعلة والمدافعة، وهو ما يؤكد أن الجهاد ليس ابتداء بعدوان، وإنما هو مدافعة لعدوان.

٢) نصرة المستضعفين في الأرض

فرض الإسلامُ على المسلمين نصرة المستضعفين في الأرض، أيّاً كانوا وحيثما كانوا، وجعل ذلك غايةً أوجب على المسلم أن يقاتل في سبيل تحقيقها، وذلك مما يدل على سمو هذا التشريع وعالميته وإنسانية أهدافه، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾(النساء: ٧٥).

٣) حماية الحقوق والحريات الإنسانية

إن من أهم أهداف الجهاد في الإسلام محاربة الاستبداد والتسلط واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان، وإشاعة جو من الحرية والتسامح والأمن والسلام، كي يختار الإنسان ما يريد، ويدين بالدين الذي يشاء دون إكراه من أحد، تحت شعار: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة: ٢٥٦).

ومن الآيات الكريمة التي توضح هذا، قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج: ٤٠)، حيث جعل من أهداف الجهاد حماية الحريات الدينية، وتمكين الناس من ممارسة شعائرهم بحرية تامة.

> **أتأمّل:** قدمت الآية الكريمة الحديث عن حماية معابد الآخرين، على الحديث عن حماية مساجد المسلمين، للإشارة إلى أن الجهاد ليس

للإكراه على الإسلام، إنما هو لحماية الحرية الإنسانية والدينية لكل الناس.

ومن الآيات الكريمة التي لها دلالتها في هذا المقام، قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(الأنفال: ٣٩)، فقد جعلت هذه الآية الكريمة تحرير الناس من الطواغيت والمستبدين وإشاعة حرية الاختيار، أحد أهم أهداف الجهاد. إذ الفتنة هي صرف الإنسان عما يريده ويختاره وذلك بالقوة والتخويف، والإسلام يهدف إلى إشاعة جو من الحرية، وإزالة الموانع والعوائق التي قد تحول بين الناس واختيار الدين الذي يريدون.

ولا شك أن الإسلام أكثر من يستفيد من جو الحرية والتسامح الذي يشيعه الجهاد، لأنه جو يتيح التفكير الهادئ والمتعقل، ولذلك دخل أكثر شعوب البلاد المفتوحة في الإسلام طواعية، حين تسامح المسلمون معهم وحرروهم من الطواغيت.

أتنبّه: توجد نظرة خطأ تُلغي مدلول كل هذه الآيات المحكمات والأهداف الساميات، وتزعم أنها منسوخة، أي غير معمول بها، بما سمي بآية السيف، وهي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ٥)، وهي آية تتعلق بواقع معين، فيه اعتداء من المشركين ونكث للعهود، وليست آية عامة يُلغى بها مدلول غيرها من الآيات المحكمات[١].

أخلاق الجهاد في الإسلام

كم يشعر المسلم بروعة هذا الدين وعظمته، حين ينظر إلى الأخلاق التي أوجب الإسلام عليه اتباعها في الحرب، إنه دين الأخلاق الإنسانية الرفيعة، حتى في تعامله مع أعدائه المعتدين على حرماته.

(١) أنظر في تفنيد هذه النظرة الخطأ: **الزحيلي:** د. وهبة، **آثار الحرب في الإسلام**، مرجع سابق، ص ٩٧ وما بعدها.

نعم، إن للحرب في الإسلام أخلاقاً سامية، كما أن في السلم أخلاقاً سامية، ولا يجوز للمسلم خرقها، ولا يُسوّغُ له الإسلام مخالفتها، مهما كانت ظروف الحرب التي يخوضها، ومن أهم أخلاق الجهاد في الإسلام:

١) رد العدوان بمثله

إن الحرب - في الإسلام - إنما هي ضرورة يلجئه الآخرون إليها، والضرورة تقدر بقدرها، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾(البقرة: ١٩٤)، ولا يجيز الإسلام للمسلمين إذا اعتُديَ عليهم، أن يتجاوزوا الحد في رد العدوان، بأن يبالغوا في استخدام القوة في حق من اعتدى عليهم، أو يتجاوزوا القدر اللازم لرد العدوان، إلى حد أن يصبحوا معتدين وظالمين، أو يصيبوا من اعتدى عليهم ومن لم يعتد عليهم، ولم يكن الإسلام يوماً ليتعطش إلى سفك الدماء، أو ليستغل عدواناً محدوداً للآخرين ذريعة إلى تدميرهم واحتلالهم والبطش بهم.

٢) تجنب قتل المدنيين المسالمين

يرفض الإسلام قتل المدنيين في الطرف الآخر المعادي، مهما كانت الأسباب والمسوغات، ولو كان يترتب على ذلك استسلام الطرف المعادي أو سرعة حسم الحرب.

وقد نفى القرآن الكريم أي سبيل للمسلم على هؤلاء، حين قال: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾(النساء: ٩٠).

وكان النبي ﷺ إذا أَمَّرَ أميراً على جيش أو سرية:

(أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا)[١].

وفي رواية قال: **(انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا وَلَا طِفْلًا وَلَا صَغِيرًا وَلَا امْرَأَةً، وَلَا تَغُلُّوا وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)**[٢].

٣) المعاملة الإنسانية للأسرى

لقد سبق الإسلام معاهدة جنيف والمواثيق الدولية، إلى إرساء مبدأ معاملة الأسرى معاملة إنسانية، حتى لقد عد القرآن الكريم إكرام الأسرى من صفات الأبرار، وقرن الإحسان

---

(١) جزء من حديث رواه **مسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو، حديث رقم: ١٧٣١، ج٣، ص١٣٥٧.

(٢) رواه **أبو داود**، كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين، حديث رقم: ٢٦١٣، ج٣، ص٣٧.

إليهم بالإحسان إلى المسكين واليتيم، قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان: ٨)، وضرب النبي ﷺ والمسلمون أروع الأمثلة في إكرام الأسرى ومعاملتهم بإنسانية.

وقد حصر القرآن الكريم مصير الأسير بالمن أو بالفداء، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾(محمد: ٤)[1].

٤) إحترام الكرامة الإنسانية

إن أخلاق الإسلام لا تقتصر على معاملة الأحياء من المعادين معاملة إنسانية إذا وقعوا في الأسر، بل تمتد لتشمل من مات منهم يقاتل المسلمين بغياً وعدواناً، فالإسلام يُحرم التمثيل بالجثث في المعارك، حتى لو كان ذلك رداً على تمثيل الأعداء بجثث المسلمين، وكان رسول الله ﷺ يأمر بدفن القتلى في المعارك، دون أن يسأل أمسلم صاحبها أم كافر[2].

٥) تجنب التخريب والإفساد

إن من دأب البشر في الحروب أن يستبيحوا كل شيء، وأن يدمروا كل شيء، وعجيب هو الإسلام الذي ينهى أتباعه عن الإفساد حتى في الحرب، كما نهاهم عن الإفساد في السلم، فلا يجوز للمسلم في الحرب أن يقطع الشجر ويحرق الزرع ويهدم البيوت بهدف الفساد، ولا يجوز له أن يستعمل أسلحة الدمار الشامل، التي تحرق الأرض وما عليها من شجر وحيوان وإنسان.

ومما جاء في وصايا أبي بكر ﷺ لأمراء الفتح الإسلامي، قوله: (... وإنكم ستجدون أقواماً قد حبسوا أنفسهم في هذه الصوامع، فاتركوهم وما حبسوا له أنفسهم،...، ولا تقتلوا كبيراً هرماً ولا امرأة ولا وليداً، ولا تُخَرِّبُوا عمرَاناً، ولا تقطعوا شجرةً إلا لنَفعٍ، وَلا تَعقرُنَّ بهيمةً إلا لنَفعٍ، وَلا تَحرِقُنَّ نَخلاً ولا تُغرِقُنَّهُ،...)[3].

٦) إحترام العهود

---

(1) هذه آية محكمة، وأما استرقاق الأسرى، فإنه كان حلاً قديماً لمشكلة رعاية الأسير إلى أن تتيسر مبادلته، وأما قتل الأسير فالغريب أن أكثر الفقهاء المتقدمين قد أجازوه، وذلك مخالف للآية المذكورة، أنظر مناقشة مستفيضة لهذا الموضوع ورداً على من قال من الفقهاء بقتل الأسير، في: **الزحيلي:** د.وهبة، **آثار الحرب في الإسلام**، مرجع سابق، ص ٤١٦ وما بعدها.

(2) عن جابر أن النبي ﷺ قال: (ادفنوا القتلى في مصارعه)، رواه **النسائي**، كتاب الجنائز، أين يدفن الشهيد، حديث رقم: ٢٠٠٥، ج٤، ص٧٩، قال الألباني: **صحيح**.

(3) رواه **البيهقي**، كتاب السير، باب ترك قتل من لا قتال فيه، حديث رقم: ١٧٩٢٩، ج٩، ص٩٠.

أوجب الإسلام على المسلمين احترام معاهداتهم مع غيرهم، حتى وإن خالفوهم في الدين والتوحيد، وعد الوفاء بها من مقتضيات التقوى، قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة: ٤).

بل لقد عد الإسلام هذه العهود مع المشركين عهوداً مع الله تعالى، يقول سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾(النحل: ٩١)، يقول الدكتور الدريني: (هذا، وتمكيناً للاستقرار والأمن الدولي، والعدل الشامل، أرسى الإسلام مبدأ قدسية المعاهدات، بما منحها من القوة الإلزامية النابعة من أصل العقيدة، حيث اعتبرها مبرمة بين المسلمين وخالقهم أولاً، قبل أن تكون مواثيق سياسية بينهم وبين غيرهم من الدول)[1].

بل لقد قدم الإسلام الوفاء بالعهد على حق الأخوة الإسلامية وواجب النصرة في الدين، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾(الأنفال: ٧٢).

يقول الدكتور الدريني: (ولا نعلم ديناً أو تشريعاً، قد رفع من شأن العهد إلى هذا المستوى من القداسة،...، وأساس ذلك أن الإسلام لا يفصل بين الخُلُقِ والسياسة، لاستناده أساساً إلى عقيدة دينية، وهي - فيما نعتقد - مزية عظمى تفتقر إليها كل السياسات في العالم اليوم)[2].

شبهات الأعداء حول الجهاد في سبيل الله

ما من شيء عابه الأعداء على الإسلام وشوَّهُوا حقيقتَه مثل الجهاد في سبيل الله تعالى، فزعموا أن الإسلام دين عدواني يتعطش لسفك الدماء، وزعم آخرون أنه دين انتشر بحد السيف[3]، وآخر تلك المزاعم وصف الإسلام وأهله بالإرهاب.

وهذا يدل على أن الجهاد هو أكثر ما يقلقهم في الإسلام، لأنه هو الذي يقض مضاجع المستكبرين، ويضع الحد لأطماع المعتدين.

---

(1) **الدريني:** د.فتحي، **خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم**، الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ٧٩.

(2) **الدريني:** د.فتحي، **خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم**، مرجع سابق، ص ٣٦٦.

(3) أنظر مناقشة وافية لذلك في: **الزحيلي:** د. وهبة، **آثار الحرب في الإسلام**، مرجع سابق، ص ٣١ وما بعدها.

ويكفي أن نستعرض تاريخ الحروب بين الشرق والغرب، حتى نعرف من هو المعتدي الإرهابي الذي يتعطش لسفك الدماء، ويسعى إلى فرض نفسه بالقوة على الآخرين.

فلم يكن الجهاد يوماً لإكراه الناس على الدخول في الإسلام، بدليل وجود أقليات دينية من غير المسلمين اليوم، في كل بلد إسلامي تقريباً، لا يزالون يعيشون في تسامح وأمان وحرية، ولا يذكرون أنهم تعرضوا لاضطهاد أو ظلم يوماً بسبب دينهم.

وأما وسم الجهاد بالإرهاب، فهو أبعد ما يكون عن الحقيقة، فالبون شاسع بين الجهاد في سبيل الله تعالى وبين الإرهاب أهدافاً وأخلاقاً ووسائل، وقد عرضنا لشيء من مبادئ الجهاد وأهدافه السامية وأخلاقه الإنسانية الرفيعة، التي توصلت الحضارة الحديثة إلى تقرير بعضها في حالات الحرب، وكتبت ذلك على الورق في معاهدات دولية، بينما هي تمارس فعلياً على الأرض، إرهاب الشعوب الأخرى وظلمها والسيطرة عليها.

فالجهاد في الإسلام يهدف إلى رد العدوان والانتصاف للمظلومين والمستضعفين في الأرض، وهو دفاع الإنسان عن نفسه وأهله ووطنه، وقد أقرَّت كل النظم والشرائع حقَّ الشعوب في الدفاع عن نفسها وفي رد العدوان الواقع عليها حتى تنال استقلالها وتضمن الأمن لمواطنيها.

والجهاد في الإسلام يسعى إلى تحقيق أهدافه في رد العدوان والانتصاف للملظلومين باتباع وسائل لا تتعارض مع قيم الإسلام وأخلاقه الإنسانية السامية، تلك الأخلاق التي يرفض الإسلام خرقها بحال من الأحوال، ذلك أن الإسلام لا ينتصر على أعدائه بالحرب، بقدر ما ينتصر عليهم بأخلاقه التي تميز بها.

وأما الإرهاب، فيسلك وسائل عنف غير أخلاقية ولا إنسانية، تخيف الآمنين وتهدر حياة المسالمين، وتدمر المرافق العامة النافعة إفساداً في الأرض، بهدف تحقيق مطالب شخصية ومصالح ذاتية، أو حتى بهدف تحقيق بعض الأهداف السياسية.

إن وصف الإرهاب إن كان يجدر أن يطلق على شيء، فعلى همجية أعداء الأمة في هجمتهم العدوانية عليها، مسخرين في سبيل ذلك كل ما وصلوا إليه من تقدم عسكري وتقني، ومجربين أحدث الأسلحة الفتاكة في قتل الأبرياء والمدنيين بوحشية لم يسبق لها مثيل. إنه الإرهاب المنظم، وإرهاب الدول الاستعمارية هو ما يهدد البشرية اليوم في كل مكان.

أقرأ وأستمتع

صور من أخلاق المسلمين في الحروب

يقول الدكتور مصطفى السباعي: (إن الذي لا يؤمن بدين ولا بإله، لا يبدو عجيباً إذا نظر إلى الأديان كلها على حد سواء، وإذا عامل أتباعها بالقسطاس المستقيم، ولكن صاحب الدين الذي يؤمن بأن دينه حق وأن عقيدته أقوم العقائد وأصحها، ثم يتاح له أن يحمل السيف، ويفتح المدن، ويستولي على الحكم، ويجلس على منصة القضاء، ثم لا يحمله إيمانه بدينه، واعتزازه بعقيدته، على أن يجور في الحكم، أو ينحرف عن سنن العدالة، أو يحمل الناس على اتباع دينه.. إن رجلاً مثل هذا لعجيب أن يكون في التاريخ، فكيف إذا وجد في التاريخ حضارة قامت على الدين، وشادت قواعدها على مبادئه، ثم هي أشد ما عرف التاريخ تسامحاً وعدالة ورحمة وإنسانية!)[1].

يقول الدكتور مصطفى السباعي:

(ولما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز، وفد إليه قوم من أهل سمرقند، فرفعوا إليه أمر قتيبة قائد الجيش الإسلامي فيها، دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين غدراً بغير حق، فكتب عمر إلى عامله هناك أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين من سمرقند خرجوا، فنصب لهم الوالي "جميع بن حاضر الباجي"، قاضياً ينظر في شكواهم، فحكم القاضي وهو مسلم بإخراج المسلمين! على أن ينذرهم قائد الجيش الإسلامي قبل ذلك، وينابذهم وفقاً لمبادئ الحرب الإسلامية، حتى يكون أهل سمرقند على استعداد لقتال المسلمين فلا يؤخذوا بغتة، فلما رأى ذلك أهل سمرقند رأوا ما لا مثيل له في التاريخ، من عدالة تنفذها الدولة على جيشها وقائدها! قالوا: هذه أمة لا تحارب، وإنما حكمها رحمة ونعمة، فرضوا ببقاء الجيش الإسلامي، وأقروا أن يقيم المسلمون بين أظهرهم، أرأيتم.. جيش يفتح مدينة ويدخلها، فيشتكي المغلوبون للدولة المنتصرة، فيحكم قضاؤها على الجيش الظافر ويأمر بإخراجه، ولا يدخلها بعد ذلك إلا أن يرضى أهلها!.. أرأيتم في التاريخ القديم والحديث حرباً يتقيد أصحابها بمبادئ الأخلاق والحق كما تقيد به جيش حضارتنا؟! ... ولما فتحت جيوشنا الظافرة دمشق وحمص وبقية المدن السورية، وأخذوا من أهلها مبالغ من

([1]) **السباعي:** د. مصطفى، **من روائع حضارتنا**، مرجع سابق، ص ٣٧ - ٣٨.

المال صلحاً لقاء حمايتهم والدفاع عنهم، رأى قائدنا بعد أن جمع هرقل لهم الجموع لينازلهم في معركة فاصلة، أن يخلوا المدن المفتوحة ويتجمعوا في مكان واحد ينازلون به الروم مجتمعين، وخرج جيشنا من حمص ودمشق والمدن الأخرى، وجمع خالد أهل حمص وأبو عبيدة أهل دمشق وغيرهما من القادة أهل المدن الأخرى، وقالوا لهم: إنا كنا قد أخذنا منكم أموالاً على أن نحميكم وندافع عنكم، ونحن الآن خارجون عنكم لا نملك حمايتكم، فهذه أموالكم نردها إليكم! فقال أهل المدن: ردكم الله ونصركم، والله لحكمكم وعدلكم أحب إلينا من جور الروم وظلمهم، والله لو كانوا مكانكم لما دفعوا إلينا شيئاً أخذوه، بل كانوا يأخذون معهم كل شيء يستطيعون حمله! ... وفي حروب التتار في بلاد الشام، وقع بأيديهم كثير من أسرى المسلمين والنصارى واليهود، ثم تدخل شيخ الإسلام ابن تيمية مع أمير التتار في أمر الأسرى وفك أسرهم، فأجابه الأمير إلى فك أسرى المسلمين فقط دون النصارى واليهود، فأبى شيخ الإسلام ذلك وقال له: لا بد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا، ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة، ... حين وصل الصليبيون في الحملة الثانية إلى معرة النعمان، حاصروها حتى اضطر أهلها للاستسلام، بعد أن أخذوا من رؤساء الحملة عهوداً مؤكدة بالمحافظة على النفوس والأموال والأعراض، فما كادوا يدخلونها حتى ارتكبوا من الفظائع ما تشيب له الولدان، وقدر بعض المؤرخين الإفرنج الذين كانوا في هذه الحملة عدد الذين قتلوهم بين رجال ونساء وأطفال بمائة ألف! ثم تابعوا سيرهم إلى بيت المقدس، وشددوا الحصار على أهلها، ورأى أهلها أنهم مغلوبون لا محالة، فطلبوا من قائد الحملة (طنكرد) الأمان على أنفسهم وأموالهم، فأعطاهم رايته يرفعونها على المسجد الأقصى، ويلجأون إليه آمنين على كل شيء، ودخلوا المدينة بعد ذلك فيا لَهول المجزرة، ويا لقسوة الإجرام! لجأ سكان القدس إلى الأقصى الذي رفعوا فوقه راية الأمان، حتى إذا امتلأ بمن فيه من شيوخ وأطفال ونساء، ذُبحوا ذبح النعاج،...، ويذكر مؤرخونا أن عدد الذين ذُبحوا في داخل المسجد الأقصى فقط سبعون ألفاً! ... وبعد ٩٠ سنة من هذه المجزرة، فتح صلاح الدين بيت المقدس فماذا فعل؟.. لقد كان فيها ما يزيد على مائة ألف غربي، بذل لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وسمح لهم بالخروج لقاء مبلغ قليل يدفعه المقتدرون منهم، وأعطاهم مهلة للخروج أربعين يوماً، فجلى منها أربعة وثمانون ألفاً لحقوا بإخوانهم في عكا وغيرها، ثم أطلق كثيراً من الفقراء من غير الفدية، وأدى أخوه الملك العادل الفدية عن ألفي رجل منهم، وعامل النساء معاملة لا تصدر عن أرقى ملك منتصر في العصر الحديث، ولما أراد البطريرك الإفرنجي أن يخرج، سمح له بالخروج ومعه من أموال البِيَعِ والصخرة والأقصى

والقيامة ما لا يعلمه إلا الله، واقترح بعض حاشية صلاح الدين عليه أن يأخذ ذلك المال العظيم، فأجابه السلطان: "**لا أغدر بهم**"، ولم يأخذ منه إلا ما كان يأخذه من كل فرد، ومما يزيد في روعة هذا العمل الإنساني الذي عمله صلاح الدين في فتح بيت المقدس، أنه أرسل مع جماهير الغربيين الذين نزحوا من القدس لينضموا إلى إخوانهم، من يحميهم ويوصلهم إلى أماكن الصليبيين في صور وصيدا بأمان، مع أنه لا يزال في حرب معهم،...،

واسمعوا بقية القصة.. اجتمع كثير من النساء اللواتي دفعن الجزية وذهبن إلى السلطان يتوسلن إليه قائلات: إنهن إما زوجات أو أمهات أو بنات لبعض من أُسِرَ أو قُتِلَ من الفرسان والجنود، ولا عائل لهن ولا مأوى، ورآهن يبكين فبكى معهن تأثراً وشفقة، وأمر بالبحث عن الأسرى من رجالهن، وأطلق الذي وجدهم وردهم إلى نسائهم، أما اللواتي مات أولياؤهن فقد منحهن مالاً كثيراً، جعلهن يلهجن بالثناء عليه أينما سرن، ثم سمح لهؤلاء الذين أعتقهم أن يتوجهوا مع نسائهم وأولادهم إلى سائر إخوانهم اللاجئين في صور وعكا،...،

والغربيون أنفسهم هم الذين يذكرون عن صلاح الدين أنه بلغه مرض ريتشارد قلب الأسد، أكبر قواد الحملات الصليبية وأشجعهم، فأرسل إليه صلاح الدين طبيبه الخاص، يحمل إليه العلاج والفواكه، التي لا يمكن أن يحصل عليها ذلك القائد الصليبي، هذا والحرب بينهما مستعرة، وجيشاهما في صراع)[1].

([1]) **السباعي:** د. مصطفى، **من روائع حضارتنا**، مرجع سابق، ص ٧٣ وما بعدها.

الوحدة الخامسة

تحديات معاصرة
تواجه الثقافة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾

(العنكبوت:٢)

صدق الله العظيم

محتويات الوحدة وأهدافها
وتتمثل بالآتي:

١. **تحديات داخلية: إغفال سنن النهوض والتقدم، العيش في مشكلات الماضي، الاستجابة لعوامل الفرقة، التأثر بسلوكيات الغرب، الفئة الخارجة عن ثقافة الأمة.**

الهدف: أن يتجنب الطلبة هذه التحديات السلبية في فكرهم وسلوكهم.

٢. **تحديات خارجية: المواجهة العسكرية والفكرية والفلسفة الرأسمالية والفلسفات الإلحادية والعبثية، والعلمانية والاستشراق والعولمة.**

الهدف: أن يتثقف الطلبة بثقافة الإسلام، ليواجهوا هذه التحديات.

تحديات داخلية
تواجه الثقافة الإسلامية

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:١١).

واجهت الثقافة الإسلامية منذ أيام الإسلام الأولى، تحديات كبيرة لفكرتها ووجودها، ولا تزال تتعرض لمثل هذه التحديات، وذلك يتطلب أن نتمسك بثقافتنا وهويتنا، وأن نكون على قدر هذه التحديات ونواجهها بكفاءة واقتدار.

ويمكن الحديث عن نوعين من التحديات من حيث المصدر، تواجههما الثقافة الإسلامية: تحديات داخلية، وتحديات خارجية.

ونعرض هنا للنوع الأول من هذه التحديات، وهي التحديات الداخلية، ثم نعرض في درس تال للنوع الثاني منها.

وتتمثل التحديات الداخلية للثقافة الإسلامية، فيما يواجه هذه الثقافة من داخل المجتمعات الإسلامية، ولن تنهض الأمة من جديد، ما لم تواجه هذه التحديات، وتعمل على إحداث تغيير داخلي حقيقي.

ونعرض لبعض أهم هذه التحديات من وجهة نظرنا، على النحو الآتي:

إغفال سنن النهوض والتقدم

يسود بين المسلمين ومنذ أن بدؤوا يتأخرون عن ركب الحضارة، نمط من السلبية، والانتظار، والعجز، والتواكل، والقعود عن العمل وفق سنن الله تعالى في تغيير المجتمعات، والأخذ بأسباب التقدم والتطور المادي والحضاري في شتى مجالات الحياة، وحتى عندما يندفع بعض المسلمين إلى العمل على النهوض بالأمة واستعادتها ريادتها بين الأمم، يأتي عمل هؤلاء على نحو من الارتجال والبعد عن التخطيط العلمي والسلوك المنهجي، وسرعان ما يخفقون أو ينهزمون أمام الأعداء، الذين يحسنون بدورهم التخطيط وحساب الأسباب والمسببات.

والخطورة تكمن في العقلية التبريرية التي لا تعدم المسوِّغات الكثيرة لهذا العجز واليأس ولهذه السلبية المقيتة:

- فهناك دائماً الأعداء الذين قد نعلّقُ على شماعتهم و(تآمرهم)، كل إخفاق أو تخلف أو تأخر أو ضعف، وخاصة مع ما يتمتع به الأعداء من تقدم وقوة مادية هائلة ومكر ودهاء.

- وهناك من يزعم أن الله تعالى سينصر هذه الأمة وسيمكر بأعدائها، حتى لو بقيت على حالها ولم تأخذ بأسباب النصر والتقدم، وينتظر فرجاً لله تعالى مرتقباً ووشيكاً، هكذا، ودون أن يقوم هو بأي شيء للنهوض بنفسه وبالأمة.

- وهناك من ينتظر أو يبشر بسقوط دول البغي والعدوان، وبانهيار وشيك لمجتمعات الأعداء، بسبب انتشار الرذيلة والأمراض والجرائم فيها، وكأنه إذا سقطت هذه الدول والمجتمعات بهذه السذاجة التي يُنظر بها إليها، أنه لن تقوم مقامها دول أخرى كافرة ومعادية، وأنه سترثها الأمة الإسلامية حتماً، حتى لو بقيت على حالها في السلبية والانتظار.

- وهناك من ينتظر معجزة لحل مشاكل المسلمين، يأتي بها المهدي أو ينزل بها المسيح عليه السلام.

إن القانون الإلهي الحتمي في التغيير، لا يمكن أن يتغير أو يحابي أحداً، مسلماً كان أم غير مسلم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١).

العيش في مشكلات الماضي

بين المسلمين اليوم، بعض الناس الذين يدأبون على إعادة طرح وإحياء قضايا ومشاكل الماضي وإشكالياته، التي كانت عواملَ فُرقَةٍ شغلت المسلمين في فترات انحطاط وفتن، وفَرَّقَت كلمتهم، وذلك مثل: الخوض في قضايا تاريخية، واحتدام النقاش والانقسام فيمن كان مصيباً ومن كان مخطئاً، في الفتن التي عصفت بالمسلمين في بعض المراحل التاريخية.

ومثل إعادة طرح مسائل فرعية وغير ذات أهمية، يزعمون أنها تتعلق بالعقيدة الإسلامية، وهي قضايا كانت تُثار بين المسلمين في بعض العصور.

ويقوم الذين يثيرون هذه القضايا اليوم، ببث الحياة في عوامل الفرقة تلك، وبتصنيف المسلمين اليوم على أساس تصنيفات وخلافات تتعلق بتلك القضايا، مما يؤدي إلى تفرقة كلمة المسلمين اليوم كما فرقتها بالأمس.

كما أن هؤلاء يشغلون المسلمين اليوم بمشاكل عفا عليها الزمن، عن مواجهة مشاكلهم المعاصرة والملحة، كالتأخر والتبعية والاستعمار.

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(البقرة: ١٣٤).

الاستجابة لعوامل الفرقة

يوجد في المسلمين اليوم قوميات مختلفة، وحركات شتى، وفرق متعددة، وحتى في داخل كل حركة أو فرقة هناك اجتهادات مختلفة وتوجهات متنوعة.

والمشكلة هي في طريقة تعامل بعض المسلمين مع هذه التنوعات، بما يفضي إلى النزاع والصراع، ابتداء من الشتم والتجريح والاتهام بأقسى الألفاظ وأعنفها، بالتجهيل والتفسيق والتضليل والخروج على الثوابت والقطعيات...، وانتهاء بالصراع العنيف والتفكك والانقسام، لنكون بذلك أكبر عون لأعدائنا الذين يسعون إلى محاربتنا من داخلنا، وتفريقنا وتقسيمنا.

إن علينا أن ندرك أن الاختلاف والتنوع العرقي والفكري والاجتهادي والمذهبي بيننا، هي أمور طبيعية، وسنة الله تعالى في خلقه أن لا يكونوا على شاكلة واحدة، والله تعالى يحكم بين الناس يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

ومظلة الإسلام واسعة، تسع جميع المسلمين بشتى طوائفهم وأعراقهم واجتهاداتهم، ولا يجوز لأحد أن يدعي احتكاره للإسلام وإخراج الآخرين منه، أو أن يزعم أن فهمه للإسلام هو الفهم الصحيح دون غيره.

كما علينا أن ندرك أننا كلنا مستهدفون من أعدائنا بشتى فرقنا وحركاتنا وطوائفنا وأعراقنا، وأن أهم أهداف العدو هو أن يذكي الاختلافات والصراعات والنزاعات بيننا، على أساس قاعدته المعروفة: (فرّق تَسُد).

التأثر بسلوكيات الغرب وحضارته المادية

تنتشر بين المسلمين اليوم - وخاصة فئة الشباب منهم - حمى التقليد الأعمى للثقافة الغربية بقيمها وماديتها، ومن ذلك: تقليد كثير من أبناء المسلمين وشبابهم لأسلوب الحضارة الغربية والإنسان الغربي، في طريقة السلوك واللباس والزي والأكل، مبتعدين في ذلك عن هدي الإسلام في تميز المسلم عن غيره.

كما تسود اليوم نزعة استهلاكية نهمة في العديد من المجتمعات الإسلامية، لكل ما تنتجه الحضارة الغربية من وسائل ترفيه وكماليات لا داعي لها، مبتعدين في ذلك عن هدي

الإسلام في الاعتدال في الإنفاق، وتشجيع العمل والإنتاج، والاعتماد على الذات والموارد الحقيقية للأمة.

وجود فئة منسلخة من ثقافة الأمة وهويتها

ابتلي المسلمون بفئة من بينهم، قد انسلخت من ثقافتها وهوية أمتها، ورهنت نفسها بثقافة الأعداء، وصارت تفكر بعقلية غريبة عن قيم الأمة وثوابتها، وهؤلاء هم أداة الاستعمار ورأس حربته الموجهة إلى قلب الأمة، يتكلمون بلسان أعدائنا ويسعون إلى تحقيق أهدافهم، ويروجون لتقليد الأعداء بحضارتهم وثقافتهم وأفكارهم، ويحاربون قوى المقاومة والممانعة في الأمة، ويروجون للتطبيع والاستسلام الكامل للأعداء، كي نتقدم ونتحضر كما يزعمون.

يجب علينا أن نحذر من هؤلاء، ومن التأثر بخطابهم، خاصة وأنهم يُظهرون النصح للأمة ويبطنون العداء لها ولهويتها وللإسلام وثوابته، وهم يلقون كل الدعم والتأييد السياسي والمالي من الاستعمار وأعداء الأمة.

تحديات خارجية
تواجه الثقافة الإسلامية

﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ ﴾ (النساء:٨٩).

تتمثل هذه التحديات في ما يواجه الثقافة الإسلامية من أعدائها، وذلك سنة من سنن الله تعالى التي لا تتبدل، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ ﴾ (البقرة:٢١٧)، وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾(الصف:٨).

ونعرض هنا لصور التحديات الخارجية التي تواجه الثقافة الإسلامية.

كما نعرض بعد ذلك لأهم التحديات الخارجية المعاصرة، مثل العلمانية، والحرب على الإرهاب، والعولمة.

وسنفرد موضوع العولمة بعنوان مستقل لأهميته.

صور التحديات الخارجية التي تواجهها الثقافة الإسلامية

تتخذ مواجهة الأعداء لثقافتنا الإسلامية صورتين:

الصورة الأولى: المواجهة العسكرية

لقد واجه الأعداءُ الإسلامَ بالقوة منذ أيامه الأولى، فواجهت قريشٌ والعربُ المسلمين الأوائل بالتعذيب والتقتيل والحروب المتكررة، ودخلت الإمبراطوريتان الرومانية والفارسية في مواجهات عسكرية كبيرة مع المسلمين، ولكن الله تعالى يأبى إلا أن يتم نوره، فانتهى ذلك كله بانتصار الإسلام الساحق وبالفتوح الإسلامية الكبيرة.

ثم عاد أعداء الأمة ليواجهوها مواجهات شتى، كما في حروب الفرنجة التي أطلقوا عليها مصطلح الحروب الصليبية، وفي حملات التتار من الشرق، وفي الحركة الاستعمارية الغربية الحديثة التي اقتسمت العالم الإسلامي وقسمته في القرن التاسع عشر والعشرين الميلاديين،

ثم اندحرت هذه الحملات عن العالم الإسلامي بفضل الله تعالى، ثم بمقاومة المسلمين وجهادهم، وإن كانت قد بقيت في بقعة الصراع الرئيسة وهي فلسطين.

وها هم اليوم يعودون ليواجهوا الأمة في حروب همجية، فيما يسمى بالحرب على الإرهاب، أعقبها احتلال جديد لبعض بلاد المسلمين.

الصورة الثانية: المواجهة الفكرية

لم تقتصر مواجهة الأعداء للأمة على المواجهة العسكرية، بل هناك صورة أخرى، ألا وهي المواجهة الفكرية، أي مهاجمة الأفكار والقيم والمعتقدات والثوابت التي تقوم عليها الثقافة الإسلامية، بهدف إضعاف أثرها في نفوس المسلمين، وإفقادهم تميزهم واعتزازهم بذاتهم الحضارية، مقدمة لاستعمارهم وإدامة تبعيتهم والسيطرة على ثرواتهم.

وهذا النوع من المواجهة قديمٌ قِدَمَ الإسلامِ أيضاً، فقد رمت قريشٌ الإسلامَ بأقسى التهم الباطلة لتصرف الناس عنه، فاتهمت الإسلام بأنه يفرق بين الابن وأبيه والأخ وأخيه، واتهمت النبي ﷺ بأنه شاعر وكاهن وساحر، وكال اليهود التهم الكثيرة للإسلام وأهله.

ورافقت حروبَ الفرنجة في القرن الحادي عشر الميلادي، حركة استشراق موجهة، رسمت صورة مظلمة عن الإسلام وأهله، أسهمت في تحريض المسيحيين الغربيين على غزو بلاد المسلمين، وهدفت إلى إضعاف ثقة المسلمين بدينهم وثقافتهم وحضارتهم.

وفي القرن التاسع عشر غزا الغربيون المسلمينَ غزواً فكرياً واكب حركتهم الاستعمارية آنذاك، وتمثل ذلك في أمور منها: نشر الإلحاد والفساد الأخلاقي والعلمانية والتبشير.

واليوم تتمثل المواجهة الفكرية بشكل جديد للاستعمار على كافة الصعد فيما يعرف بالعولمة، وهناك هجوم فكري جديد على الإسلام وأهله لتسويغ الحرب الجديدة والاستعمار الجديد، وذلك باتهام الإسلام والمسلمين بالإرهاب، ومحاربة فكرة الجهاد لديهم.

أفكرُ: الغزو الفكري والثقافي أشد خطراً وأبعد أثراً من الغزو العسكري، لماذا؟

الفلسفات الإلحادية

انتشرت في العصر الحديث فلسفات مختلفة تقوم على الإلحاد ومحاربة الدين، وغزت هذه الأفكار بلاد المسلمين وعقول أبنائهم فترة من الزمن، ثم انحسرت عنهم.

ومن هذه الفلسفات الماركسية، وهي: مذهب فلسفي أنشأه كارل ماركس منتصف القرن التاسع عشر، ويقوم على أسس من أهمها: الإلحاد والمادية، وأفكار اشتراكية، مثل: الصراع الطبقي، وانتصار الطبقة العاملة، وإلغاء الملكية الفردية.

وقد أسس أتباع الماركسية دولة اشتراكية قوية كانت تعرف باسم الاتحاد السوفييتي، ما لبثت أن ضعفت وانهارت وانقسمت في نهاية الثمانينات من القرن الماضي، وانتهت معها فلسفتها.

وكان أخطر ما في هذه الفلسفة شعارها الإلحادي: **(الدين أفيون الشعوب)**، بمعنى أنه المخدر للطبقات الكادحة للرضى بالأمر الواقع، وعدم قيام أية ثورة ضدّ الرأسماليين في المجتمع، ومنشأ هذا الشعار والفكرة ممارسات رجال الدين الخطأ في أوروبا في بداية الثورة الرأسمالية، حيث استغلهم رجال الإقطاع والرأسماليون لإسكات الطبقات المظلومة في المجتمع، فكانوا يطلبون من هذه الطبقات الصبر على الظلم وانتظار الجزاء الأخروي عند الله تعالى، مما دعا رجال الإصلاح في الغرب لأن يثوروا على رجال الدين بطرق مختلفة، يجمعها إعلان الإلحاد بكل الأديان[1].

وإنه مما لا شك فيه أن وقوف رجال الدين في أوروبا إلى جانب الإقطاع والرأسماليين، هو أمر لا يقره أي عاقل، إلا أن استغلال ذلك لضرب الأديان كلها، هو أمر مرفوض وغير مبرر، والإسلام لم يكن في يوم من الأيام مخدراً للشعوب ولا ناصراً للظلمة، ولا كان في يوم من الأيام دين خمول وكسل واستسلام، بل هو دين الجهاد والتحرر الكامل من كل ألوان الظلم والاستعباد والاستبداد، ولنتأمل واحداً من أحاديث النبي ﷺ التي تُبين مدى الروح الجهادية التي يبثها الإسلام في أتباعه، في رفض كل عدوان وظلم واستكبار، جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: **(يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟ قَالَ: فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ: قَاتِلْهُ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: فَأَنْتَ شَهِيدٌ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: هُوَ فِي النَّارِ)**[2].

([1]) أنظر: **محمد:** د. علي عبد المعطي، **أعلام الفلسفة الحديثة**، دار المعرفة، القاهرة، ط ١٩٩٧م، ٣١/٢.

([2]) رواه **مسلم**، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم في حقه وإن قتل كان في النار وأن من قتل دون ماله فهو شهيد، حديث رقم: ١٤٠، ج١، ص ١٢٤.

الفلسفة الرأسمالية

قامت الحضارة الغربية الحديثة على أساس فلسفة جديدة، هي الفلسفة الرأسمالية، وتتصف هذه الفلسفة بصفات، من أهمها:

١- النظرة المادية

يقدم الغرب رؤية مادية للإنسان والحياة، تقدس المال والإنتاج، وترى الهدف الأسمى في الحياة هو تحقيق الإنسان لمتعه ورغباته وشهواته، مع إقصاء شامل لكل الأخلاق والقيم والمعايير والمعاني الدينية والإنسانية.

٢- النزعة الاستعمارية

يرى الغرب أن الإنسان الغربي أرقى أنواع الإنسان، وأن ثقافته أفضل الثقافات، وحضارته هي نهاية التاريخ، وغاية ما انتهى إليه التطور البشري، وأقصى ما وصل أو يمكن أن يصل إليه الإنسان.

وقد مهدت هذه الرؤية الاستعلائية لاستعمار الآخرين، فإذا كانت الحضارة الغربية هي الحضارة الأفضل والأرقى كما يقولون - فإنه ينتج عن ذلك أن لها وحدها حق قيادة المجتمعات البشرية الأخرى والسيطرة عليها ولو بالقوة، وليس للآخرين ثقافاتهم وهويتهم واستقلالهم، وإنما على الآخرين دائماً أن يكونوا تبعاً وخدماً لهذه الحضارة، وأن تكون ثرواتهم في خدمة إنسانها وتحقيق رغباته، وبلادهم أسواقاً استهلاكية لمنتجاته[١].

والإسلام يرفض هذه الفلسفة وما ينتج عنها من آثار مدمرة على الإنسان، ويرفض النظرة المادية البحتة للحياة، ويعلي من شأن الأخلاق والقيم والروح، وينظر إلى البشر كلهم نظرة أخوة وتكريم على اختلاف أجناسهم وأعراقهم وألوانهم وأديانهم، ويرفض الاستعمار وتسلط الإنسان على أخيه الإنسان وظلمه له، ويدعو إلى مقاومة كل قوى البغي والاستكبار والعدوان.

العلمانية

لفظة العلمانية هي ترجمة عربية للكلمة الانجليزية (Secularism)، والكلمة في أصولها اللغوية الغربية تعني النسبة إلى (الدنيا)، وذلك في مقابل النسبة إلى (الكنيسة) و(الدين)

---

(١) أنظر تحليلاً ورصداً شاملاً وعميقاً وفريداً لمادية الغرب واستعماريته، في الدراسة المتميزة: **المسيري**: د.عبد الوهاب: **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة**، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

و(الآخرة)، وبالتالي فهي مرادفة للكلمة الانجليزية (irreligious) أي اللاديني، ومن ثم فإن الترجمة الدقيقة للفظة (Secularism)، هي (اللادينية)، أي إقامة الحياة على أسس مادية، بعيداً عن الدين والأخلاق والقيم[1]. فمصطلح العلمانية، ليس نسبة إلى العِلم.

وقد شاعت اللفظة العربية في العالم العربي بكسر العين (العِلمانية)، بما أوحى بنسبتها إلى العِلم، ربما لتسهيل قبول هذا المصطلح في العالم الإسلامي، من خلال الإيحاء بانبثاقه عن العلم وعدم معارضته للدين، وكان الأولى أن يُتَرجم إلى كلمة عربية أخرى، مثل (اللادينية) أو (المادية)، منعاً لهذا الالتباس.

ظهور العلمانية

لم تجد العلمانية صعوبة في شق طريقها في المجتمعات الغربية، حيث استقبلتها هذه المجتمعات بالقَبول، وذلك يعود إلى سببين رئيسين، وهما:

١) تسلُّط الكنيسة ورجالها:

حيث تسلَّط رجال الكنيسة في الغرب في القرون الوسطى على المجتمعات الأوروبية، واضطهدوا العلماء ودعاة النهضة والإصلاح، وكبتوا الحريات، وحجروا على العقول، وتحالفوا مع رجال الإقطاع والأمراء ضد الشعوب، بل لقد تعدوا على سلطة الله تعالى واحتكروا غفران الذنوب.

ومن هنا وقع ذلك الصراع المرير ما بين رجال النهضة والإصلاح من جهة، ورجال الدين والإقطاع من جهة أخرى، وانتهت المعركة بهزيمة رجال الدين والإقطاع. وهكذا حبست المجتمعات الأوروبية الدين داخل جدران الكنيسة، وفرضت على الكنيسة عدم التدخل في الحياة العامة.

٢) خلو النصرانية من التشريعات الدنيوية التفصيلية:

إن النصرانية ديانة روحية، جاءت لتصحح الانحراف الذي أحدثه اليهود عندما أغرقوا في الماديات، وليس في النصرانية تشريعات تنظم جوانب الحياة المختلفة من سياسة واقتصاد

---

(1) أنظر دراسة علمية شاملة وغير مسبوقة لمصطلح العلمانية في: **المسيري**: د.عبد الوهاب: **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة**، مرجع سابق، ٥٣/١ وما بعدها.

وغيرها، وهو ما أحدث فراغاً تشريعياً، أفسح المجال لرجال الإصلاح أن يملؤوه بوضع التشريعات للحياة العامة وفق عقولهم وتجاربهم ورؤيتهم المادية، بعيداً عن الدين[1].

استيراد فكرة العلمانية من الغرب

العلمانية واحدة من أخطر الأفكار التي اجتاحت العالم الإسلامي، وأثرت في عقول كثيرين، حتى قامت نظمٌ علمانية حاكمة، تحتكم لقوانين الآخرين ونظمهم وتتبع رؤيتهم المادية، وتستبعد أحكام الإسلام وتشريعاته.

واستيراد فكرة العلمانية إلى المجتمعات الإسلامية، كان خطأ فادحاً، لاختلاف البيئة والظروف التي نشأت في ظلها في الغرب في العصور الوسطى، عن ظروف العالم الإسلامي وعن طبيعة الإسلام والمجتمعات الإسلامية، ومن ذلك:

أولاً: أن الإسلام لم يعادِ العلم يوماً، ولا يوجد مذهب أو دين يدعو إلى العلم ويشجعه مثل ما فعل الإسلام، ولا يوجد في الإسلام طبقة دينية تتمتع بسلطة وامتيازات دينية على الناس، تحتكر فهم الدين وغفران الذنوب ومحاكمة التفكير الحر.

ثانياً: أن الإسلام فيه تشريعات تشمل جميع نواحي الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والروحية، وله رؤيته المتميزة للكون والإنسان والحياة، وهي رؤية تقوم على أساس المرجعية الدينية والأخلاقية المتجاوزة لحدود المادة.

فالعلمانية تتناقض مع الإسلام، إذ الإسلام منهج حياة شامل، فهو عقيدة وشريعة، دين ودولة، آخرة ودنيا، ولا يجوز الاكتفاء بجانب الطقوس الشعائرية فيه وترك تشريعاته ورؤيته في جوانب الحياة المختلفة، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤)[2].

الاستشراق

الاستشراق هو: حركة غربية نشأت في العصور الوسطى، لدراسة الأوضاع الفكرية والنفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية لأهل الشرق[3].

---

(1) **الحوالي**: د. سفر بن عبد الرحمن، **العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة**، الدار السلفية، السعودية، ط ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٧م، ص ١٢١ وما بعدها، **القرضاوي**: د. يوسف، **التطرف العلماني في مواجهة الإسلام**، أندلسية للنشر والتوزيع، المنصورة، ط١، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠م، ص ١٩ - ٢٦.

(2) **القرضاوي**: د. يوسف، **التطرف العلماني في مواجهة الإسلام**، مرجع سابق، ص ٢٧ وما بعدها.

(3) أنظر: **سعيد**: إدوارد: **الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء**، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط٤، ١٩٩٥م، ص ٦٣ وما بعدها.

ويهدف المستشرقون إلى تحقيق ثلاثة أهداف رئيسة من الاستشراق، هي:

١) خدمة الاستعمار

من أهم أهداف الاستشراق وأسباب نشأته، تمكين القوى الاستعمارية من السيطرة على المسلمين وبلادهم وثرواتهم، حيث كان الاستشراق ولا يزال، يقدم للدول الاستعمارية معلومات ودراسات ومعارف عن المسلمين واستراتيجيات التعامل معهم وكيفية السيطرة عليهم.

٢) إشعار المسلمين بالدونية

يسعى المستشرقون إلى إشعار المسلمين بالدونية، والانبهار بالغرب ومعارفه وتقدمه وعلومه، مقدمة لجعل المسلمين تابعين للغرب مستسلمين لسياساته خاضعين لمخططاته، ومن الأفكار التي حاول الاستشراق تكريسها في هذا الصدد:

إيهام المسلمين أن العربي متخلف بطبعه، أو أن العربي ينزع بطبعه إلى التفكير العاطفي بخلاف الغربي الذي ينزع إلى التفكير العلمي والعقلاني، أو أن العربي يميل بطبعه إلى التفكير الفوضوي بخلاف الغربي الذي يميل إلى التفكير المنظم، أو أن العربي يميل بطبعه إلى الاعتقاد بالغيبيات غير المعقولة، والغربي يميل إلى التفكير الواقعي، وهكذا...، وأوهموا المسلمين بوجود هذه الصفات فيهم، وأنها صفات أشبه بالصفات الوراثية خلقت وتخلق معهم ولا يمكن التخلص منها، ولا سبيل للمسلمين والحالة هذه، إلا أن يقلدوا الغرب في قوانينهم وأعرافهم وتصوراتهم من أجل أن يحظوا بالرقي والتقدم.

٣) التشكيك بالإسلام وهوية الأمة

يسعى المستشرقون إلى تشكيك المسلمين بمعتقداتهم وتاريخهم وقيمهم، لإبعادهم عنها وإضعاف أثرها في نفوسهم، ومن مظاهر ذلك:

- تشويه الإسلام بإظهاره ديناً غير صالح للتطبيق في هذا العصر، وأنه إنما انتشر بالسيف والإكراه، أو أنه ثورة طبقية من الفقراء على الأغنياء، أو أنه دين الإرهاب.

- تشويه صورة النبي الكريم ﷺ بإظهاره رجلاً شهوانياً مزواجاً، أو أنه إنما اخترع الإسلام لأطماع دنيوية في الرئاسة والسلطة.

- التشكيك بالقرآن الكريم، بادعاء أنه من تأليف النبي ﷺ، أو بادعاء أنه أخذه عن أهل الكتاب، والطعن في أحكامه وتشريعاته وصلاحيته للتطبيق.

- تشويه التاريخ الإسلامي، وتصويره على أنه تاريخ فتن وقتل وصراعات داخلية وتنازع على السلطة، وسيطرة على الشعوب الأخرى.

- مهاجمة اللغة العربية الفصيحة، بالدعوة إلى كتابتها بحروف لاتينية، أو الدعوة إلى استبدالها بالعامية، بزعم أن الفصيحة لغة صعبة وقديمة لا تواكب التطورات العلمية والاجتماعية المعاصرة.

وهي تشكيكات لا تقوم على أساس علمي، وليست ناتجة عن دراسات موضوعية نزيهة، وإنما هي نتائج مرسومة سلفاً، دافعها الحقد والانحياز وخدمة الأهداف الاستعمارية[1].

الاستشراق الآن

إن الصورة البدائية للاستشراق لم تعد هي السائدة الآن، فلا يقوم المستشرق اليوم بحزم أمتعته وكتبه وأقلامه وأوراقه في رحلة تستمر شهورا أو سنوات، يعيش فيها بين العرب والمسلمين، ويدون ملحوظاته لينشرها في مؤلفاته.

لقد انتهى الاستشراق بصورته التقليدية، وتحول إلى مؤسسات ضخمة ذات إمكانيات كبيرة، تملك الوسائل الضخمة والتمويل الهائل، وتتخصص في دراسة ومراقبة تطور المجتمعات الإسلامية ورصد التغيرات الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية فيها، وتحديد الطريقة المناسبة للتعامل معها، وتتمثل هذه المؤسسات في مراكز استطلاع الرأي، ودوائر الأبحاث المتخصصة بدراسات الشرق الأوسط في الجامعات، والمؤسسات الاستراتيجية المستقلة أو التابعة لمراكز اتخاذ القرار في الغرب، كما أصبح العاملون في مؤسسات الاستشراق الحديثة أكثر تخصصا ودقة في دراستنا ودراسة تفكيرنا وتراثنا ومعارفنا وحياتنا[2].

<u>أتَنَبّهُ:</u> تُموّلُ بعض الدول المتقدمة اليومَ مشاريع كثيرة في بلاد المسلمين، وأحياناً تحت مسميات مثل: البحث العلمي، أو نشر الديمقراطية، أو النهوض بمكانة المرأة، أو الرقي بالمستوى الصحي أو التعليمي، ونحو ذلك. ولا شك أن بعض هذه المشاريع مشبوه، وذو طابع استشراقي استخباراتي، يُزودُ الجهات الممولة بمعلوماتٍ دقيقةٍ عن مجتمعاتنا، لا تتعلق بالغرض المُعلن للمشروع، وللأسف فقد يتم استقطاب نُخَبٍ عربية مثقفةٍ أو متخصصة في مجالات معينة للقيام بهذه المشاريع، من خلال الإغراءات المادية التي تقدم لهم، دون أن يتنبهوا للغرض الحقيقي منها.

---

(1) أنظر في شبهات المستشرقين على الإسلام والرد عليها في: **المطعني:** د. عبد العظيم إبراهيم، **إفتراءات المستشرقين على الإسلام عرض ونقد**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، **قطب:** محمد، **المستشرقون والإسلام**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩م.

(2) **سعيد:** إدوارد: **الاستشراق**، مرجع سابق، ص ٢١١ وما بعدها.

وصف المخالف بالإرهاب كمقدمة لشيطنته وشن الحرب عليه

يعمد أعداء الأمة الإسلامية إلى استخدام سلاح خبيث؛ وهو: شيطنة المخالف لهم ووصفه بالإرهاب، ثم استخدام ذلك كذريعة لاستخدام القوة ضده.

وقد ازداد هذا النوع الحرب بين المسلمين والدول الاستعمارية بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، مما أنتج المجاهرة بمعاداة الإسلام تمهيدا لعودة الاستعمار بشكله السافر إلى بلاد المسلمين.

والملحوظ عبر التاريخ، أن الاستعمار كان دائماً يُسَوِّغُ حروبَه واعتداءاته بمُسَوِّغَاتٍ (منطقية أو أخلاقية أو حتى دينية) لا تكون هي الدافع الحقيقي لهذه الحروب. فالذين شنوا حروب الفرنجة، زعموا أنها حروب دينية لتحرير المقدسات المسيحية ولإنقاظ المسيحيين في الشرق. وكانت مسوغات الاستعمار في القرن التاسع عشر أخلاقيةً بهدف إنقاذ شعوب الشرق من التخلف ومن استبداد الدولة العثمانية. بل إن مصطلح (الاستعمار) نفسه، مصطلح مضلل، يحمل تبريراً أخلاقياً، وكأن المستكبرين قد جاءوا إلى بلاد خراب لهدف نبيل وهو عمارتها ومساعدة أهلها. وذلك ادعاءٌ كاذب من كل وجه.

وكما ذكرنا فإن آخر هذه المسوغات لهجمة الدول الاستعمارية الحديثة على المسلمين هو ما بات يسمى بمحاربة الإرهاب. وهو مسوغ حاضرٌ عند كل حرب أو هجمة يقوم بها الاستعمار في بلاد المسلمين. فقد رسمت الدول الاستعمارية صورة قاتمة عن الإسلام والمسلمين، وهي صورة إرهابيين متخلفين، يسعون إلى تدمير الحضارة الإنسانية بأساليب همجية. وبالتالي فالحروب الجديدة على المسلمين، هي حروب لخدمة الإنسانية وللمحافظة على تقدمها وعلى مُنجزاتها كما يزعمون.

ولتحديد الموقف الفكري الصحيح من دعوى الحرب على الإرهاب، ينبغي التأكيد على الآتي:

١) ينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا ووعينا، **أن مقاومة المعتدين والدفاع عن مصالح الأمة، هو حق** للشعوب المستضعفة، تشرعه وتكفله كافة الأديان والشرائع والفلسفات والمواثيق الدولية والقوانين الوضعية.

٢) يجب أن **نرفض، وبكل وضوح وجرأة، ممارسات بعض المسلمين التي لا تنسجم مع تعاليم الإسلام**، بل ولا تتفق مع أخلاق الجهاد وأهدافه وسبله.

٣) علينا أن **نعرض الإسلام للعالم على حقيقته**، دين الرحمة والسلم والتسامح والمساواة والأخوة البشرية، وأن نتوجه إلى العالم كله بهذه الحقيقة.

٤) يجب **السعي إلى تحديد مفهوم الإرهاب**، والتمييز بينه وبين حق الدفاع عن النفس ومقاومة المعتدين. وليس هناك حتى اللحظة تعريف دولي متفق عليه للفظة الإرهاب.

ومن الملاحظ أن كثيراً من الدول الاستعمارية ترفض حتى اللحظة كل الدعوات لتحديد المقصود بمصطلح الإرهاب، وذلك كي يبقى هذا المصطلح فضفاضاً مطاطاً، يتسع لتسويغ كل حرب تشنها هذه الدول المستكبرة ضد كل من يقف في طريق مطامعها[١].

(١) **البيطار:** د. فراس، **الموسوعة السياسية والعسكرية**، دار أسامة، عمان، ط ٢٠٠٣م، ٣/١.

العولمة

(لقد قذفت المقادير بالذكاء العربي في طول العالم وعرضه، بصورة أسرع وأروع مما فعلت بالعقل اليوناني قبل ذلك بألف سنة خلت. لذا عظمت إلى أقصى حدّ الاستثارة الفكرية التي أحدثها وجودهم للعالم أجمع غربي بلاد الصين، كما اشتدّ تمزيق الأفكار القديمة وتطور أخرى جديدة.. وكان العلم يثب على قدميه وثباً في كل موضعٍ وطئته قدمُ الفاتحِ العربيّ).

الأديب والمفكر الإنجليزي جورج هربرت ولز

مفهوم العولمة

برز الحديث عن العولمة (**Globalization**) بشكل واضح أواخر القرن العشرين، ثم أصبحت مع تقدم الوقت من أكثر المفاهيم والمصطلحات تداولاً في العالم[1].

ورغم كثرة استعمال مصطلح العولمة، فقد بقي الاتفاق على تعريف محدد وواضح له أمراً صعباً، وتضاربت المواقف من العولمة في اتجاهين رئيسين:

الإتجاه الأول: يرى في العولمة **مرحلة طبيعية من مراحل التطور البشري**، نتجت عن تطور الثورة المعلوماتية والتقنية للاتصالات والمواصلات، حيث يعرّف أصحاب هذا الاتجاه العولمة بأنها: اتجاه تاريخي نحو انكماش العالم والتفاعل والتأثير المتبادل بين المجتمعات البشرية، إلى حد تذوب معه الحدود الجغرافية والاقتصادية والثقافية والسياسية بين هذه المجتمعات، ويصبح البشر على هذه الأرض وكأنما هم سكان قرية صغيرة.

الإتجاه الثاني: يرى في العولمة **أسلوباً لهيمنة الدول القوية** على الدول الضعيفة والفقيرة، حيث يعرف أصحاب هذا الاتجاه العولمة بأنها: نمط سياسي اقتصادي ثقافي غربي، خرج بتجربته عن حدوده الجغرافية، ليفرض نفسه وهيمنته على الآخرين، فهي وجه جديد لاستعمار وإمبريالية قديمة.

([1]) **عبد الله:** عبد الخالق، **العولمة**، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، ١٩٩٩م، مجلد ٢٨، عدد ٢.

ويمكن التوفيق بين الاتجاهين بأن يقال: إن العولمة هي حقبة تاريخية في سياق التطور البشري، بسبب الثورة التكنولوجية الهائلة، ولما كان الغرب وعلى رأسه أمريكا، هو الذي يمتلك حصة الأسد من هذه الثورة والقوة، فإنه بلا ريب سيستخدمها لمصالحه الخاصة، في المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية وغيرها، وبذلك يصدق القول بأن العولمة إنما تعني (الأمركة) بكل ما تحمله هذه الكلمة من أبعاد ودلالات، وذلك وصفاً للحالة القائمة، إلى أن تنتقل مجتمعاتنا إلى دائرة الفعل والأخذ بأسباب القوة والتقدم[1].

نشأة العولمة

تعد الثورة العلمية والمعلوماتية والتكنولوجية الجديدة التي تكتسح العالم منذ نهايات القرن العشرين، القوة الأساسية المسببة لظهور العولمة، فقد أدت هذه الثورة بكل مظاهرها (مثل انتشار الفضائيات وشبكات الإنترنت وسائر شبكات نقل المعلومات ووسائل المواصلات الحديثة) إلى انكماش العالم، وذوبان المسافات، وسقوط الحدود، وحصول التقارب الزماني والمكاني بين الشعوب، وعملت على تسهيل حركة انتقال الأفراد ورأس المال والسلع والخدمات والمعلومات والأفكار والمفاهيم والأذواق، فيما بين الأمم والثقافات والمجتمعات.

وهكذا تحولت بعض المفاهيم إلى قيم إنسانية مشتركة، كمفاهيم حقوق الإنسان وحماية البيئة والتعددية وحقوق المرأة وغيرها، ومن ناحية أخرى فإن بعض الأمراض الاجتماعية قد صارت هي الأخرى أمراضاً كونية، كالجريمة و العنف والانحلال الخلقي والجنسي، وهو ما لم يكن ليوجد، لولا وجود هذه التقنية العالية في مجال الانتقال والاتصال[2].

مجالات العولمة

للعولمة مجالات عديدة تتجلى آثارها فيها، منها: العولمة السياسية والعولمة الإعلامية والعولمة الأمنية والعولمة الاقتصادية والعولمة الثقافية، لكن التركيز يجري عادة على كل من العولمة الاقتصادية والعولمة الثقافية، كونهما أكثر تلك المجالات تأثيراً في حياتنا.

([1]) **الشاعر:** د. ناصر الدين، **العولمة والخطاب الإسلامي المنشود في ظلها**، مجلة جامعة النجاح الوطنية للأبحاث، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٥م، مجلد (١٩)، عدد (٣).

([2]) **الشاعر:** د. ناصر الدين، **العولمة والخطاب الإسلامي المنشود في ظلها**، مرجع سابق.

العولمة الاقتصادية

وهي أكثر مجالات العولمة اكتمالاً وتحققاً، ومن أهم مظاهرها:

١) ظهور شركات عالمية ومؤسسات اقتصادية دولية موجهة

تتميز العولمة الاقتصادية بظهور الشركات العملاقة العابرة للحدود المتعددة الجنسيات، وبظهور المؤسسات الاقتصادية الدولية، مثل: صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية.

وتسعى الشركات متعددة الجنسيات إلى تحقيق أكبر قدر ممكن من الربح والسيطرة الرأسمالية للدول الغنية على الدول الفقيرة، من خلال ضمان انتقال المواد الخام من الدول الفقيرة إلى المركز الصناعي في الغرب بأسعار زهيدة، وضمان وصول منتجاتها إلى أسواق المستهلكين في الدول الفقيرة بالسعر الذي تريده.

وهنا يأتي دور المؤسسات الاقتصادية الدولية في الضغط على الدول الضعيفة، لإزالة أية تشريعات أو ترتيبات وطنية تعيق الانتقال المتبادل للسلع المنتجة وللمواد الخام، أو تهدف إلى توفير الحماية للمنتجات الوطنية.

٢) تهميش دور الدولة الاقتصادي

تشكل المؤسسات الاقتصادية الدولية العنصر الحاكم في العولمة الاقتصادية، وهي تقوم بفرض قواعد وسياسات اقتصادية على الدول الضعيفة، تهدف إلى تهميش دورها، وتسهيل سيطرة الدول القوية على اقتصادياتها، وعلى سبيل المثال: تنامى دور صندوق النقد الدولي وصلاحياته من خلال المساعدات والقروض، حيث يقوم بربطها بشروط تقلص من الدور الاقتصادي للدولة، مثل المطالبة بالخصخصة وإزالة القيود الجمركية الحامية للسلع الوطنية، والتحكم في عمليات التنمية التي تتم في هذه الدول.

وقد أدى تهميش الدور الاقتصادي للدول النامية، إلى آثار سيئة، مثل: ضعف اقتصادياتها وتبعيتها للدول الغنية، وتراجع دخل الفرد، وزيادة نسبة البطالة والفقر.

٣) الخصخصة

وهي انتقال ملكية مؤسسات القطاع العام (الدولة) إلى القطاع الخاص (الشركات والأفراد)، والخصخصة من الشروط التي تفرضها المؤسسات الاقتصادية الدولية على الدول النامية.

ويرى بعضهم أن خصخصة مؤسسات القطاع العام، تعود بالفائدة على المجتمع، فهي تقضي على الفساد المستشري داخل هذه المؤسسات، والمحسوبيات والرشاوى، والإجراءات الروتينية المعقدة، التي تقتل أي سعي نحو التطور والازدهار.

ورغم وجاهة هذا الرأي، فإنه قد تجاهل مخاطر الخصخصة على الدول النامية، حيث تؤدي إلى انتقال أصول الشركات والمؤسسات الوطنية إلى مستثمرين أجانب وشركات عابرة للقارات، كما تؤدي إلى إهدار حقوق العمال وسائر الشرائح الاجتماعية الضعيفة، والتي غالباً ما تحظى بالرعاية من مؤسسات الدولة لضمان حد أدنى من التعليم والرعاية الاجتماعية والصحية وغير ذلك[1].

العولمة الثقافية

ومن أهم مظاهر العولمة الثقافية:

١) تعميم النمط الثقافي الغربي

إن نزعة الهيمنة لدى الغرب جعلت العولمة الثقافية تحمل في طياتها نوعاً من الغزو الثقافي، الذي يسعى إلى تنميط العالم وتشكيله وفق الرؤية والثقافة الغربية والأمريكية، التي باتت تستخدم آخر ما توصلت إليه التكنولوجيا في مجال الدعاية والنشر والإعلام، لتقديم أمريكا للعالم على أنها نهاية التطور، الذي على جميع شعوب العالم تقمص رموزه ومظاهره واتباع طريقته في الحياة[2].

٢) تسطيح الثقافة

أي تهميش دور القيم والأفكار والأديان والهوية الثقافية الحقيقية، وأصبحت الثقافة - لأي شعب - تعني: جملة الهوايات الرياضية، وأنماط التراث الشعبي المتعلق باللباس التقليدي وبأصناف الطعام، وتم إشغال العالم كله ببرامج التسلية، وفق ما بات يُعرف بالثقافة الشبابية والأغنية الشبابية وغيرها، ويتم هذا التسطيح بوسائل غاية في الإغراء والإثارة، ومن خلال شاشات التلفاز، التي لا يخلو منها بيت، وتبث على مدار الساعة.

---

(١) أنظر في العولمة الاقتصادية: **حنفي وآخرون:** حسن حنفي وصادق جلال العظم، **ما العولمة**، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩م، ص ١٦٧ وما بعدها، **مرزوق:** نبيل، **حول العولمة والنظام الاقتصادي العالمي الجديد**، مجلة العمل العربية الصادرة عن منظمة العمل العربية، آذار، ١٩٩٧م، عدد ٦٨، ص ٣٧ - ٥٨.

(٢) **الجابري:** د. محمد عابد، **العولمة والهوية الثقافية**، مجلة المستقبل العربي، بيروت، ١٩٩٨م، عدد ٢٢٨.

في حين تعاني أكثر فضائياتنا العربية من غياب الرؤية، ومن فقدان الهوية والانتماء، مفضلة صناعة المتعة على أي شيء آخر، بل لقد أسهمت أكثر فضائياتنا العربية في الخضوع لرموز الثقافة الغربية والانبهار بها[1].

عالمية الإسلام وعولمة الغرب

تمتاز رسالة الإسلام بأنها عالمية في طرحها وفي توجهها لكل بني البشر، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾(الأعراف: ١٥٨).

لكن هناك فرقاً كبيراً بين عالمية الإسلام وعولمة الغرب: فعالمية الإسلام هي دعوة للمجتمع البشري كي يلتقي على أسس إنسانية مشتركة، تتمثل في: نشر المبادئ الأخلاقية، والحفاظ على الكرامة الإنسانية، وحقوق الإنسان، والمساواة وإقامة العدل بين الناس، والتعددية، واحترام الثقافات والخصوصيات للمجتمعات البشرية، لأن اختلاف هذه الثقافات سنة إلهية، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(الحجرات: ١٣).

أما عولمة الغرب فهي تمثل تسلط الغرب على المجتمعات البشرية، بفرض عاداته ومفاهيمه، التي تتضمن الكثير من الانحرافات التي يرفضها العقل السليم، وتنطوي على استغلال وقهر الإنسان من جانب الشركات العالمية الكبرى، التي لا هدف لها إلا الربح على حساب القيم والأخلاق والمعتقدات[2].

الموقف المطلوب من العولمة

لقد أصبحت العولمة أمراً واقعاً، وهو ما يجعل الحديث عن رفضها، ضرباً من العبث، ويمكن إيجاز موقفنا المطلوب من العولمة في الآتي:

١) التعامل مع إيجابيات العولمة

ليس كل ما أفرزته العولمة شراً يجب محاربته، فهناك جملة من المفاهيم التي أصبحت قيماً إنسانية مشتركة، وقد سبق الإسلام إلى المناداة بها، مثل:

---

(١) **الشاعر:** د. ناصر الدين، **العولمة والخطاب الإسلامي المنشود في ظلها**، مرجع سابق.

(٢) أنظر: **زقزوق:** محمود، **الإسلام في عصر العولمة**، كلمة له في افتتاح المؤتمر الرابع للفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم في جامعة القاهرة، في ١٩٩٩/٥/٤، وانظر مجلة منبر الإسلام، مايو ١٩٩٩، **الجابري:** د. محمد عابد، **العولمة والهوية الثقافية**، مرجع سابق.

مفاهيم حقوق الإنسان، والحريات الدينية والسياسية والشخصية في إطار القانون، وحقوق المرأة، وحقوق الأقليات، والتعددية السياسية، ومشاركة المواطن في صنع القرار وبناء البلد، وحماية الشرائح الضعيفة في المجتمع، وحل المنازعات الدولية بالطرق السلمية ما أمكن.

وواجبنا في هذا الصدد، إحداث تنمية حقيقية للإنسان والمجتمع في جميع المجالات السياسية والفكرية والاقتصادية، وتشجيع الأنظمة السياسية على الشروع بتحول حقيقي نحو السلوك الديمقراطي، ونحو إشراك المواطن في إدارة الحياة وصناعة القرار، وتشجيع التفكير الإبداعي والفعل الإبداعي، وترسيخ الشعور بالانتماء لديننا وثقافتنا.

٢) تحصين مجتمعاتنا من سلبيات العولمة

لا بد من الحذر من سلبيات العولمة، والتي باتت تهدد مجتمعاتنا وشبابنا على وجه الخصوص، مثل: مفاهيم تسطيح الثقافة، وانتشار ثقافة الاستهلاك، والانبهار بالثقافة الغربية، وشيوع الجريمة والعنف والجنس.

وواجبنا في هذا الصدد، وضع التدابير الوقائية لتحصين مجتمعاتنا، دون أن يقتضي ذلك عزل أنفسنا عن العالم.

٣) إعادة النظر في خطابنا الإسلامي

في عصر العولمة تتمايز الثقافات والمبادئ وطرق التفكير، وتسعى كل أمة إلى عرض ثقافتها بصورة مقبولة للعالم، وتبعث في نفوس أفرادها روح الاعتزاز والثقة والاقتناع.

وواجبنا: إعادة النظر في خطابنا الإسلامي، لعرض الإسلام بصورته النقية الصافية، والإجابة على تساؤلات العصر ومشكلاته بدل الانكفاء على هموم الماضي وقضاياه، ومخاطبة العالم بدل الانكفاء على أنفسنا وذواتنا[1].

([1]) **الشاعر:** د. ناصر الدين، **العولمة والخطاب الإسلامي المنشود في ظلها**، مرجع سابق.

الوحدة السادسة

قضايا معاصرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(الأعراف:٢٨-٢٩)

صدق الله العظيم

محتويات الوحدة وأهدافها

١. **حقوق الإنسان في الإسلام وحرياته العامة**

الهدف: أن يتعرف الطلبة حقوق الإنسان وحرياته العامة وأهميتها في الإسلام، ليحافظوا عليها.

٢. **المرأة في منظور الإسلام**

الهدف: أن يتعرف الطلبة حقوق المرأة في الثقافة الإسلامية ليدافعوا عنها وليتمثلوها في حياتهم العامة والأسرية.

٣. **مسائل فقهية معاصرة**

الهدف: أن يتعرف الطلبة على حُكمِ عَدَدٍ من المسائل المعاصرة.

٤. **مكانة فلسطين الدينية**

الهدف: أن يتعرف الطلبة على مكانة فلسطين وأهميتها الدينية.

حقوق الإنسان في الإسلام

(متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً).

عمر بن الخطاب

ازداد الحديث عن حقوق الإنسان في العصر الحديث، وكثرت الدعوات إلى حمايتها والمحافظة عليها، وتُوِّجَ ذلك بصدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في عام ١٩٤٨م.

وقد قرر الإسلام حقوق الإنسان وأرسى حرياته العامة، وسبق بذلك جميع الأنظمة والدساتير والمواثيق الدولية، بل وتميز عنها.

مظاهر التكريم الإلهي للإنسان

كرم الله تعالى الإنسانَ وفضله على غيره من المخلوقات، قال تعالى: ﴿۞وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ (الإسراء: ٧٠)، ومظاهر هذا التكريم كثيرة، منها:

١ – خَلَقَهُ اللهُ على أحسن صورةٍ وَنَفَخَ فيه من روحه: قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾(التين: ٤)، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ (السجدة: ٧-٩)، يقول الشيخ الغزالي: (وقد أشاع الله نعمة الخلق بين خلائق كثيرة برزت من العدم إلى الوجود، بيد أنّ آدم عليه السلام هو وحده الذي وصفه بقوله: "سويته ونفخت فيه من روحي")[1].

([1]) **الغزالي:** محمد: **علل وأدوية**، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٤م، ص ٨.

٢ – **أسجد له الملائكة:** يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾(الأعراف: ١١)، **يقول الشيخ الغزالي:** (طولبت بالسجود له بعدما تم تكوينه، وعوقب من رفض السجود بالطرد من رحمة الله....، إذ إن الاستهانة بالإنسان هي عند الله عصيان وخيم العاقبة) [١].

٣ – **استخلفه في الأرض، وسخر له سائر المخلوقات:** يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(البقرة: ٣٠)، ويقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾(لقمان: ٢٠).

٤ - **ميزه عن سائر المخلوقات بالعقل والإرادة وحرية الاختيار:** وهذا من أهم مظاهر تكريم الإنسان، فقد منح الله تعالى الإنسان حرية الاختيار، وفضله على سائر المخلوقات بالعقل والإرادة، إلى حد أن الإنسان قد يختار ما يضاد فطرته، فهو الموجود الوحيد الذي يمكن أن يعمل على خلاف فطرته وطبيعته، والملفت أنّ أول تطبيق عملي لحرية الإختيار في الإنسان، كان عصياناً من الإنسان لمن وهبه هذه الحرية وميّزه بها، يوم أكل آدم وزوجه من الشجرة، وذلك ليبيّن لنا الله تعالى ما ميّزنا به من حرية الاختيار، في أصرخ صورها.

وهكذا، نجد أن الإسلام ينظر إلى الإنسان نظرة سامية، ويرفعه مكانة لم يرفعه إليها أحد، فلم تبلغ النظرة إلى الإنسان هذا الحد في أي ميثاق دولي، أو أي إعلان لحقوق الإنسان.

الأخوة الإنسانية والمساواة البشرية

أعلن الإسلام مبدأ الأخوة الإنسانية والمساواة البشرية، فأصل الإنسان واحد، لا يتميز إنسان على آخر على أساس العرق أو اللون أو الإقليم وغير ذلك، يقول الأستاذ الندوي:

(كان الإنسان موزعاً بين قبائل وأمم وطبقات بعضها دون بعض، وقوميات ضيقة، وكان التفاوت بين هذه الطبقات تفاوتاً هائلاً، كالتفاوت بين الإنسان والحيوان، وبين الحر والعبد، وبين العابد والمعبود، لم تكن هناك فكرة عن الوحدة والمساواة إطلاقاً، فأعلن النبي ﷺ بعد قرون طويلة من الصمت المطبق والظلام السائد - ذلك الإعلان الثائر المدهش للعقول المقلب للأوضاع: **(أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لِآدَمَ، وَآدَمُ مِنْ**

---

(١) **الغزالي:** محمد: **علل وأدوية**، مرجع سابق، ص ٩.

تُرَابٍ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ فَضْلُ إِلَّا بِالتَّقْوَى)[1]. وهذا الإعلان يتضمن إعلانين، هما الدعامتان اللتان يقوم عليهما الأمن والسلام، وعليهما قام السلام في كل مكان وزمان، هما: وحدة الربوبية والوحدة البشرية، فالإنسان أخو الإنسان من جهتين، والإنسان أخو الإنسان مرتين: مرة وهي الأساس، لأن الرب واحد، ومرة ثانية لأن الأب واحد، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾(النساء: ١)) [2].

وهكذا سبق الإسلام الإعلان العالمي في المادتين الأولى والثانية، حيث جاء فيهما النص على أصل الإنسان من حيث الخلقة والتساوي.

حقوق الإنسان الشخصية

كفل الإسلامُ للإنسان **حقه في الحياة والسلامة واحترام خصوصياته:**

- فدعا إلى **الحفاظ على حياة الناس**، وعد الاعتداء على نفس واحدة من أكبر الكبائر، واعتداء على البشرية كلها، قال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾(المائدة: ٣٢).

- ودعا الإسلام إلى **سلامة شخص الإنسان** وحرم الاعتداء عليه، يقول النبي ﷺ: **(كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ)**[3].

- كما دعا الإسلام إلى **احترام خصوصيات الإنسان** في مسكنه وأسرته وشرفه، فحرم التجسس وتتبع العورات واقتحام البيوت ودخولها دون إذن من أصحابها، وحرم الظن السيء، وقذف الناس واتهامهم في أعراضهم.

---

(1) خطب النبي ﷺ في وسط أيام التشريق، فقال: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ)** رواه **أحمد** في مسنده، حديث رقم: ٢٣٥٣٦، وقال الهيثمي: **رجاله رجال الصحيح**، أنظر: **الهيثمي**: علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، مرجع سابق، ٢٦٦/٣، وقال الألباني: **صحيح**.

(2) **الندوي:** أبو الحسن، **الإسلام: أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية**، دار المنارة، جدة، ١٩٨٧م، ٣٣.

(3) رواه **مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله حديث رقم: ٢٥٦٤.

وهكذا سبق الإسلام الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في المادة (٣)، التي نصت على حق الإنسان في الحياة والحرية وسلامة شخصه، والمادة (١٢)، التي نصت على عدم جواز انتهاك خصوصيات الإنسان، في مسكنه وأسرته وشرفه.

حقوق الإنسان القضائية

كفل الإسلام للإنسان حقوقه القضائية، وأهم تلك الحقوق:

- **المساواة أمام القانون:** يقول النبي ﷺ: **(وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)**[١]، وقد عزل عمر بن الخطاب ﷺ أحد ولاته لأنه استهزأ بأحد رعاياه، واقتص من والٍ آخر لأنه جلد أحد المواطنين بغير سبب وجيه، وعاقب محمدَ بن عمرو بن العاص ابنَ والي مصر، لأنه اعتدى على قبطي بالضرب، وَهَمَّ بمعاقبة أبيه، لولا أن صَفَحَ القبطيُّ عنه، حيث خاطب عُمَرُ عَمرَاً وابنَه بمقولته الخالدة: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)[٢].

- **المحاكمة العادلة:** دعا الإسلام إلى العدل حتى مع المخالفين، وأرسى مبادئ المقاضاة العادلة، ومنها: (حق الفرد في اللجوء إلى القضاء لرفع أي ظلم يحس به)، (سماع أقوال المدعي والمدعى عليه)، (براءة المتهم حتى تثبت إدانته)، (لا عقاب دون جريمة).

- **تحريم التعذيب:** أكد النبي ﷺ على حرمة تعذيب أي إنسان، حين قال: **(إِنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الذِينَ يُعَذِبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنيَا)**[٣]، وأنكر عمر ﷺ على أحد ولاته، وقد حجز بعض الناس تحت الشمس، بذريعة تأخرهم عن دفع أموال مستحقة عليهم لخزينة الدولة، وأمر بتخليتهم قائلاً: (دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون)[٤].

وهكذا سبق الإسلام الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في المواد (٥ - ١١)، والتي تمنع إدانة أي إنسان أو حجزه دون محاكمة، وتحث على منحه الحق في التقاضي أمام جهة حاكمة نزيهة، كما تحظر التعذيب لأي إنسان.

---

(١) رواه **البخاري**، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم: ٣٢٨٨، ج٣، ص١٢٨٢، ورواه **مسلم**، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود حديث رقم: ١٦٨٨.

(٢) **الصَّلابي:** د. علي محمد، **فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب**، مرجع سابق، ص ٤٢١-٤٣١.

(٣) رواه **مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق، حديث رقم: ٢٦١٣.

(٤) **الواقدي:** أبو عبد الله بن عمر، **فتوح الشام**، دار الجليل، بيروت، ٢٣٧/١.

حقوق الإنسان الاجتماعية

إن المناداة بالحريات العامة لا تكفي لتحرير الإنسان، إذا لم يصاحب ذلك ما يكفل له حقه في التعليم والصحة والضمان الاجتماعي والعمل، إذ ما قيمة حرية الفكر مثلاً لمن لا يملك المسكن ولا يجد قوت يومه؟ وهذا ما تنبه إليه الغرب متأخراً، فازداد اهتمامه بالحقوق الاجتماعية[1]، وهو ما سبق الإسلام إلى تقريره:

- فالإسلام يقرر **حق الضمان الاجتماعي**، إذ ينشئ مجتمعاً متماسكاً متعاضداً، يقوم على الأخوة والبر والتكاتف والتكافل، لسد حاجات المحتاجين.

- كما يكفل الإسلام **حق التعليم** لكل فرد في المجتمع الإسلامي، غنياً كان أم فقيراً، صغيراً كان أم كبيراً، ذكراً كان أم أنثى، مسلماً كان أم غير مسلم، وما من نظام أو دين حث على العلم ورفع من شأنه وميز العلماء، مثلما فعل الإسلام.

- ويؤكد الإسلام على **حق الإنسان في العمل وتولي الوظائف العامة**، ويلقي على عاتق الدولة واجب توفير فرصة العمل لكل مواطن، مع ضمان أجر عادل وحقوق كاملة، ويتيح لكل مواطن أن يتقدم لتولي الوظائف العامة على أساس الكفاءة، ويَعُدُّ توليةَ غير الكفء، على أسس فئوية أو عائلية أو حزبية، خيانة لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين.

حريات الإنسان العامة

كفل الإسلام للإنسان كافة أنواع الحريات الإنسانية، ومن ذلك:

١) حرية التدين

أكد الإسلام على حق الإنسان في اختيار الدين الذي يرتضيه، دون أي إجبار من أحد، وأرسى القرآن الكريم في ذلك قاعدته الخالدة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾(البقرة: ٢٥٦).

وعلى هدي هذه القاعدة سار النبي ﷺ والصحابة ﷺ من بعده، فلم يجبروا يوماً أحداً على اعتناق الإسلام، وتعاملوا مع أصحاب الديانات الأخرى بتسامح غير مسبوق، وكفلوا لهم حرية التعبد، وحموا لهم دور العبادة.

([1]) **الغنوشي:** راشد، **الحريات العامة في الدولة الإسلامية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ص٣٧-٣٨.

وتشير كتب السيرة النبوية إلى أن النبي ﷺ لم يكن يجد حرجاً في زيارة أهل الكتاب داخل بيوت عبادتهم[1]، كما استقبل النبي ﷺ وفد نجران النصراني داخل المسجد النبوي وأكرم ضيافتهم[2].

ولعل الوثيقة الدستورية التي نظمها النبي ﷺ بعد استقراره في المدينة المنورة، خير دليل على محافظة الإسلام على حق التدين والعبادة لأهل الكتاب وللمخالفين له في العقيدة، والوثيقة العمرية شاهدٌ آخر على ذلك.

٢) حرية التفكير والتعبير عن الرأي

كفل الإسلام للإنسان حريته في التفكير وفي التعبير عن آرائه، دون أي اضطهاد أو عقاب أو إكراه.

ويمثل الإسلام ثورة فكرية وعقلية تدعو الإنسان إلى التفكير الحر والتعقل، وتشتد في النكير على أولئك الذين يلغون عقولهم ويُعمون بصائرهم، مكتفين بتقليد آبائهم، ومُسَلِّمينَ بصحة الآراء السائدة، قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾(الزخرف: ٢٢-٢٤).

كما دعا الإسلام إلى احترام آراء الآخرين، والتلطف والتأدب والتواضع في مخاطبتهم، بالحوار الهادئ وبالحسنى، وبألفاظ رقيقة رفيقة لا تُسَفِّهُ آراءَهم، ولا تحقر مذاهبهم، ولنتأمل ذلك الأدب الرفيع في مخاطبة القرآن الكريم للكفار في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(سبأ: ٢٤)، وقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾(الأحقاف: ١٠).

وهكذا سبق الإسلام إلى تقرير الحرية الفكرية وحرية الرأي.

---

(١) في السنن أنه: **(أَتَى نَفَرٌ مِنْ يَهُودٍ فَدَعَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْقُفِّ فَأَتَاهُمْ فِي بَيْتِ الْمِدْرَاسِ....)**، رواه **أبو داود**، كتاب الحدود، باب في رجم اليهوديين، حديث رقم: ٤٤٤٩، ج٤، ص ١٥٥.

(٢) **ابن سعد:** محمد بن سعد، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت، ٣٥٧/١، ابن كثير: إسماعيل بن عمر القرشي أبو الفداء، **البداية والنهاية**، مرجع سابق، ٥٦/٥.

٣) الحرية السياسية والاقتصادية

كفل الإسلام للمواطنين في الدولة الإسلامية الحرية السياسية، وأن يمارسوا حق المشاركة وإبداء الرأي ونقد السلطة الحاكمة.

كما كفل الإسلام للإنسان الحرية في التملك والكسب والعمل، وحرم أكل الأموال بالباطل، ومنع حصر المال في يد فئة دون سواها من الناس.

معالجة الإسلام مشكلةَ الرق

حث الإسلام على معاملة الرقيق بإنسانية لم تعهد من قبل، وساوى في الإنسانية بين الرقيق والسادة، في عالم كان يعد الرقيق من جنس آخر، خُلِقَ ليُستعبد ويُستذل ويخدم سادته[1].

ومن ناحية أخرى، عمل الإسلام على إنهاء مشكلة الرق، ففتح باب تحرير الرقيق على مصراعيه، وجعل من مصارف الزكاة مصرف تحرير الرقيق، واشتملت أكثر كفارات الذنوب في الإسلام على تحرير الرقاب، فما أعظمه من دين!! وقد ربط مغفرة كثير من الذنوب بتحرير الرقيق! رابطاً بذلك تحرير الرقاب بأكثر شيء يقع من الإنسان، ألا وهو الذنوب والأخطاء!

وفي الوقت الذي فتح فيه الإسلام أبواب تحرير الرقيق، فإنه في المقابل سد طرق الاسترقاق، وحصر مصير أسرى الحرب بالمن أو الفداء، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا ﴾(محمد: ٤)

وهكذا فإن الإسلام منذ أن أشرق نوره على البشرية، سعى سعياً حثيثاً إلى معالجة مشكلة الرق، هذه المشكلة الإنسانية التي كانت عرفاً اجتماعياً مستفحلاً لدى الأمم القديمة، من الرومان والفرس والعرب وغيرهم، وقضى عليها بالتدريج، وسبق بذلك الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في المادة (٤)، والتي حظرت الرق.

وقد يقول قائل هنا: لماذا تدرج الإسلام في محاربة الرق، ولم ينهَ المسلمين عنه بنص مُحَرِّمٍ حاسم قاطع؟!

والجواب: أن الرق كان مشكلة مستفحلة في المجتمعات البشرية القديمة، وعادة متأصّلةً يصعب القضاء عليها وإنهاؤها مرة واحدة وبشكل قاطع، لأن ذلك سيخلق مشكلة إنسانية

---

(١) أنظر في النقلة الهائلة التي نقل الإسلام الرقيق إليها، في: **قطب: محمد، شبهات حول الإسلام**، دار الشروق، ط٢٢، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، ص ٣٨ - ٤٣.

أشد خطورة وأكثر امتهاناً وتضييعاً للرقيق من مشكلة الرق ذاتها، ذلك أن العبد نشأ وترعرع في كنف سيده الذي كان مسؤولاً مسؤولية كاملة عن توفير كل أسباب العيش له، من مأكل ومشرب ومسكن وملبس، لذا فإن تحريره كان يعني التخلي عنه وتحميله كل أعباء الحياة ومسؤولياتها فجأة، ولم يكن قد اعتاد شيئاً من ذلك، ويكون تحريره مثل منح الحرية لطفل صغير، بإلقائه فجأة إلى الشارع، يتدبر شؤونه وحياته بنفسه، ولنتخيل المجتمعات البشرية القديمة، وفي كل مجتمع منها مئات آلاف بل ملايين الرقيق، وقد ألقي بهم إلى الشارع دفعة واحدة، ماذا سيكون حالهم وحال المجتمع؟! فتأمل حكمة الإسلام ورحمته!!

ومن هنا فإن الإسلام قد شرع المكاتبة وندب إليها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾ (النور: ٣٣)، والمكاتبة نظام من التحرير التدريجي للرقيق، يقوم على تدريب الرقيق على تحمل المسؤولية والاستقلال في كسب عيشه، واختباره بعد ذلك ثم تحريره، لينطلق إلى الحياة حراً كريماً، لا أن يتحرر من رق العبودية ليستعبده رق أكبر، هو رق التشرد والجوع وذل الحياة وظروفها القاسية[1].

خصائص الرؤية الإسلامية لحقوق الإنسان

لقد سبق الإسلامُ الغربَ بأربعة عشر قرناً، إلى تقرير وتطبيق حقوق الإنسان وحرياته العامة، وهو سبق تشريعي معجز، في وقت كانت البشرية تغرق فيه في ظلام دامس من الظلم والاستعباد والانتهاك الصارخ لحقوق الإنسان الأساسية.

على أن هناك فوارق جوهرية بين الإسلام والغرب فيما يتعلق بهذه الحقوق، تتجاوز تلك المقاربة اللفظية بين نصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية ونصوص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ويمكن توضيح أهم مميزات الرؤية الإسلامية لحقوق الإنسان بالآتي:

١) واجبات دينية مقدسة

إن تكريم الإنسان وتقرير حقوقه في الإسلام، ليس مجرد حقوق لصاحبها أو غيره أن ينزل عنها أو أن ينتهكها، إنما هو تكريم إلهي وحقوق دينية مقدسة، وتكاليف وواجبات شرعية، تكتسب عند المسلم إلزاماً إلهياً لا يجوز له التهاون فيه أو السكوت على انتهاكه، بل يجب

---

(١) نحو هذا أجاب محمد قطب، أنظر: **قطب: محمد، شبهات حول الإسلام**، مرجع سابق، ص ٤٧ - ٦٠.

عليه أن يجاهد في سبيل حمايته، وذلك يكسب هذه الحقوق فعالية وقوة وضمانة لا تتوافر في غير الإسلام[1].

وهذه الرؤية كانت أحد أسس الرسالات السماوية، قال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(الشعراء: ١٦ -١٧)، وهي الرؤية التي فهمها الصحابة ﷺ، وعبر عنها عمر ﷺ في مقولته الخالدة: (**متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً**)[2]، وربعي بن عامر ﷺ حين خاطب رستم، بقوله: (**الله ابتعثنا، والله جاء بنا، لنُخرِجَ مَن شَاءَ من عبادةِ العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيقِ الدّنيا إلى سَعَتِهَا، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام**)[3].

٢) حقوق لكل الناس

إن الإسلام ينادي بتكريم كل إنسان في كل مكان، ويكفل حقوق وحريات الناس جميعاً، دون تمييز بين جنس وجنس أو عرق وعرق، بل دون تمييز بين مسلم وغير مسلم، فبنو آدم كلهم مكرمون دون استثناء.

وأما الغرب، فإنه لا يعني بحقوق الإنسان إلا إنساناً معيناً، هو الإنسان الغربي، الذي ينال حقوقه على حساب الإنسان الآخر، وفي اللحظات التي ينادي بها الغرب بحقوق الإنسان ويهب للدفاع عنها - يتبيّن أن المعنيّ هو الإنسان الغربي، وتكريمه ليس لكونه إنساناً، بل لانتمائه إلى نسق تاريخي واجتماعي وثقافي معين[4]، يقول د. محمد عمارة: (فتطبيقات الحضارة الغربية التاريخية والحديثة والمعاصرة في ميدان حقوق الإنسان، شاهدة على أن الإنسان الذي استحق أن تكفل له هذه الحقوق، إنما كان الإنسان الأبيض الغربي قبل سواه، وأكثر من سواه، وفي أحيان كثيرة دون سواه)[5].

---

(١) **عمارة:** د. محمد، **الإسلام والأمن الاجتماعي**، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ص ٨٣.

(٢) **الصَّلابي:** د. علي محمد، **فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب**، مرجع سابق، ص ٤٢١-٤٣١.

(٣) **الطبري:** محمد بن جرير، **تاريخ الطبري**، مرجع سابق، ٥٢٠/٣، وانظر: **ابن كثير**، إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، مرجع سابق، ٣٩/٧.

(٤) **الغنوشي:** راشد، **الحريات العامة في الدولة الإسلامية**، مرجع سابق، ص ٣٤-٣٥، **الدريني:** د. محمد فتحي، بحث **أصول حقوق الإنسان في التشريع الإسلامي**، منشور ضمن كتاب: دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، للمؤلف، دار قتيبة، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ص ١٢٦.

(٥) **عمارة:** د. محمد، **الإسلام والأمن الاجتماعي**، مرجع سابق، ص ٨٤.

إن تقرير الغرب حقوق الإنسان في نصوص ومواثيق دولية لا يعني شيئاً، ولا يساوي قيمة الورق والحبر الذي كتب به، إذا كان واقع الإنسان لا يزال يسوده الاستعباد والظلم والعدوان والقمع، لقد استعبد النظام الرأسماليُّ الناسَ كلهم، استعباداً جديداً وبأساليب جديدة، لكن الاستعباد هو الاستعباد. فالإنسان لا يزال يموت بمئات الآلاف، بسبب الجوع والمرض والفقر والبؤس والحروب في أفريقيا وغيرها، في حين يتفنن الإنسان الغربي في صناعة طعام لكلابه، وفي إلقاء أطنان من القمح في البحار والمحيطات كي لا يهبط سعرها. والإنسان لا يزال يرزح تحت نظم دكتاتورية فاسدة في معظم دول العالم الثالث، تنتهك الحقوق وتنهب الخيرات، ثم تلقى كل الدعم من الدول الرأسمالية. والإنسان لا يزال يخضع لهيمنة واحتلال الدول الرأسمالية الاستعمارية، التي تستعبده وتنهب خيراته، وتنظر إليه على أنه مجرد كائن استهلاكي، يعيش على ما تنتجه له، ولا يُسمح له بأي استقلال سياسي أو اقتصادي أو اعتماد على النفس.

٣) حرية الإنسان الحقيقية في عبوديته لله تعالى

إن للإسلام رؤيته الخاصة لحرية الإنسان، والتي تختلف عن الرؤية الغربية، حيث يقرر الإسلام أن الإنسان لا يحقق حريته الحقيقية وتكريمه الحقيقي إلا بالعبودية لله تعالى، والتحرر من شهواته وأهوائه وملذاته وماديته، قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾(البينة:١ -٢)، أي إن المشركين لا يمكن أن يتحرروا إلا بعبادة الله تعالى وحده

وبهذا المفهوم العميق للحرية، فإن الإنسان الغربي نفسه، لم يتحرر بعد، ولم يصل منزلته الإلهية، فهو مُستعبد لشهواته وملذاته، وغارق في ماديته، وما يُنادي به الغرب من حقوق وحريات للإنسان لا ينبع من الإيمان بالإنسان كقيمة، إذ الحضارة الغربية حضارة مادية إلهها المادة وسلطانها القوة، والإنسان مختزل في جانبه المادي، وهو ذو طبيعة حيوانية وشهوانية محضة[1].

([1]) **الغنوشي:** راشد، **الحريات العامة في الدولة الإسلامية**، مرجع سابق، ص ٣٤ -٣٥، **عارف:** نصر محمد، **نظريات التنمية السياسية المعاصرة**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ص ١٩٣ وما بعدها.

المرأة في منظور الإسلام

(إنه من المُسَلَّمِ به عالمياً بصفة عامة، أن إصلاحاته "أي محمد" رفعت من قدر المرأة ومنزلتها ووضعها الاجتماعي والشرعي).
المستشرق الإنجليزي هاملتون جب

من أهم القضايا التي أثيرت ولا تزال تثار، قضية المرأة وحقوقها وتحريرها، وتثار مع هذه القضية في كثير من الأحيان شبهات حول موقف الإسلام من المرأة، تزعم أن في الإسلام تمييزاً للرجل على المرأة.

والحقيقة أنه ما من تشريع كَرَّمَ المرأةَ واسترد لها حقوقها مثل الإسلام.

نظرة تاريخية

كانت النظرة العامة والشائعة إلى المرأة عبر العصور، نظرة امتهان وانتقاص تنزل بها عن درجة الإنسانية، وتضعها في منزلة دون منزلة الرجل، وتهضمها حقوقها في شتى المجالات، ومن أهم مظاهر ذلك:

١- **في وثنية الهند:** كانت المرأة بمثابة الأَمَةِ، وكانت النظرة إلى الأرملة نظرة امتهان واحتقار وتجريح، وكانوا يستكثرون عليها أن تعيش بعد زوجها، إلى درجة أنه كان من التقاليد المحترمة التي تدل على وفائها لزوجها، أن تنتحر بعده[1].

٢- **وعند اليونان:** كانت المرأة سلعة تباع وتشترى في الأسواق، وكان أفلاطون يشعر بالضيق لأنه ابن امرأة، وكانت نظرة أرسطو إليها أنها كائن بلا إرادة، وليس في وسعها الرقي إلى مراتب الاستقلال.

٣- **وفي الكتب اليهودية والنصرانية:** يُحمّلونَها وزرَ الخروج من الجنة، وَيَعُدُّونَهَا مصدرَ الخطيئة واللعنة والغواية والنجاسة، وإلى وقت غير بعيد، كان البحث محموماً لتحديد ما إذا

(١) على اعتقاد أنها يجب أن تخدمه في قبره، كما خدمته في حياته، وقد قلت عادة الانتحار بتأثير المسلمين، إلى أن ألغاها الإنجليز في العهد الأخير إلغاء تاماً، أنظر: **الندوي:** أبو الحسن علي الحسني، **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ص٦٨.

كانت المرأة إنساناً أم لا، وهل لها روح أم لا، وإذا كان لها روح، فهل هي روح إنسانية أم روح حيوانية[1].

٤- **وفي الجاهلية:** كان بعض العرب يئدون بناتهم، ويصور لنا القرآن الكريم تلك النفسية والنظرة المهينة للأنثى حين تولد. قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾(النحل: ٥٨ - ٥٩).

٥- **وفي الغرب:** لم يكن القانون الإنجليزي يعطي المرأة الحق في الكسب والتملك، بل لقد أباح بيعها كسائر الأشياء. وفي عام 1793 بعد الثورة الفرنسية صدر في فرنسا مرسومٌ يعدُّ فيه المرأة معدومة الأهلية، كالمجانين والأطفال، وبقي الأمر كذلك إلى أن عُدِّلَ عام ١٩٣٨م، ومع ذلك بقيت أهليتها في القانون الفرنسي مقيدة بقيود إلى الآن، ناشئة عن نظام الأموال المشتركة بين الزوجين، ومن ذلك أن المرأة المتزوجة لا يمكنها التصرف في أموالها الخاصة إلا بإذن الزوج، ولا يكفي إذن المحكمة[2]. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية حتى عام ١٩٢٠ تساوي بين المرأة والعبد، وتحرمهما حقوقهما السياسية.

تكريم الإسلام للمرأة

لقد ثار الإسلام على كل الأوضاع الظالمة للمرأة، والتي تواطأت عليها وتوارثتها كل الفلسفات والمجتمعات والنظم، فرفع من شأنها وأعلى منزلتها، وساواها بالرجل في الكرامة والإنسانية والتكليف والجزاء.

مساواة المرأة بالرجل في الكرامة والإنسانية

قرر الإسلامُ كرامة الإنسان، ولم يفرق في ذلك بين الرجل والمرأة، فالمرأة أخت الرجل، والرجل أخو المرأة، وكلاهما من أصل واحد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾(النساء: ١).

---

(١) **قطب:** محمد، **شبهات حول الإسلام**، مرجع سابق، ص ١٠٦.

(٢) **السباعي:** د. مصطفى، **المرأة بين الفقه والقانون**، دار الوراق، بيروت، ط٧، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ص ٣٦، ناقلاً عن: الزواج، لزهدي يكن، ص٢٢٤.

مساواة المرأة بالرجل في التكاليف والجزاء

خاطب الإسلام كلاً من الرجل والمرأة بالتكاليف الشرعية على حد سواء، وذلك منذ أول تكليف كرَّمَ الله تعالى به الإنسان، حين قال: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(البقرة: ٣٥).

وساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولا يُحَمِّلُ الإسلامُ المسؤوليةَ للمرأة دون الرجل، ولا يلصق بها خطيئة متوارثة، وهي إن زنت أو قتلت، فعقوبتها عقوبة الرجل إذا زنى أو قتل، وهي إن أحسنت وأصلحت، فجزاؤها جزاء الرجل إن أحسن وأصلح، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(النحل: ٩٧).

الحقوق الاجتماعية للمرأة

كفل الإسلام للمرأة حقوقها الاجتماعية، ومن ذلك:

١ - **حقوقها الزوجية والأسرية:** مثل حقها في اختيار زوجها، فلا تُجبَرُ على الزواج من رجلٍ لا تريده، لقول النبي ﷺ: **(لَا تُنْكَحُ الْأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ وَلَا تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَكَيْفَ إِذْنُهَا؟ قَالَ: أَنْ تَسْكُتَ)**[1]. وحقها في حسن المعاشرة، كما قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾(النساء:١٩). وحقها في أن لا تُجبَرَ على البقاء مع زوج لا تريده، خاصة عندما تسوء العشرة، وتزول أسس الوفاق والمودة، فعن ابن عباس ﷺ: **(أَنَّ امْرَأَةَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ مَا أَعْتِبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلَا دِينٍ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إقْبَلْ الْحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً)**[2].

٢ - **حقها في التعليم:** وقد خصَّ النبي ﷺ النساء بيوم لتلقي العلم، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه: **(جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ الرِّجَالُ**

---

(١) رواه **البخاري**، كتاب النكاح، باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها، حديث رقم: ٤٨٤٣، ج٥، ص١٩٧٤، ورواه **مسلم**، كتاب النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت ح. رقم: ١٤١٩.

(٢) رواه **البخاري**، كتاب الطلاق، باب الخلع وكيفية الطلاق فيه، حديث رقم: ٤٩٧١.

بِحَدِيثِكَ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ، تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: اجْتَمِعْنَ فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا، فِي مَكَانِ كَذَا وَكَذَا، فَاجْتَمَعْنَ فَأَتَاهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ وَلَدِهَا ثَلَاثَةً إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنْ النَّارِ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ اثْنَيْنِ؟ قَالَ: فَأَعَادَتْهَا مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ)[1].

٣ - حقها في المشاركة في الفعاليات الاجتماعية: لقد كانت المرأة تشارك بفعالية في المجتمع الإسلامي، وكان من النساء الداعية والمهاجرة والمجاهدة، بل لقد كان أول من آمن بالنبي ﷺ امرأة، هي زوجته خديجة رضي الله عنها، وأول الشهداء امرأة، هي سمية رضي الله عنها.

الحقوق السياسية للمرأة

للمرأة في الإسلام حقوقها السياسية الكاملة: فلها حق التصويت في الانتخابات، حتى إن الرسول ﷺ لم يكتف ببيعة الرجال دون النساء، ولها حق الترشح للمناصب السياسية بشكل عام، ولها أن تُبدي رأيها في الأمور العامة وتنتقد الحاكم، وغير ذلك.

الحقوق الاقتصادية للمرأة

منح الإسلام المرأة حقوقها الاقتصادية كاملة، على النحو الآتي:

١ - جعل الإسلام للمرأة ذمة مالية كاملة ومستقلة، وأصبحت تتصرف في أموالها وتديرها كما تشاء، وتبرم العقود بنفسها أصالة لا وكالة، وتعامل المجتمع بلا وسيط، وليس لأحد أن يجبرها في ذلك على شيء، أو يتصرف لها دون إرادتها، أو يحجر عليها في تصرفاتها، ولو كان أباها أو أخاها أو زوجها.

<u>أفكر:</u> أباح الإسلام زواج المسلم من كتابية، بينما حرَّمَ زواج المسلمة من كتابي، لماذا؟

٢ - أوجب الإسلام للمرأة على الرجل الذي يتقدم لخطبتها الحق في المهر حقاً خالصاً لها، لا يشاركها فيه أبوها أو أخوها، ولا يسترده زوجها، ولا حق لأحد فيه إلا بطيب نفس منها. وليس المهر ثمناً للمرأة أو مقابلاً لتملكها، وإنما هو مجرد تعبير مالي عن رغبة الرجل بالاقتران بها، يؤكدُ مدى جديته واستعداده للإنفاق عليها وتحمل مسؤولياته كاملة، ويُشعر الرجل

---

(1) رواه **البخاري**، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب يعلم النبي أمته من الرجال والنساء مما علمه الله، حديث رقم: ٦٨٨٠،ج٦، ص٢٦٦٦، و رواه **مسلم**، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه، حديث رقم: ٢٦٣٣،ج٤، ص٢٠٢٨.

بخطورة وأهمية ما يقدم عليه من تكوين أسرة وحياة جديدة، فلا يسهل عليه التفريط بزوجته وحياته، وقد دفع مهراً، قد يكون جَمعُهُ كَلَّفَهُ زمناً طويلاً من العمل والكد والتعب.

٣ - أوجب الإسلام للمرأة على الرجل الحق في النفقة، حقاً يلتزم به أبوها وأخوها وزوجها، حقاً لا مِنَّةَ فيه، فكما أن الرجل يعمل خارج البيت ويكسب المال، فإن المرأة تعمل داخل البيت عملاً أشرف وأعظم، ولو قُدِّرَ عملُها بمال، لفاق بكثير مقدار النفقة التي تأخذها من الرجل.

٤ - يفرض الإسلام للزوجة حقوقاً مالية على الزوج حال الانفصال بالطلاق، من مهر مؤجل، ونفقة عدة، وتعويض عن ضرر التعسف في الطلاق إن كان الطلاق تعسفياً.

٥ - وضع الإسلام نظام مواريث محكم يحقق العدل في أبلغ صوره، وقرر للمرأة حقها فيه وأنصفها، بعد أن حُرِمَت منه آلاف السنين.

٦ - وأما عمل المرأة، فإن الإسلام يرى أن عمل المرأة الأول والأعظم، الذي هيأها الله تعالى له بدنياً ونفسياً، وميزها فيه على الرجل، هو تربية الأجيال، وإنشاء نسل جديد، والنسل وحفظه أحد الضروريات الخمس.

ويجب أن لا يشغلها عن هذه الرسالة الجليلة شاغل، فإن أحداً لا يستطيع أن يقوم مقامها في هذا العمل الكبير، الذي عليه يتوقف مستقبل الأمة، وبه تتنامى أعظم ثرواتها، ألا وهي الثروة البشرية.

إلا أن هذا لا يعني أن عمل المرأة خارج بيتها محرم شرعاً، وخاصة إذا دعتها الحاجة إلى ذلك، وقد مارست النساء المؤمنات في عهد النبوة مهناً متنوعة، منها الزراعة وإدارة بعض الأعمال الحرفية والرعي، وعين عمر ﷺ الشفاءَ بنت عبد الله العدوية محتسبة على السوق[1]، وتجاوز هذا النشاط النسائي إلى المشاركة في المجهود الحربي في خدمة الجيش والمجاهدين، بما يقدرن عليه ويُحسِنَّ القيامَ به من التمريض والإسعاف والرعاية.

ولكن العلماء قيدوا عمل المرأة ببعض الشروط، من أهمها:

أولاً: إلتزام المرأة آداب الإسلام وأحكامه إذا خرجت من بيتها، في اللباس والمشي والكلام والحركة وعدم الخلوة.

ثانياً: أن لا يكون عملها على حساب واجباتها الأخرى، خاصة نحو عائلتها.

---

(١) ذكره **المزي**: يوسف بن زكي، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٠ هـ، ٢٠٧/٣٥، **والزرقاني**: محمد بن عبد الباقي بن يوسف، **شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١ هـ، ٣٨٧/١

أناقش: أُبَيِّنُ رأيي الشخصي في عمل المرأة، من خلال الموازنة بين الإيجابيات والسلبيات المترتبة على هذا العمل من الناحية الواقعية.

المرأة والعادات والتقاليد

هذا هو الإسلام، وتلك هي المكانة السامية التي رفع المرأة إليها، وتلك حقوقها المهدرة التي أعاد تقريرها لها، غير أن هذا لا يمنعنا من إنكار بعض العادات والتقاليد في بلادنا والتي تظلم المرأة وتنظر إليها نظرة دونية، وربما يُنسبُ ذلك إلى الإسلام، أو إلى بعض الأحاديث والمنقولات دون تمحيص لسندها أو متنها، والإسلام من ذلك كله براء.

فلا تزال المرأة في بلادنا مُغَيَّبَةً عن دورها الثقافي والسياسي والدعوي والجهادي المنشود، بل حتى ذكر اسمها عند بعض الناس محرم، وصوتها عورة، واستشارة الرجل زوجته عيب يصيبه في رجولته، والقوامة هي قهر الرجل للمرأة، وربما حرم بعض الناس على المرأة المسجد، مع أن النساء ظللن يترددن على المساجد في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، ونهى النبي ﷺ الرجال عن منعهن ذلك الحق[1].

يقول د. الشاعر: (ولما كانت المجتمعات الإسلامية قد فرطت بالكثير من تعاليم الإسلام، فليس عجيباً أن تُضيّع أجزاء من هذه الصورة المشرقة عن المرأة، وأن تركن إلى عادات وتقاليد غير متوائمة مع تعاليم الإسلام. ليس هذا فحسب، بل وأسوأ من ذلك قد حصل، حيث ظهرت بعض التفسيرات الخاطئة للدين بخصوص المرأة، ناسبة إلى الدين عدداً من تلك المفاهيم الجاهلية تحت ضغط العرف من جهة، وتخوفاً من الحداثة وما تحمله من انفتاح من جهة ثانية... وفق هذه التفسيرات يجري محاصرة المرأة وطردها من كل مرافق الحياة بحجج متعددة، بالرغم من النصوص الصريحة، بل والأمثلة الواضحة لمشاركة الصحابيات ونساء صدر الإسلام في شتى المجالات... ولا شك بأن البعض يستغل مبررات عديدة لهذه المحاصرة، مثل سد الذرائع، ومنع الفتنة، وفساد الزمان، وادعاء النسخ، فضلاً

---

(1) استعرض الشيخ الغزالي هذه العادات والتقاليد في بلادنا، بأسلوب سلس منساب ممتع، وبعين ناقدة، وبصيرة نافذة، ومحاكمة إلى أحكام الإسلام وعصر النبوة والخلافة الراشدة، أنظر: **الغزالي:** محمد، **قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة**، دار الشروق، القاهرة، ط٦، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

عن سحب الأحكام الخاصة بزوجات النبي ﷺ لتطبيقها على عموم نساء العالمين... وهذا ما يؤكد أهمية العودة إلى الأصل الذي كان عليه الصدر الأول من المسلمين)[1].

شبهات حول موقف الإسلام من المرأة

إن نظرة الإسلام إلى المرأة والمكانة السامية التي رفعها إليها، لم تتشوه فقط بفعل بعض العادات والتقاليد من المسلمين أنفسهم، بل عملَ على تشويهَهَا أيضاً فئةٌ من أعداء الإسلام والمشككين فيه، زاعمين أن الإسلام قد ظلم المرأة، ووضعها في منزلة دون منزلة الرجل، وقد يُسعفهم في ذلك بعض العادات والتقاليد التي لا تمتُّ إلى الإسلام بصلة، وذلك قد فصّلنا الكلام فيه، وقد يستشهدون ببعض أحكام الإسلام، مثل القوامة والميراث والشهادة، وهذا ما نتوقف عنده هنا.

والرد على هؤلاء نوعان: رد إجمالي، ورد تفصيلي:

الرد الإجمالي:

١) إن مثل هذه الأحكام، إنما هي استثناءات معدودة من أصل المساواة التي قررها الإسلام بين الرجل والمرأة في جملة التكاليف والواجبات والحقوق[2]، ونحن نؤكد أنها استثناءات معدودة، لأن الطاعنين في الإسلام، وربما بعض المسلمين، يبالغون فيصورونها هي الأصل، ويصورون أصل المساواة هو الاستثناء.

٢) إن هذه الاستثناءات اقتضتها بعض الاختلافات الخَلقية والوظيفية والنفسية والعاطفية والوظيفية بين الرجل والمرأة، وهي اختلافات تنوع وتكامل، لا اختلافاتُ تنافر وتنازع وتمييز، وذلك كي يُكمل كل منهما الآخر في الوظيفة، وإلا لما كان هناك معنى لخلق الإنسان نوعين ذكراً وأنثى.

ولو ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة فيما يقتضي الاختلاف، لكانت مساواة فيها ظلم لكل منهما، وهي مِثلُ من يدعو إلى المساواة بين شاب وطفل في مقدار حَملٍ يحملانه، فمثل هذه المساواة فيها ظلم للطفل، ومثل من يدعو إلى المساواة بين شاب وطفل في قدر طعام يأكلانه، فمثل هذه المساواة فيها ظلم للشاب.

---

(١) **الشاعر:** د. ناصر الدين، **"العنف العائلي ضد المرأة: أسبابه والتدابير الشرعية للحد منه"**، مجلة جامعة النجاح الوطنية للأبحاث، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٣م، مجلد (١٧)، عدد (٢).

(٢) **الغزالي:** محمد، **قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة**، مرجع سابق، ص٣١.

والرجل قد يعمل ميكانيكياً أو عاملاً في محجر أو في منجم أو سائقاً لشاحنة، فهل يُناسب أنوثتها أن تمارس مثل هذه الأعمال؟! وهل يقبل الذين يدعون إلى مساواة المرأة بالرجل فيما يقتضي الاختلاف، أن تعمل المرأة في مثل هذه الأعمال؟! وقد أثبتت الدراسات العلمية أن ممارسة المرأة للأعمال التي لا تناسب أنوثتها، تؤثر سلباً على طبيعتها الفسيولوجية والنفسية والأنثوية[1].

٣) إن مثل هذه الاستثناءات قد روعي فيها التكامل والتقابل والتوازن بين الرجل والمرأة، فما من واجب على المرأة إلا ويقابله واجب على الرجل، وما من تفضيل له عليها في شيء، إلا ويقابله تفضيل لها عليه في شيء، كما قال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾(البقرة: ٢٢٨).

وإنما ينشأ تلبيس بعض الناس في تلك الاستثناءات، في تضخيمهم حق الرجل على المرأة، وإغفالهم ما يقابله من حق للمرأة على الرجل، فمثلاً أسند الإسلام القوامة إلى الرجل، ولكنه أوجب عليه في مقابلها النفقة، وأوجب على المرأة أن تقوم بأمور البيت الداخلية، من رعاية وعناية وتربية، ولكنه أوجب على الرجل في مقابل ذلك أن يقوم بشؤون البيت العامة والخارجية.

٤) إن أمثال هؤلاء الطاعنين لا يبرزون استثناءات مقابلة ميّزَ بها الإسلامُ المرأة على الرجل، فقد أوجب الإسلام لها من البر على أولادها ما لم يوجبه للرجل، وهي معفاة من كثير من الواجبات التي أوجبها الإسلام على الرجل، مثل القتال وحضور الجمعة والصلاة والصيام في فترات معينة.

٥) إن هؤلاء الطاعنين ينسون حال المرأة عندهم ونظرتهم إليها، فعلى الرغم من تحسن وضع المرأة في الحضارة الغربية الحديثة عما كانت عليه عند الأمم القديمة، إلا أنها لا تزال تعاني من بعض صور الامتهان، فلا يزال يُنظر إليها لا بوصفها إنساناً مكرماً، بل بوصفها جسداً يُعَرَّى ويُكشَف، ولا تزال تُستَغلُّ أنوثتُها وجمالها للتجارة والإعلان واللهو، فهي في سوق نخاسة وعبودية، ومساواتها وحريتها باتت تعني بالدرجة الأولى، بذلَهَا جسدَها للدعاية والمتعة والفجور.

---

(١) **الغزالي:** محمد، **قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة**، مرجع سابق، ص٣٨ - ٤٠.

الرد التفصيلي:

نوضح فيه أهم الأمور التي عابها هؤلاء على الإسلام:

١) القوامة

قال تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾(النساء: ٣٤).

يظن بعض الناس أن القوامة تعني الفوقية والتعالي، وهو فهم غير صحيح، والمعنى الحقيقي للقوامة هو: القيام بشؤون الزوجة والأسرة، من حيث النفقة ومواجهة الاحتياجات والمشكلات، وهو مفهوم أقرب إلى الخدمة منه إلى السيادة، وإلى التكليف منه إلى التشريف، وإلى العبء منه إلى المكرمة.

وقد ألقى الإسلام على الرجل هذا العبء دون المرأة، لأن الرجل أقدر على مواجهة مشكلات الأسرة واحتياجاتها، وهو الذي يوكل إليه العمل ومواجهة المجتمع، في حين أن المرأة أقدر على الحضانة وتربية الأطفال داخل البيت، لأنها أوفر في العاطفة والحنان، وأكثر استعداداً وميلاً إلى القيام بمثل هذه الوظائف.

وهكذا يتحقق العدل من خلال تلك المقابلة بين الحقوق والواجبات، فالرجال مفضلون على النساء في القدرة على معالجة المشكلات والتحديات الخارجية، والنساء مفضلات على الرجال في القدرة على التعامل مع الأولاد وتربيتهم ومتابعتهم داخل البيت.

ولذلك عللت الآية الكريمة القوامة بتفضيل الرجال على النساء في نواح، والنساء على الرجال في نواح[1].

وبأن عمل الرجل هو خارج البيت، فناسب أن يوكل إليه معالجة المشكلات الخارجية.

٢) الميراث

قال تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾(النساء: ١١).

ولا بد من التنبه إلى عدة أمور في صدد الحديث عن هذه الآية الكريمة:

---

(١) لاحظ أنه قال: ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾(النساء: ٣٤)، ولم يقل: (بما فضلهم علهن)، أنظر: **شلتوت**: د. محمود، **الإسلام عقيدة وشريعة**، مرجع سابق، ص ١٥٧.

- إن الإسلام قرر للمرأة حقها في الميراث بعد أن كانت محرومة منه طوال العصور السابقة، فإذا كان الإسلام يعطيها النصف، فإن غيره كان يهضمها كل حقها في الميراث، ولا يعطيها منه شيئاً.

- إن قاعدة (للذكر مثل حظ الأنثيين)، خاصة بكون الورثة أولاداً ذكوراً وإناثاً، كما يشير إلى ذلك صدر الآية الكريمة المذكورة، وأما في غير هذه الحالة، فإنه في بعض الأحيان، قد يفوق نصيبُ المرأة نصيبَ الرجل[1].

- والسبب في أن الإسلام جعل نصيب البنت نصف نصيب الابن، أن الابن سيُقبلُ على الزواج في المستقبل، وما يأخذه في الميراث زيادة على البنت، سيعيده لها حين يلتزم بمهرها ونفقتها وبناء بيت جديد وأسرة جديدة، وهي في المقابل لن تلتزم بشيء، بل يبقى نصيبها الذي ورثته مُعفىً من أي التزام مالي، ويأتيها عليه زيادة من أخيها أو أبيها أو زوجها المُلزمين بنفقتها.

وهذا هو العدل، أن يكون الغُنم بمقدار الغُرم، وهذا مثال على المقابلة العادلة بين الحقوق، وليس المساواة التامة الظالمة، ومن يطالب بمساواة المرأة بالرجل في الميراث، عليه أن يطالب بمساواة المرأة بالرجل في الأعباء والتكاليف المالية[2].

ولولا إيماننا بعدل الإسلام، لكان الأولى أن يقال: إن الإسلام أنصف المرأة أكثر مما أنصف الرجل، لأن أي أحد لو خُيِّرَ، فإنه سيختار نصيباً خالياً من أي التزام، على نصيبين مُثقلين بكل التزام.

٣) الشهادة

جاء في آية الدين الكريمة قوله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

وهنا قال بعض الناس: إن اعتبار شهادة امرأتين بشهادة رجل مظهر للتمييز ضد المرأة ولتفضيل الرجل عليها، وهذا غفلة منهم عن فهم الآية الكريمة وعن فهم طبيعة المرأة:

- فآية الدَّيْن تتحدث عن المعاملات المالية، مثل البيع والشراء والإجارة وغيرها، وهي معاملات يحضرها ويهتم بها في الغالب الرجل لا المرأة، ويغلب على المرأة إن حصل وحضرت

---

(1) مثال المساواة: الأخوات والإخوة لأم، يشتركون في الثلث، للذكر مثل حظ الأنثى، ومثال أن يفوق نصيبُ المرأة نصيبَ الرجل: لو ماتت امرأة عن بنت وزوج وأب، فللبنت النصف، وللزوج الربع، وللأب الربع.

(2) **السباعي:** د. مصطفى، **المرأة بين الفقه والقانون**، مرجع سابق، ص ٢٩ - ٣١.

شاهدة فيها، أن لا تذكر التفاصيل حين تُدعى إلى الشهادة، فأرشدت الآية الكريمة إلى استشهاد امرأة أخرى معها، (فليست المسألة إذاً مسألة إكرام أو إهانة، وأهلية وعدمها، وإنما هي مسألة تثبت في الأحكام، واحتياط في القضاء بها، وهذا ما يحرص عليه كل تشريع)[١].

ولذلك عللت الآية الكريمة الحكم بخشية ضلالها أي نسيانها، فتذكرها الأخرى، ولذلك قال العلماء: إن شهادة امرأة واحدة تقبل في الأمور التي تهتم بها وتخصها، كالرضاعة وثبوت البكارة والعيوب الداخلية للمرأة[٢].

المرأة وفلسفة النوع الاجتماعي (الجندر)

يبدو أن الحركة التي انطلقت من الغرب في العصر الحديث، للمناداة بتحرير المرأة ونيلها حقوقها ومساواتها بالرجل، قد دخلت مؤخراً مرحلة جديدة وخطيرة، تمثلت بالحركة (النسوية)، الـ(feminism)، وذلك في أواخر القرن الماضي، على أساس فلسفة باتت تعرف بـ (النوع الاجتماعي)، الـ (Gender)، والذي طغت مفاهيمه على أعمال مؤتمر القاهرة للسكان عام ١٩٩٤، ومؤتمر بكين للمرأة عام ١٩٩٥.

والفرق الجوهري بين هذه المرحلة والمرحلة التي سبقتها: أن حركات تحرير المرأة كانت تنادي بمساواة المرأة بالرجل، على أساس مشترك من الرؤية الإنسانية، دون أن تنكر وجود بعض الفروق بين الرجل والمرأة، أما حركة الـ(feminism) الجديدة، فإنها تَدَّعي المطابقة التامة بين المرأة والرجل، وتنكر أية فروق بينهما[٣].

خلاصة مفهوم الجندر

---

(١) **السباعي:** د. مصطفى، **المرأة بين الفقه والقانون**، مرجع سابق، ص ٢٨.

(٢) على أنه لا يبعد أن يقال: إن ما جاء في الآية الكريمة إنما هو إرشاد للأفضل في الإشهاد عند إبرام العقد، من باب زيادة التوثق للحقوق، دون أن يكون ذلك على وجه الإلزام والحتم، ويكون ذلك مثل إرشاد آية الدين نفسها إلى كتابة العقد أو أخذ رهن، مع أن الكتابة والرهن غير واجبين، كما أن الآية الكريمة عللت ما أرشدت إليه في شهادة المرأة بالاحتياط خوف النسيان، ومعنى ذلك أنه لو شهدت امرأة واحدة مع الرجل وحدث أنها بقيت ذاكرة، فلا مانع من قبول شهادتها عند التنازع، يقول الشيخ شلتوت: (وإذا كانت الآية ترشد إلى أكمل وجوه الاستيثاق، وكان المتعاملون في بيئة يغلب فيها اشتغال النساء بالمبايعات وحضور مجالس المداينات، كان لهم الحق في الاستيثاق بالمرأة على نحو الاستيثاق بالرجل، متى اطمأنوا إلى تذكرها وعدم نسيانها، على نحو تذكر الرجل وعدم نسيانه).

(٣) **المسيري:** د. عبد الوهاب، **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة**، مرجع سابق، ٣٢١/١ - ٣٢٢.

تُعَرِّفُ منظمةُ الصحة العالمية (الجندر) بأنه: الخصائص التي يحملها الرجل والمرأة كصفات اجتماعية مركبة، لا علاقة لها بالاختلافات العضوية[١].

ومعنى ذلك: أن فلسفة الجندر ترفض تقسيم المجتمع للناسِ إلى ذكرٍ وأنثى، وترفض تحديد وظيفةٍ أو دورٍ خاصٍّ بكل منهما، وترفض اعتبار الاختلاف العضوي البيولوجي أساساً لمثل هذه التقسيمات والأدوار، وتزعم أن هذه الاختلافات العضوية هي اختلافات ظاهرية شكلية لا أثر لها.

وبالتالي، وحسب هذه الفلسفة، فإن تقسيم الناس إلى ذكور وإناث وتحديد دور لكل منهما خاص به، هو تقسيم صنعته المجتمعات البشرية وثقافاتها وأفكارها التي سادت فيها "النزعة الذكورية".

وأن الشخص الذي يشعر أنه ذكر ويتصرف على وفق ذلك، لا أساس لشعوره إلا لأن المجتمع زرع فيه هذا الشعور بسبب تكوينه البيولوجي.

وكذلك لا أساس لشعور الأنثى بأنها أنثى إلا مثل هذا التأثير الاجتماعي[٢].

نتائج فلسفة الجندر

تترتب على فلسفة الجندر المذكورة نتائج خطيرة، من أهمها:

١ - إذا كان تقسيم الناس إلى ذكر وأنثى لا حقيقة له، وإنما هو نتيجة واقع اجتماعي وشعور داخلي، فإنه يمكن تغيير هذا الواقع وهذا الشعور، بوسائل علاجية وبسياسات تشريعية. وبالتالي من حق الإنسان أن "يتحرر" من الهوية الجنسية التي فرضها المجتمع عليه، ويغير هذه الهوية والأدوار المترتبة عليها. فمن حق الذكر أن يتصرف ويشعر كأنثى، بما في ذلك الزواج من ذكر آخر. ومن حق الأنثى أن تتصرف وتشعر كذكر، بما في ذلك الزواج من أنثى أخرى[٣]. بل ومن حقهم تسجيل هذا الزواج لدى الجهات الرسمية.

٢ - ضرورة الانفكاك من الأسرة باعتبارها إطاراً تقليدياً بالياً لا يجوز حبس أنفسنا عليه، كما يقولون. وضرورة تعدد صورها وأنماطها، ليُتاح إنشاء أسرة من ذكر وذكر، وإنشاء أسرة من أنثى وأنثى، وعدم اعتبار ذلك من الشذوذ[٤].

---

(١) **ديلواني:** طارق، مقال بعنوان: (**الجندر) مفهوم خطير يمرر بين أبنائنا**، منشور على موقع جريدة (السبيل) الأردنية، www.assabeel.info.

(٢) **جرار:** بسام نهاد، **دراسات في الفكر الإسلامي**، مرجع سابق، ص ٣٢١ - ٣٢٢.

(٣) **جرار:** بسام نهاد، **دراسات في الفكر الإسلامي**، مرجع سابق، ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

(٤) **المسيري:** د. عبد الوهاب، **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة**، مرجع سابق، ١٥٧/٢ - ١٦٠.

٣ - ضرورة السعي إلى تغيير الواقع الاجتماعي والتاريخي الذي صيغ بطريقة متحيزة للذكور، كما يقولون. ومن الأمثلة على التغيير الذي يدعون إليه:

- يقولون: يجب تغيير طرق التربية ومناهج التعليم، بحيث يتم محو الفروق الاجتماعية الوظيفية بين الجنسين، فليقرأ الأطفال عن الأميرة التي تنقذ التنين وتنتصر على الأمير، ولترسم الكتب المدرسية صور نساء سائقات شاحنات[١].

- يقولون: يجب تغيير اللغة التي صيغت بطريقة ذكورية، وبما يعمل على إبراز الرموز الأنثوية فيها، وعلى سبيل المثال: يجب دائما أن نقرن ضمير (هو) بضمير (هي)، على النحو: هو/هي، وكلمة (snowman) مثلاً، يجب إعادة كتابتها على النحو: (snowhuman)، أي إنسان الثلج بدل رجل الثلج، وكلمة (women)، يجب إعادة كتابتها على النحو: (womyn)، حتى لا تحتوي كلمة نساء بالإنجليزية على كلمة (men)، أي رجال! وكلمة (God) مثلاً يجب أن نعبر عنها بالضمائر الأنثوية (she،her ،hers)، كما نعبر عنها بالضمائر الذكورية.

- والتاريخ يجب، كما يقولون، إعادة سرده من وجهة نظر (أنثوية).

أتأمّل: يشير بعض دعاة الجندر، إلى أن تسمية التاريخ history، تسمية (ذكورية)، فهو (his)(story)، أي قصته، وأنه يجب إعادة تسميته إلى: (her/his story)، فتأمل هذا الإسفاف!

يقول الدكتور المسيري:

(وكل هذا من لغو الحديث بالطبع، وهو ليس برنامجاً للإصلاح، وإنما هجوم على اللغة البشرية وحدودها وتشويه لها، فهل نحن نفكر في "المقاومة" باعتبارها أنثى، وفي "الصمود" باعتباره ذكراً؟! وهل نفكر في "الأمانة" و"الخيانة"، باعتبارهما إناثاً، أما "الملاك" و"الشيطان"، فنفكر فيهما باعتبارهما ذكوراً؟! وحينما نقول "أبواب"، هل نفكر في أعضاء التذكير، بينما نفكر في أعضاء التأنيث حينما نقول: "بوابات"؟! أم أن هذا هو وجدان الحلوليين الطبيعيين الماديين، الذين يستخدمون الجسد كعنصر أساسي لإدراك كل شيء؟!)[٢].

أناقش: هل صحيح أن القرآن الكريم قد خاطب الذكور دون الإناث؟

---

(١) **جرار:** بسام نهاد، **دراسات في الفكر الإسلامي**، مرجع سابق، ص ٣٤١.

(٢) **المسيري:** د. عبد الوهاب، **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة**، مرجع سابق، ٣٢٨/١ - ٣٣٠.

أثر فلسفة الجندر على المجتمعات

إن هذه الحركة والفلسفة التي تقوم عليها، تتبناها منظمات نسوية غربية استطاعت أن تجعل من هذا المفهوم محل جدل، وأن تخترق بعض المنظمات العالمية التي لها تأثيرها، وأن تعقد مؤتمرات دولية لنشر هذا المفهوم، كان من أشهرها: مؤتمر بكين، عام ١٩٩٥م، حيث حاولت من خلالها فرض رؤيتها وفلسفتها من خلال التأثير في تشريعات الدول المستضعفة، وهي تشريعات تناقض مناقضة صارخة كل القيم والمبادئ الدينية، وتشكل خطراً على الأسرة والمجتمع[١].

وأهم الآليات التي تغلغلت بها هذه الفلسفة والمفاهيم المتعلقة بها إلى المجتمعات العربية والإسلامية: الاتفاقيات الصادرة عن المؤتمرات الدولية. وهي اتفاقيات تحمل طابع الإلزام للدول العربية التي وقعت عليها، ويترتب على عدم تنفيذها ضغوطٌ سياسية واقتصادية.

كما أن للمنظمات الأهلية (مثل بعض لجان عمل المرأة) المدعومة من مؤسسات التمويل الأجنبي، دوراً كبيراً في نشر هذه المفاهيم وتكريسها. وقد تزايد نشاط هذه المؤسسات بشكل كبير في الآونة الأخيرة في المجتمعات الإسلامية والعربية، في مواضيع، مثل: الأسرة وتشريعات الأحوال الشخصية، وحقوق الطفل والمرأة، والثقافة الجنسية[٢].

فلسفة الجندر مناقضة للواقع والعلم

الغريب أن ظهور هذه الفلسفة تزامن مع تطور البحوث العلمية، التي أكدت أن الفروق البيولوجية بين الرجل والمرأة، تنعكس بوضوح على طريقة التفكير والميول والسلوك عند كل منهما، وهو ما يؤكد صدق الإجماع البشري خلافاً لهذه الفلسفة التي برزت إلى الوجود مؤخراً[٣].

---

(١) **جرار:** بسام نهاد، **دراسات في الفكر الإسلامي**، مرجع سابق، ص ٣٢٠.

(٢) **ديلواني:** طارق، مقال بعنوان: (**الجندر) مفهوم خطير يمرر بين أبنائنا**، مرجع سابق.

(٣) **جرار:** بسام نهاد، **دراسات في الفكر الإسلامي**، مرجع سابق، ص ٣٢٣ وما بعدها، على سبيل المثال: إن طفلة بعمر ساعة واحدة، تتصرف بطريقة تختلف عن تصرفات طفل ذكر بنفس العمر، وأيضاً ثبت أنه: تميل النساء أكثر إلى الاهتمام بعالم الأشخاص، بينما يميل الرجل أكثر إلى الاهتمام بعالم الأشياء، وتميل المرأة أكثر إلى الكلام في العواطف، وتعد نفسها ناجحة إذا أفلحت في إقامة علاقات شخصية حميمة، بينما يعد الرجل نفسه ناجحاً إذا أفلح في عالم الأشياء، في صناعته مثلاً، والمرأة أقدر على قراءة الشخصية، ولديها حدس قوي، والرجل أقدر على الإحساس بالمكان والاتجاهات وقراءة الخرائط، أنظر: **المرجع المذكور**.

الموقف الطلوب من فلسفة الجندر

من الواضح أن هذه الفلسفة، تتناقض مناقضة صارخة مع القيم والمبادئ الإسلامية التي أكدت سنة الله تعالى في خلقه، أنه جعلهم نوعين ذكراً وأنثى في أصل الخلقة، مشتركين في الإنسانية وكثير من الوظائف، وبينهما بعض الفروق البيولوجية والنفسية والوظيفية، وكلاهما مكرم عند الله تعالى.

وفي جواب لدار الإفتاء المصرية عن موضوع (الجندر)، جاء فيه: (إن الدعوة إلى ما يطلق عليه (مفاهيم مساواة الجندر)، تدعو البشرية إلى تجربة تخالف الفطرة، وتخالف الموروث الحضاري للبشرية بأسرها، وتخالف ما أجمعت عليه الأديان من قيم ومبادئ، وكل ذلك لمحض خيالات وتوقعات موهومة في أذهان أولئك الداعين، لم ترق إلى مستوى الخيال المبدع)[1].

على أننا هنا لا ينبغي أن نذهب حداً مقابلاً في التطرف وإظهار التباين بين الرجل والمرأة، وكأن كلاً منهما مخلوق من كوكب مختلف، فلا بد من التأكيد مرة أخرى على أن الإسلام قد أكّدَ أصل المساواة بين الرجل والمرأة في الإنسانية وفي جملة التكاليف والواجبات والحقوق، وأن بعض الاختلافات بينهما، إنما هي استثناءات محدودة اقتضتها حكمة الله تعالى في الخلق والتكامل في الحياة.

كما ينبغي التأكيد هنا على أن جزءاً من العادات والتقاليد، تسهم في إيجاد نظرة سيئة للمرأة ومعاملة غير عادلة لها، لا يقرها الإسلامُ.

كما لا بد من إعادة تقييم بعض الاجتهادات الفقهية، خاصة في شؤون الزواج والمرأة والأسرة، في ضوء نصوص الإسلام ومقاصده. إذ الفقه الإسلامي، على عِظَمِهِ، يبقى اجتهادات بشرية، قد تصيب وقد تخطئ، وقد تتأثر بالعادات والتقاليد السائدة، والتي قد تكون عادات وتقاليد بعيدة عن روح الإسلام وتشريعه السامي.

وبمثل هذه المراجعات والرؤى المتوازنة، نقدم أقوى رد على تلك الفلسفات المادية المنحرفة.

([1]) هذه الفتوى منشورة على موقع دار الإفتاء المصرية على الإنترنت: **www.dar-alifta.org**.

مسائل فقهية معاصرة

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾(النساء:٨٣)

تطورت حياة الإنسان في العصر الحديث في شتى المجالات، ونتج عن ذلك ظهور مسائل جديدة وقضايا معاصرة لم تكن معروفة من قبل، تتطلب أحكاماً شرعية، وهو ما انبرى لبيانه فقهاء الشريعة المعاصرون، بالاجتهاد على وفق نصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية ومقاصد التشريع.

ونعرض هنا لبعض تلك المسائل المهمة، وهي:

زواج المتعة، والزواج بنية الطلاق.

وزواج المسيار.

والاستنساخ.

والقتل الرحيم.

زواج المتعة

زواج المتعة هو: الزواج لمدة معينة، ينقضي بانقضائها تلقائياً. ويتم ذكر المدة في العقد، مثل أن يقول الرجل لفتاة: أتزوجك بكذا من المال، لشهر أو لأسبوع أو لسنة. وهو زواج لا يزال موجوداً عند الشيعة إلى الآن.

وقد ذهب عامة الفقهاء إلى حرمته وبطلانه، واستدلوا لذلك بالآتي:

١ - نهي النبي ﷺ عنه كما في الأحايث الصحيحة[١].

٢ - انتفاء صفة الديمومة عنه، وذلك ينافي أهم مقاصد الزواج الشرعية، وهو إنشاء أسرة ورعاية نسل صالح، والذي لا يتحقق إلا إذا اتصف الزواج بالديمومة، يرعى فيه الزوجان بعضهما ويتعهدان أولادهما إلى آخر العمر.

٣ - امتهانه للمرأة، وتشبيهه لها بالسلعة تستأجر إلى وقت ثم تترك بعده.

---

(١) من ذلك قول علي ﷺ: **(إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهى عَنْ الْمُتْعَةِ وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ زَمَنَ خَيْبَرَ)**: رواه **البخاري**، كتاب النكاح، باب نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نكاح المتعة آخرا، حديث رقم: ٤٨٢٥.

الزواج بنية الطلاق

الزواج بنية الطلاق، هو: أن يتزوج الرجل المرأةَ وفي نيته طلاقها بعد مدة معينة. دون أن يشترط ذلك في العقد، والزوجة لا تعرف بذلك غالباً.

أتعلم: من دوافع بعض الشباب إلى الزواج المؤقت بنية الطلاق: زواج الطلبة المبتعثين إلى الدول الغربية مدة بقائهم في تلك البلاد للدراسة ونحوها، أو الزواج من الغربيات مدة كافية للحصول على جنسية بلادهن.

وقد اتفق الفقهاء على حرمة وجود نية لتأقيت عقد الزواج، ولكنهم اختلفوا في تأثيرها في صحة عقد الزواج:

فذهب فريقٌ من الفقهاء إلى أنها لا تؤثر في صحة العقد، خاصة أن تلك النية المحرمة لا تظهر في العقد.

وذهب فريق آخر منهم إلى بطلان هذا الزواج، وحجتهم في ذلك تشبيهه بزواج المتعة، حيث تنتفي فيه الديمومة، وينطوي على ضرر عظيم بالمرأة وعلى امتهان كبير لها، بل قالوا: إنه أولى بالبطلان، لأنه يقوم على غش وخداع للزوجة، بينما في زواج المتعة يكون التأقيت بالتراضي[1].

زواج المسيار

زواج المسيار هو: أن يتزوج الرجل المرأة، شرط أن تتنازل عن حقها في المسكن الشرعي، وترتضي أن تعيش في بيتها أو بيت أهلها، على أن يأتيها زوجها يوماً في الأسبوع أو يوماً في الشهر أو أكثر من ذلك أو أقل حسب ظروفه، فضلاً عن عدم إشهار هذا الزواج الإشهار المطلوب، حيث يبقى إعلانه مقتصراً على فئة محدودة من أولياء الفتاة وأقربائها المقربين.

أتعلم: سمي زواج المسيار، لأن الزوج يسير إلى زوجته ولا تكون في بيته.

---

(1) أنظر استقصاء واسعاً لهذا الموضوع وآراء العلماء وأدلتهم فيه قديماً وحديثاً، في: **الأشقر:** أسامة عمر، **مستجدات فقهية في قضايا الزواج والطلاق**، دار النفائس، عمان، الأردن، ط١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م، ص ٢٠٥ وما بعدها، **آل منصور:** د.صالح بن عبد العزيز، **الزواج بنية الطلاق من خلال أدلة الكتاب والسنة ومقاصد الشريعة**، مكتبة دار الحميضي، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

وقد انتشر هذا النوع من الزواج حديثاً في بعض البلاد الإسلامية، وخاصة بلاد الخليج العربي، بسبب ارتفاع تكاليف الزواج وعزوف الشباب عنه، فتلجأ الفتيات أو أهلهن إلى إعفاء الشباب من هذه التكاليف، رغبة في إعفاف أنفسهن، وقد يكون من أسبابه رغبة الزوج في إخفاء أمر التعدد عن الزوجة الأولى.

حكم زواج المسيار

ذهب فريق من العلماء المعاصرين إلى تحريم هذا النوع من الزواج.

وحجتهم: منافاته أهم مقاصد الزواج، المتمثل في إنشاء أسرة ورعاية نسل صالح سوي، لأن ذلك يحتاج إلى رعاية وعناية وبيت واجتماع بين الأب والأم في أكثر الأوقات، ولا يتحقق ذلك إذا تزوج الرجل المرأة من أجل أن يمر عليها ساعة كل أسبوع أو كل شهر أو كل شهرين، ثم يتركها وأولادها بعد ذلك.

ويرى فريق آخر من العلماء إباحة هذا النوع من الزواج رغم عيوبه.

وحجتهم: أنه وإن كان لا يحقق مقصد الزواج في الإسلام على نحو تام، إلا أنه زواج تام تتوافر فيه أركان العقد الشرعي من إيجاب وقبول وشهود وولي وتوثيق وديمومة، واقتضته الضرورة العملية في بعض المجتمعات.

ويرى هؤلاء أن تنازل الزوجة عن المسكن، إنما هو تنازل طوعي منها عن بعض حقوقها تحت ضغط الظروف، وللإنسان أن يتنازل عن بعض حقوقه[1].

الاستنساخ

جرت سنة الله تعالى في البشر - وفي أكثر الحيوانات أيضاً - أن يتكاثروا بالطريقة المعروفة، حيث يختلط الحيوان المنوي من الرجل بالبويضة من امرأته، وتشتمل كل من نواة الحيوان المنوي ونواة البويضة على عدد من الصبغيات (الكروموسومات) يبلغ نصف عدد الصبغيات التي في الخلية الجسدية للإنسان (٢٣زوجاً)، وعند اتحاد النواتين تتحولان إلى نطفة أمشاج أو لقيحة (الزيجوت)، وتشتمل هذه اللقيحة في نواتها على العدد الكامل من الصبغيات (٤٦ زوجاً)، وتتضمن هذه الصبغيات الصفات الوراثية الكاملة المأخوذة من الزوجين، وتنغرس اللقيحة في رحم الزوجة وتنمو، حتى تولد مخلوقاً مكتملاً بإذن الله تعالى.

---

(١) أنظر تفصيلاً واسعاً لهذا النوع من الزواج وآراء الفقهاء المعاصرين فيه، في: **الأشقر:** أسامة عمر سليمان، **مستجدات فقهية في قضايا الزواج والطلاق**، مرجع سابق، ص١٥٩ وما بعدها.

وقد أتاح التطور النوعي في علم الجينات للعلماء طريقة أخرى لتكاثر الإنسان والكائنات الحية، هي ما يعرف اليوم بـ (الاستنساخ)، وهي طريقة تقوم على أخذ نواة من خلية جسدية، وتشتمل هذه النواة بالطبع على الحقيبة الوراثية الكاملة لصاحبها، ثم يتم إيداع هذه النواة في خلية بويضة منزوعة النواة، وبذلك يتم استبدال نواة البويضة بنواة خلية جسدية، فتتألف بذلك لقيحة تشتمل على حقيبة وراثية كاملة، وتكون كما لو أنها لقيحة لقحت بحيوان منوي، تُغرس في رحم طبيعي أو صناعي، مع توفير العوامل المساعدة على تطورها، حتى تصير جنيناً مكتملاً بإذن الله تعالى، ويكون صورة طبق الأصل[1]، من صاحب الخلية الجسدية الأولى، وتسمى هذه بطريقة الاستنساخ اللاجنسي أو طريقة الإحلال النووي.

وهناك طريقة أخرى هي: الاستنساخ الجنيني، حيث بعد تلقيح الحيوان المنوي للبويضة، تنقسم اللقيحة في الأيام الثلاثة الأولى للحمل، إلى خلايا متطابقة، على شكل متوالية حسابية: إلى خليتين، ثم كل منهما إلى خليتين وهكذا، فتؤخذ خلية من هذه الخلايا وتزرع في رحم، ويتكون منها إنسان مطابق للجنين الذي أخذت منه تلك الخلية[2].

وقد تمت أول عملية استنساخ حيواني عام ١٩٩٧، عندما تمكن العالم وليموت وزملاؤه من استنساخ النعجة دوللي من خلايا نسيج ضرع نعجة بالغة. وأما استنساخ الإنسان فلا تزال فكرته تثير جدلاً كبيراً، ويلقى معارضة دينية وأخلاقية وقانونية شديدة[3].

<u>أتنبّهُ:</u> الاستنساخ ليس خلقاً، فالخالق هو الله تعالى وحده، والعلماء يعجزون عن خلق خلية واحدة مع علمهم بعناصرها الأولية وخصائصها، وإنما هم يتعاملون مع عناصر مخلوقة لله تعالى، ويوفرون لها الظروف الملائمة، كما يقوم المزارع بتوفير الظروف الملائمة للبذرة كي تنمو، فتنمو بإرادة الله تعالى ومشيئته

---

(١) في الصفات الوراثية فقط، وليس في الأخلاق والتفكير والسلوك، وغير ذلك مما يكتسب من البيئة.

(٢) أنظر: **أبو البصل:** د. عبد الناصر، **عمليات التنسيل (الاستنساخ) وأحكامها الشرعية**، بحث منشور في: **دراسات فقهية في قضايا طبية معاصرة**، لعدد من المؤلفين، دار النفائس، عمان، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، ٦٥١/٢ - ٦٦٥.

(٣) **علوان:** د. توفيق محمد، **الاستنساخ البشري بين القران والعلم الحديث**، دار الوفاء، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، ص ١٥ - ١٨، ومن الجدير ذكره، أن أكثر من عشرين دولة أوروبية قررت في بيان جماعي حظر تجارب الاستنساخ على البشر، وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية، وأفتى الفاتيكان بمنعه وتحريمه، أنظر: المرجع المذكور ص ١٠٥.

وخلقه.

حكم الاستنساخ

ذهب الفقهاء المعاصرون إلى تحريم الاستنساخ البشري، في حين أباحوا استنساخ النبات بما تقتضيه مصلحة الإنسان، كما جاء في قرار مجمع الفقه الإسلامي، في دورة مؤتمره العاشر في جدة في المملكة العربية السعودية ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧م[١].

ويرفض الإسلام الاستنساخ البشري، لما ينجم عنه من مخاطر، ومنها:

١) هدر كرامة الإنسان

يضع الاستنساخُ الإنسانَ موضع الحيوان، الذي يتم تكثيره من خلال التجارب داخل المعامل، فضلاً عما قد ينتج عن ذلك من نسخ إنسانية مشوهة

ومن يدري ربما تتحول أعضاء النسخ المنتجة إلى قطع غيار، تتاجر بها الشركات الرأسمالية وتعرضها في السوق، كما تُعرض قطع غيار السيارات والحواسيب وغيرها! وفي ذلك كله من العبث بالإنسان وهدر كرامته ما فيه.

٢) الاعتداء على سنة الله تعالى في الزواج وتكوين الأسر

يؤدي الاستنساخ إلى تكاثر الإنسان، دون حاجة إلى تكوين أسرة.

وربما تقوم شركات رأسمالية خاصة بالاستنساخ، لتلبية أي طلب لـ (تصنيع) إنسان أو عضو وبالمواصفات المرغوبة.

وذلك يَحرِمُ النسلَ المُستنسخَ من ذلك المحضن الطبيعي(الأسرة)، ومن كل ما يوفره له من عاطفة وحنان وتعهد ورعاية، ويَحرِمُه من الأمومة والأبوة والقرابات التي يحتاج إليها في صغره.

٣) إلغاء سنة الله تعالى في اختلاف الناس

لقد خلق الله تعالى الناس مختلفين متنوعين في القدرات والمواهب والأشكال، ليتحقق التكامل بينهم، وفي الاستنساخ قضاء على هذا الاختلاف وإخلال بتوازن المجتمعات، ولنا أن نتصور مجتمعاً يتم فيه (إنتاج) مئات أو آلاف من الناس يتشابهون في كل شيء!

٤) ضياع المسؤولية القانونية

---

(١) **علوان:** د. توفيق محمد، **الاستنساخ البشري بين القران والعلم الحديث**، مرجع سابق، ص ١١٥.

إن التشابه التام بين النُسَخ، سيؤدي إلى التواطؤ على ارتكاب الجريمة، مع أمن أية ملاحقة قانونية، لأن إحدى النسختين إذا ارتكب جريمة، فإنه لا يمكن تمييزه من النسخة الأخرى له[1].

القتل (الرحيم)

القتل الرحيم، هو: (قيام الطبيب بإنهاء حياة مريضه الميئوس من شفائه، شفقة عليه، وإراحة له من آلام مبرحة لا يمكنه تحملها).

وذلك مثل بعض المرضى المصابين بالسرطان أو الإيدز، حين تصاحب هذه الآفات حالات من الألم الشديد يصعب تحملها.

وقد صدرت قوانين في بعض الدول الغربية تبيح مثل هذا النوع من القتل، دون تعرض للتبعات القانونية المترتبة على جريمة القتل[2]، لكن أكثر القوانين في العالم، ومنها قوانين الدول العربية، تنص على عدم السماح بهذا النوع من القتل[3].

تحريم هذا النوع من القتل

اتفق الفقهاء المعاصرون والمجامع الفقهية على تحريم هذا النوع من القتل.

أتنبَّهُ: (القتل الرحيم) يختلف عن (الموت الدماغي)، ففي الاخير صدر قرار لمجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، في دورته الثالثة في عمان (١٩٨٦م)، ومما جاء فيه: الحكم بوفاة الشخص، وترتب جميع الأحكام المقررة شرعاً للوفاة، إذا تبينت فيه إحدى علامتين. الأولى: إذا توقف قلبه وتنفسه توقفاً تاماً، وحكم الأطباء بأن هذا التوقف لا رجعة فيه.والثانية: إذا تعطلت جميع وظائف دماغه تعطلاً نهائياً، وحكم الأطباء الاختصاصيون الخبراء، بأن هذا التعطل لا

---

(1) **أبو البصل:** د. عبد الناصر، بحث **عمليات التنسيل (الاستنساخ) وأحكامها الشرعية**، مرجع سابق، ٦٧١/٢ - ٦٧٥، **فضل الله:** حسين، وآخرون، **الاستنساخ جدل العلم والدين والأخلاق**، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، ص ٩٧ وما بعدها.

(2) كانت هولندا من الدول السباقة في إصدار التشريعات التي تبيح القتل الرحيم، وقد دخل هذا القانون حيز التنفيذ عام ٢٠٠٢ م، ويجيز للأطباء ممارسة القتل الرحيم دون تعرض للمساءلة القانونية.

(3) **البار:** د. محمد علي، **أحكام التداوي والحالات الميئوس منها وقضية موت الرحمة**، دار المنارة، جدة، ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م، ص ٦٩ وما بعدها.

رجعة فيه، وأخذ دماغه في التحلل، وفي هذه الحالة يسوغ رفع أجهزة الإنعاش المركبة على الشخص، وإن كان بعض الأعضاء لا يزال يعمل آلياً بفعل الأجهزة المركبة.

وأسباب تحريم هذا النوع من القتل:

١) الاعتداء على الحياة الإنسانية

إن اتخاذ قرار بإنهاء حياة إنسان مريض، هو قرارٌ على درجة كبيرة من الخطورة، سواء أكان من يتخذ هذا القرارَ طبيبُه أو أهلُه أو هو نفسُه، لأن ذلك منهم قتل نفس معصومة دون مسوغ مشروع، وقد حرم الإسلام ذلك وعده من أكبر الكبائر الموجبة للَّعن والخلود في جهنم والعياذ بالله تعالى، ولأن الله تعالى هو وحده المنعم بالحياة وله وحده الحق في تقدير إنهائها.

وموافقة المريض أو طلبه إنهاء حياته لا يغيّرُ من حكم التحريم شيئاً، لأنه لا يملك حياته ولا اتخاذ القرار بإنهائها، ولذلك حرم الإسلامُ الانتحارَ وعدَّه جريمة كبرى. يقول النبي ﷺ: **(مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا)**[1].

٢) منافاة سنة الابتلاء

شاءت إرادة الله تعالى أن يبتلي عباده في الدنيا، وأمرهم بالصبر، وفي هذا النوع من القتل تضييع لجزاء الصبر على الابتلاء، من تكفير الخطايا ورفع الدرجات.

٣) اليأس من رحمة الله تعالى

إن الإقدام على هذا النوع من القتل فيه يأس من رحمة الله تعالى، وقد نهى الله تعالى عن ذلك، فقال: ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(يوسف: ٨٧).

أفكر: هل يجوز إزهاق روح حيوان، لإراحته من عذاب يعانيه؟

---

(1) رواه **البخاري**، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قاتل النفس، حديث رقم: ١٢٩٧، ج١، ص٤٥٩، ورواه **مسلم**، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، حديث رقم: ١٠٩، ج١، ص١٠٣.

مكانة فلسطين الدينيَّة

﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١ ﴾(الإسراء: ١).

تتبوأ لسطين مكانة مُهمَّة ومقدسة في الإسلام وفي نفوس المسلمين، ففيها يوجد المسجد الأقصى، وهي موئل الأنبياء عليهم السلام ومهد الرسالات، وأرض الرباط والفئة المنصورة.

المسجد الأقصى المبارك:

إنَّ من أهم ما يميز فلسطين من الناحية الدينية هو وجود المسجد الأقصى المبارك فيها، وهو مسجد له أهميته وقداسته في الإسلام، ومن مظاهر ذلك:

١) معجزة الإسراء والمعراج التي تتعلق بالمسجد الأقصى. قال تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١ ﴾(الإسراء: ١).

ومن مظاهر دلالة هذه المعجزة على أهمية هذا المسجد وقداسته:

زيارة أشرف الخلق محمد ﷺ إليه. وعروجه منه إلى السماء بطريقة معجزة، وقد كان يمكن أن يتم العروج إلى السماء من مكة مباشرة لولا الخصوصية التي أراد الله تعالى منحها لهذا المسجد وللبلد الذي هو فيه.

ذلك فضلاً عن ربط هذا المسجد بأشرف المساجد وهو المسجد الحرام.

وفضلاً عن إطلاق كلمة الإسراء على سورة من سور القرآن الكريم، دلالة على أهمية الإسراء إلى هذا المسجد.

٢) مباركة الله تعالى لما حول هذا المسجد، وليس له وحده. فقد ذكرت آية الإسراء الكريمة حلول البركة حول المسجد الأقصى، وذلك أبلغ من الحديث عن حلول البركة فيه، وكأن فيه بركة عظيمة لا توصف، فاضت على ما حوله فباركته.

٣) كون المسجد قِبلة المسلمين الأولى وثاني بيت وضع للناس وثالث مسجد في المنزلة.

فقد استقبل المسلمون المسجد الأقصى في صلاتهم ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً في المدينة المنورة بعد الهجرة، قبل أنْ تتحول القبلة إلى الكعبة المشرفة[1].

وعن أبي ذر الغفاري ﷺ قال: **"قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ؟ قَالَ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ. قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى. قُلْتُ كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ أَرْبَعُونَ سَنَةً"**[2].

ثم هو ثالث الحرمين في المنزلة وثواب الصلاة، أي أنه يأتي بعد المسجد الحرام والمسجد النبوي.

٤) عظم أجر شد الرحال إليه للصلاة فيه: وردت أحاديث في ذلك منها: ما رواه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **"لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى"**[3].

خصائص فلسطين الدينية:

تتميز فلسطين بمكانة دينية مهمة، تظهر في الآتي:

١ - أنها أرض المسجد الأقصى. فهي تكتسب أهمية دينية خاصة، بسبب وجود المسجد الأقصى المبارك فيها كما أسلفنا.

٢ - أنها مهوى الأنبياء عليهم السلام ومهد الرسالات. فالكثير من الأنبياء عليهم السلام عاشوا في فلسطين أو زاروها، ومنهم: إبراهيم واسحق ويعقوب وأيوب وشعيب وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى، عليهم السلام.

٣ - أنها الأرض المقدسة والمبارك فيها للعالمين. فقد بيّن الله تعالى قداستها في قوله: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾(المائدة: ٢١)، وبين الله تعالى بركتها في أربعة مواضع في القرآن الكريم، منها قوله سبحانه: ﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾(الأنبياء: ٧١).

---

(١) رواه **البخاري**، أبواب القبلة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، حديث رقم: ٣٩٠، ج١، ص١٥٥.

(٢) رواه **البخاري**، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: "واتخذ الله إبراهيم خليلاً"، حديث رقم: ٣٢٤٣، ج٣، ص١٢٦٠، ورواه **مسلم**، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٥٢٠، ج١، ص٣٧٠.

(٣) رواه **البخاري**، كتاب أبواب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، حديث رقم: ١١٣٢، ج١، ص٣٩٨، ورواه **مسلم**، كتاب الحج، باب لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد حديث رقم: ١٣٩٧، ج٢، ١٠١٤.

٤ - أنها أرض الرباط والطائفة المنصورة. فقد جاءت أحاديث كثيرة في فضل الشام، ومنها فلسطين. وهي أحاديث وإن كان في صحتها كلام عند العلماء، إلا أنها تدل بمجموعها على معنى صحيح وهو فضل سكنى الشام ولزومها والرباط فيها، وأنها أرض طائفة الحق المنصورة، وهو ما يؤكده مباركة وتقديس القرآن الكريم لهذه الأرض.

من معاني قداسة أرض فلسطين وبركتها

الأرض المقدسة، أي المطهرة. والأرض المباركة، أي التي يكثر فيها الخير ويستقر. وهذا يعني أن الخير الإلهي قد حل في فلسطين، فصارت بركةً للعالمين. وهذا الخير غير محدود بأناس معينين أو بزمن معين. إنما هو لكل الناس، إلى يوم القيامة. وأرض فلسطين هي الأرض التي لا يتجذر فيها باطل، ولا يدوم فيها شر. إنما فيها ينتهي كل ظلم واستكبار، وذلك خير لا ينقضي.

ولنتذكر هنا: أن في أرض فلسطين دار معارك فاصلة، ففيها كانت معركة أجنادين مع البيزنطيين، وفيها كانت المعركة المصيرية مع الصليبيين في حطين. وفيها كانت نهاية المغول، في معركة عين جالوت. وفيها كانت نهاية طموحات نابليون في السيطرة على الشرق. وفيها ستكون نهاية المسيح الدجال ونهاية يأجوج ومأجوج. فهل أدل على بركة هذه الأرض من ذلك؟

واليوم تشكل القضية الفلسطينية، نقطة الصراع بين الأمة وأعدائها، وتشكل توعية واستفزازاً مستمريْن للشعوب الإسلامية، لتعود لذاتها، وتدرك أعداءها، وتحرر البلاد من هذا الظلم الذي يعمها[1].

ففلسطين مسرحٌ دائم للصراع بين الحق والباطل. وهي اليوم تعاني من الاحتلال الغاشم والرابض عليها منذ عقود، وهو يقوم بتهويدها وتهجير أهلها منها وقمعهم بكل الأساليب الوحشية.

وستبقى فلسطين بقعة الصراع بين الحق والباطل إلى يوم الدين، وخط الدفاع الأول عن المسلمين، والصخرة التي تتحطم عليها كل قوى الشر والبغي والعدوان، وهو ما يفسر لنا مباركتها وقداستها دينيا، والحث المتكرر والمستمر من النبي ﷺ على الرحيل إليها ولزوم سكناها والرباط في ثغورها.

---

(1) **جرار:** بسام نهاد، **من أسرار الأسماء في القرآن الكريم**، مركز نون للدراسات والأبحاث القرآنية، البيرة، فلسطين، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، ص ٥٨ - ٦٣.

ولن ينجح الغزاة الجدد فيما يريدون بإذن الله تعالى. وذلك وعد الله تعالى الذي لا يخلف وعده، حيث يقول:

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ (الإسراء:٤ - ٨)، وحين قال: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾(الإسراء: ١٠٤).

وأكثر المفسرين المعاصرين يرون أن الإفساد الثاني متحقق في زماننا، وعناصره واضحة التحقق لكل متأمل في الآيات والواقع.

﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾(الإسراء: ١٠٧ - ١٠٨).

قائمة المصادر والمراجع

- آل منصور: د.صالح بن عبد العزيز، **الزواج بنية الطلاق من خلال أدلة الكتاب والسنة ومقاصد الشريعة**، مكتبة دار الحميضي، الرياض، ط١، ١٩٩٤م.

- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم، **العبودية**، تعليق وتخريج: محمد بن سعيد بن رسلان، دار الإيمان، الاسكندرية، ٢٠٠٣م.
- ابن حبان: محمد بن حبان، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.
- ابن حنبل: أحمد بن محمد، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها، مؤسسة قرطبة، القاهرة، د. ت.
- ابن سعد: محمد بن سعد (ت٢٣٠ هـ)، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت، د. ت.
- ابن عاشور: محمد الطاهر، **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، دار النفائس، عمان، ط١، ٢٠٠١م.
- ابن فارس: أحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د. ت.
- ابن قدامة: عبد الله بن أحمد، **المغني على مختصر الخرقي**، ضبطه وصححه: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ)، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، ضبط وتعليق وتخريج: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر (ت٧٥١ هـ)، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، مراجعة: الشيخ محمد بيومي، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٩٩٩م.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، د. ت.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد، **سنن ابن ماجه**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، دار الفكر، بيروت، د. ت.

- ابن منظور: محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- ابن هشام: عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣ هـ)، **السيرة النبوية**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط ٤، ١٩٨١م.
- أبو البصل: د. عبد الناصر، "**عمليات التنسيل (الاستنساخ) وأحكامها الشرعية**"، بحث منشور في: الأشقر وآخرون، د. عمر سليمان، د. محمد عثمان شبير، د. عبد الناصر أبو البصل، د. عباس الباز، **دراسات فقهية في قضايا طبية معاصرة**، دار النفائس، عمان، ط١، ٢٠٠١م.
- أبو داود: سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود**، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، مع الكتاب: تعليقات كَمَال يوسُفْ الحوُت، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- أبو زهرة: محمد، **دراسات إسلامية في النفس والمجتمع**، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت.
- أبو سليمان: د. عبد الحميد: "الأمن والسلام الإجتماعي، هدف نظام العقوبات الإسلامي"، **مجلة إسلامية المعرفة**، العدد (١٤)، السنة الرابعة، ١٩٩٨م.
- أبو شهبة: د. محمد محمد، **الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير**، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
- أبو فارس: د. محمد عبد القادر، **الجهاد في الكتاب والسنة**، دار الفرقان، عمان، ط١، ١٩٩٨م.
- الأشقر: أسامة عمر، **مستجدات فقهية في قضايا الزواج والطلاق**، دار النفائس، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٠م.
- الأشقر: د. عمر سليمان، **الأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة**، دار النفائس، عمان، ط١، ١٩٩٣م.
- الأصفهاني: الراغب، الحسين بن محمد (ت ٥٠٣ هـ)، **معجم مفردات القرآن الكريم**، ضبطه وصححه وخرج آياته واحاديثه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- الأعظمي، محمد مصطفى: **دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه**، طبعة المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ_١٩٨٠م.

- الألباني: محمد ناصر الدين، **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٥ هـ.
- الألباني: محمد ناصر الدين، **صحيح السيرة النبوية**، المكتبة الإسلامية، عمان،د.ت.
- أمين: د.أحمد محمد، **الدولة الإسلامية والمبادئ الدستورية الحديثة**، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.
- البار: د. محمد علي، **أحكام التداوي والحالات الميئوس منها وقضية موت الرحمة**، دار المنارة، جدة، ط١، ١٩٩٥م.
- البار: د. محمد علي، **خلق الإنسان بين الطب والقرآن**، الدار السعودية، جدة، ط١٠، ١٩٩٥م.
- باعمر: أحمد سالم، **الدبلوماسية بين الفقه الإسلامي والقانون الدولي**، دار النفائس، عمان، ط١، ٢٠٠١م.
- البخاري: محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري)**، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.
- بدوي: د. عبد الرحمن، **الأخلاق النظرية**، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٧٥م.
- البرهاني: محمد هشام، **سد الذرائع في الشريعة الإسلامية**، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٥م.
- البزار: أحمد بن عمرو (ت٢٩٢ هـ)، **مسند البزار**، تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ط١، ١٤٠٩ هـ.
- البغا: د. مصطفى ديب، **نظام الإسلام في العقيدة والأخلاق والتشريع**، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٧م.
- البغدادي: أحمد بن علي ويعرف بالخطيب، ت ٤٦٣هـ، **الكفاية في علم الرواية**، تعليق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦م.
- بني دومي: د. خالد قاسم، **دلالة الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم**، جدارا للكتاب العالمي، عمان، ط١، ٢٠٠٦م.
- بيجوفتش: علي عزت، **الإسلام بين الشرق والغرب**، الناشر: مجلة النور الكويتية، الكويت، ط١، ١٩٩٤م.
- البيطار: د. فراس، **الموسوعة السياسية والعسكرية**، دار أسامة، عمان، ط ٢٠٠٣م.

- البيهقي، أحمد بن الحسين، **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٩٩٤م.
- الترمذي: محمد بن عيسى، **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرين، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- التميمي: عز الدين الخطيب، وآخرون، عبد الرحيم مريش، خالد الحشاش، عزمي طه، فتح الله تفاحة، صالح الخطيب، ممدوح العقيل، **نظرات في الثقافة الإسلامية**، دار الفرقان، عمان، ط٢، ١٩٩٣م.
- ثنيان: سليمان بن إبراهيم، **التأمين وأحكامه**، دار العواصم، بيروت، ١٩٩٣م.
- الجابري: د. محمد عابد، **تكوين العقل العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٧، ١٩٩٨م.
- الجابري: د. محمد عابد، "العولمة والهوية الثقافية"، **مجلة المستقبل العربي**، بيروت، ١٩٩٨م، عدد ٢٢٨.
- جرار: بسام: **دراسات في الفكر الإسلامي**، مركز نون للدراسات والأبحاث القرآنية، البيرة، فلسطين، ط٢، ١٤٢٧هـ.
- جرار: بسام نهاد، **من أسرار الأسماء في القرآن الكريم**، مركز نون للدراسات والأبحاث القرآنية، البيرة، فلسطين، ط١، ٢٠٠٣م.
- الجرجاني: علي بن محمد، **التعريفات**، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- جعفر: د.عبد القادر، **نظام التأمين الإسلامي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.
- الحريري: د.إبراهيم محمود، **المدخل إلى القواعد الفقهية**، دار عمار، عمان، ط١، ١٩٩٨م.
- حنفي وآخرون: حسن حنفي وصادق جلال العظم، **ما العولمة**، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩م
- حوى: سعيد، **المستخلص في تزكية الأنفس**، دار عمار، عمان، بيروت، ١٩٨٢م.
- الحوالي: د. سفر بن عبد الرحمن، **العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة**، الدار السلفية، السعودية، ط ١٩٨٧م.

- خليل: د. عماد الدين: **حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي**، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ٢٠٠٥م.
- الخياط: د. عبد العزيز، **النظام السياسي في الإسلام**، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.
- الدريني: د. محمد فتحي، بحث "**أصول حقوق الإنسان في التشريع الإسلامي**"، منشور ضمن كتاب: دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، للمؤلف، دار قتيبة، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
- الدريني: د. محمد فتحي، **خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
- ديلواني: طارق، مقال بعنوان: **(الجندر) مفهوم خطير يمرر بين أبنائنا**، منشور على موقع جريدة (السبيل) الأردنية، www.assabeel.info.
- الرازي: فخر الدين محمد بن عمر، (ت٦٠٤ هـ)، **تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م.
- الزحيلي: د. وهبة، **آثار الحرب في الإسلام**، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٩٩٨م.
- الزرقا: أحمد محمد، **شرح القواعد الفقهية**، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٨٩م.
- الزرقا: د. محمد أنس: "نظم التوزيع الإسلامية"، **مجلة أبحاث الاقتصاد الإسلامي**، جدة، عدد (١)، مجلد (٢)، ١٩٨٤م.
- الزرقا: مصطفى، **المدخل الفقهي العام**، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.
- الزرقاني: محمد بن عبد الباقي (ت١١٢٢هـ)، **شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١ هـ.
- زقزوق: محمود، **الإسلام في عصر العولمة**، كلمة له في افتتاح المؤتمر الرابع للفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم في جامعة القاهرة، في ١٩٩٩/٥/٤، وانظر مجلة منبر الإسلام، مايو ١٩٩٩.
- الزمخشري: محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ)، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، رتبه وضبطه وصححه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- زيدان: د. عبد الكريم، **أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م.

- زيدان: د. عبد الكريم: **المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية**، دار الوفاء، المنصورة، ط ١٢، ١٩٩٢م.
- السامرائي: د. فاضل صالح، **التعبير القرآني**، دار عمار، عمان، ط١، ١٩٩٨م.
- السامرائي: د. فاضل صالح، **لمسات بيانية في نصوص التنزيل**، دار عمار، عمان، ط٢، ٢٠٠١م.
- السباعي: د. مصطفى، **التكافل الاجتماعي في الإسلام**، دار الوراق، الرياض، السعودية، ط١، ١٩٩٨م.
- السباعي: د. مصطفى، **المرأة بين الفقه والقانون**، دار الوراق، بيروت، ط٧، ١٩٩٩م.
- السباعي: د. مصطفى، **من روائع حضارتنا**، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.
- سعيد: إدوارد: **الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء**، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط٤، ١٩٩٥م.
- السكاكيني: خليل، **كذا أنا يا دنيا (يوميات خليل السكاكيني)**، أعدها للنشر: هالة السكاكيني، المطبعة التجارية، القدس، فلسطين، ١٩٥٥م.
- السيد: عزمي طه، وآخرون، د.كايد قرعوش، د. محمد الشلبي، د. إبراهيم الدبو، د. وليد السعد، د. نصر البنا، د. خالد القضاة، **الثقافة الإسلامية مفهومها مصادرها خصائصها مجالاتها**، دار المناهج، عمان، ط٥، ٢٠٠٣م.
- السيوطي: جلال الدين، ت٩١١هـ، **الإتقان في علوم القرآن**، مراجعة وتدقيق: سعيد المندوه، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- الشاطبي: إبراهيم بن موسى (ت ٧٩٠هـ)، **الموافقات في أصول الشريعة**، ضبط نصه وقدم له وعلق عليه وخرّج أحاديثه: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٩٩٧م.
- الشاعر: د. ناصر الدين. "العنف العائلي ضد المرأة: أسبابه والتدابير الشرعية للحد منه"، **مجلة جامعة النجاح الوطنية للأبحاث**، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٣م، مجلد (١٧)، عدد (٢).
- الشاعر: د. ناصر الدين، "العولمة والخطاب الإسلامي المنشود في ظلها". **مجلة جامعة النجاح الوطنية للأبحاث**. نابلس، فلسطين، ٢٠٠٥م، مجلد (١٩)، عدد (٣).
- شبير: د. محمد عثمان، **المعاملات المالية المعاصرة في الفقه الإسلامي**، دار النفائس، عمان، ط٣، ١٩٩٩م.

- شلبي: د. محمد مصطفى، **المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي وقواعد الملكية والعقود فيه**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥م.
- شلتوت: د. محمود: **الإسلام عقيدة وشريعة**، دار الشروق، القاهرة، ط١٧، ١٩٩٧م.
- شومان: عباس، **العلاقات الدولية في الشريعة الإسلامية**، الدار الثقافية، القاهرة، ١٩٩٩م.
- شيخون: د. محمد، **المصارف الإسلامية: دراسة في تقويم المشروعية الدينية والدور الاقتصادي والسياسي**، دار وائل، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٢هـ.
- الصابوني: محمد علي، **التبيان في علوم القرآن**، دار الصابوني، السعودية، ط٢، ١٩٨٧م.
- الصالح: د. صبحي، **علوم الحديث ومصطلحه**، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٠، ١٩٧٨م.
- الصباغ: محمد بن لطفي، **الحديث النبوي، مصطلحه، بلاغته، كتبه**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٦، ١٩٩٠م.
- الصدر: محمد باقر، مقال بعنوان: **"نظرة عامة في العبادات"** منشور بتاريخ ٢٠٠٧/١١/١٨ على موقع: المركز الإعلامي لمكتب السيد الحسني، alhasany.org.
- صقر: د. محمد : **الاقتصاد الإسلامي: مفاهيم ومرتكزات**، نشر المركز العالمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي، مكة المكرمة، ط١، ١٩٨٠م.
- الصّلابي: د. علي محمد محمد، **فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: شخصيته وعصره**، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
- الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، **مصنف عبد الرزاق**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.
- الطبري: محمد بن جرير (ت ٣١٠ ه)، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥ هـ.
- الطبري: محمد بن جرير (ت ٣١٠ ه)، **تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٤، د. ت.
- عارف: نصر محمد، **نظريات التنمية السياسية المعاصرة**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة، ط١، ١٩٩٢م.

- عباس: د. فضل حسن، وسناء فضل حسن، **إعجاز القرآن الكريم**، دار الفرقان، عمان، ط ١٩٩١م.
- عبد السلام: د. محمد، وآخرون، د. علي السالوس، د. عمر الأشقر، د. محمد غنايم، د. محمد شتيوي، د. رجب شهوان، **دراسات في الثقافة الإسلامية**، مكتبة الفلاح، الكويت، ط٥، ١٩٨٧م.
- عبد الصمد: محمد كامل، **الإعجاز العلمي في الإسلام: السنة النبوية**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط٤، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٧م.
- عبد العزيز: د. أمير: **الثقافة الإسلامية**، دار الحسن، نابلس، فلسطين، ط١، ١٩٨٥م.
- عبد الله: عبد الخالق، "العولمة"، **مجلة عالم الفكر**، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، ١٩٩٩م، مجلد ٢٨، عدد ٢.
- العبيدي: د. خالد فائق، **تفصيل النحاس والحديد في الكتاب المجيد**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- عتر: د. نور الدين، **منهج النقد في علوم الحديث**، دار الفكر، دمشق، ط ٣،٢٠٠٣م.
- علقم: نبيل، **الثقافة العربية والتجديد الإسلامي**، مركز فلسطين للدراسات والنشر، رام الله، فلسطين، ط٢، ٢٠٠٢م.
- علوان: د. توفيق محمد، **الاستنساخ البشري بين القران والعلم الحديث**، دار الوفاء، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.
- علي: محمد سامي محمد، **الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**، دار المحبة، دمشق، ط ١٩٩٣م.
- عمارة: د. محمد، **الإسلام والسياسة**، مركز الراية للتنمية الفكرية، جدة، ط١، ٢٠٠٥م.
- عمارة: د. محمد، **الإسلام والأمن الاجتماعي**، دار الشروق، القاهرة، ط١.
- العوا: د. محمد سليم، **في أصول النظام الجنائي الإسلامي، دراسة مقارنة**، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- عودة: د. عبد القادر، **التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي**، دار الكاتب العربي، بيروت، د. ت.
- الغزالي: محمد، **خلق المسلم**، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ١٩٩٩م

- الغزالي: محمد، **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٩٦م.
- الغزالي: محمد: **علل وأدوية**، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٤م.
- الغزالي: محمد، **الغزو الثقافي يمتد في فراغنا**، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.
- الغزالي: محمد، **قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة**، دار الشروق، القاهرة، ط٦، ١٩٩٦م.
- الغنوشي: راشد، **الحريات العامة في الدولة الإسلامية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- الغنوشي: راشد، **حقوق المواطنة، حقوق غير المسلم في المجتمع الإسلامي**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط٢، ١٩٩٩٣م.
- فضل الله: حسين، وآخرون. د. عادل العوا، عبد الواحد علواني، عدنان السبيعي، فرانسوا أبو مخ، محمد عدنان سالم، د. هاني رزق، د. وهبة الزحيلي، **الاستنساخ جدل العلم والدين والأخلاق**، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م.
- فضل الله: محمد حسين، مقال بعنوان: **(البعد العرفاني والتربوي والعبادي للحج)** منشور على موقع بينات: (**موقع مكتب العلامة السيد محمد حسين فضل الله**)، arabic.bayynat.org.lb.
- الفهداوي: د. عبد الجليل إبراهيم، **خوارق العادات عند المسلمين**، بحث في الخوارق والمعجزات والكرامات في الإسلام استناداً إلى القرآن الكريم والأحاديث وأقوال المتكلمين والمفسرين والمحدثين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م.
- الفيروزآبادي: محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)، **القاموس المحيط**، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
- القرضاوي: د. يوسف، **ابن القرية والكتاب، ملامح سيرة ومسيرة**، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- القرضاوي: د.يوسف، **الإيمان بالقدر**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م.
- القرضاوي: د. يوسف: **تاريخنا المفترى عليه**، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥.
- القرضاوي: د. يوسف، **التطرف العلماني في مواجهة الإسلام**، أندلسية للنشر والتوزيع، المنصورة، ط١، ٢٠٠٠م.
- القرضاوي: د. يوسف، **خطابنا الإسلامي في عصر العولمة**، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.

- القرضاوي: د. يوسف: **دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- القرضاوي: د. يوسف، **العبادة في الإسلام**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٥، ١٩٨٥م.
- القرضاوي: د. يوسف، **فقه الزكاة: دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢١، ١٩٩٤م.
- القرضاوي: د. يوسف، **من فقه الدولة في الإسلام**، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ٢٠٠١م.
- القرضاوي: د. يوسف، **كيف نتعامل مع القرآن العظيم**، ط٦، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٧
- القرضاوي: د. يوسف، **كيف نتعامل مع السنة النبوية**، ط٢، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٢
- القرضاوي: د. يوسف، **السنة مصدراً للمعرفة والحضارة**، ط٥، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٨
- القطان: مناع، **مباحث في علوم القرآن**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٦، ١٩٨٨م.
- قطب: سيد، **التصوير الفني في القرآن**، دار المعارف، القاهرة، ط١١، ١٩٩٤م.
- قطب: سيد، **في ظلال القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٥، ١٩٦٧م.
- قطب: محمد، **شبهات حول الإسلام**، دار الشروق، ط٢٢، ١٩٩٧م.
- قطب: محمد، **المستشرقون والإسلام**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، د. ت.
- اللوح: د. عبد السلام حمدان، **الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**، آفاق للطباعة والنشر والتوزيع، غزة، فلسطين، ط٢، ٢٠٠٢م.
- المبارك: محمد، **نظام الإسلام: العقيدة والعبادة**، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧٠م.
- محسب: د. محيي الدين، **اللغة والفكر والعالم**: دراسة في النسبية اللغوية بين الفرضية والتحقق، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- محمد: د. علي عبد المعطي، **أعلام الفلسفة الحديثة**، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ط ١٩٩٧م.
- مرزوق: نبيل، "حول العولمة والنظام الاقتصادي العالمي الجديد"، **مجلة العمل العربية**، الصادرة عن منظمة العمل العربية، آذار، ١٩٩٧م، عدد ٦٨.

- المزي: يوسف بن زكي (ت٧٤٢ هـ)، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٠ هـ.
- مسلم: مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- المسيري: د. عبد الوهاب: **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة**، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٥م.
- المصري: د. رفيق يونس، **أصول الاقتصاد الإسلامي**، دار القلم، دمشق، سوريا، الدار الشامية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٩٩م.
- المطعني: د. عبد العظيم إبراهيم، **إفتراءات المستشرقين على الإسلام عرض ونقد**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.
- المقدسي: أحمد بن عبد الرحمن، **مختصر منهاج القاصدين**، خرج أحاديثه وعلق عليه: عصام عبد الرحيم، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.
- الميداني: عبد الرحمن حسن حبنكة، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، دار القلم، دمشق، ط٤، ١٩٩٦م.
- الميداني: عبد الرحمن حسن حبنكة، **العقيدة الإسلامية وأسسها**، دار القلم، دمشق، ط٧، ١٩٩٤م.
- النجار: د. زغلول راغب، **الأرض في القرآن الكريم**، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦م.
- النجار: د. زغلول راغب، **الحيوان في القرآن الكريم**، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.
- النجار: د. زغلول راغب، **السماء في القرآن الكريم**، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
- الندوي: أبو الحسن علي الحسني، **الإسلام: أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية**، دار المنارة، جدة، ١٩٨٧م.
- الندوي: أبو الحسن علي الحسني، **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٩م.
- النسائي: أحمد بن شعيب، **المجتبى من السنن (سنن النسائي)**، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٩٨٦م.

- نوفل: أحمد، وآخرون، د. أحمد شكري، د. محمد الصاحب، د. سلطان العكايلة، د. راجح الكردي، د. أحمد العوايشة، **محاضرات في الثقافة الإسلامية**، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، ط٣، ٢٠٠٦م
- النهوم: الصادق، **محنة ثقافة مزورة: صوت الناس أم صوت الفقهاء**، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، ط٣، ٢٠٠٠م.
- هلال: إياد، **المعاهدات الدولية في الشريعة الإسلامية**، دار النهضة الإسلامية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
- الهندي: رحمة الله بن خليل الرحمن (ت١٣٠٨ هـ)، **إظهار الحق**، دراسة وتحقيق وتعليق: د.محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي، دار الجيل، القاهرة، ط٣، ١٩٩٤م.
- الهندي، علي بن حسام الدين، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.
- هندي: د. صالح ذياب: **دراسات في الثقافة الإسلامية**، دار الفكر، عمان، الأردن، ط٩، ١٩٩٣م.
- هونكة: زيغريد، **شمس العرب تسطع على الغرب**، ترجمه عن الألمانية: فاروق بيضون، وكمال دسوقي، وراجعه ووضع حواشيه: مارون عيسى الخوري، دار الجيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٨، ١٩٩٣م.
- هويدي: د. فهمي، **مواطنون لا ذميون**، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٩٩٩م.
- الهيثمي: علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٧هـ
- الواقدي: أبو عبد الله بن عمر، **فتوح الشام**، دار الجليل، بيروت.
- ياسين: د. محمد نعيم، **الإيمان حقيقته أركانه نواقضه**، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ط٥، ١٩٨٧م.

ملحق: أهداف مساق الثقافة الإسلامية وخطته الفصلية

الأهداف العامَّة للمساق:

١- تزويد الطلبة بمفاهيم ثقافية وفكرية سليمة حول طبيعة الإسلام وحضارته وتاريخه ونظامه، وحول موقف الإسلام من عددٍ من القضايا الفكرية المعاصرة، فضلاً عن التعريف بأهم التحديات التي تواجه الإسلام وثقافته.

٢- تعزيز انتماء الجيل إلى أمّتهم وحضارتهم وثقافتهم، وتقوية الوازع الديني القيمي في نفوس الجيل، وخلق الدافع الداخلي للالتزام بتعاليم الإسلام العظيم ومُثله العُليا.

٣- توضيح مرونة الإسلام وقدرته على نفع الإنسان وتحقيق مصالحه وسعادته في الداريْن، وتبيين صلاحيته لإدارة شؤون الناس وتميزه عن غيره من النظم.

الخطة الفصلية المقترحة للكتاب المقرر:

الأسبوع	الموضوع
الأول	**مدخل إلى الثقافة الإسلامية ومصادرها.**
الثاني	القرآن الكريم.
الثالث	السُنة النبوية.
الرابع	العقيدة الإسلامية.
الخامس	الشريعة الإسلامية.
السادس	نظام العبادات.
السابع	النظام الأخلاقي.
الثامن	النظام الاجتماعي.
التاسع	النظام الاقتصادي.
العاشر	النظام الجنائي.
الحادي عشر	النظام السياسي: العلاقات السياسية الداخلية.
الثاني عشر	النظام السياسي: العلاقات السياسية الداخلية.
الثالث عشر	التحديات الداخلية والخارجية التي تواجه الثقافة الإسلامية.
الرابع عشر	العولمة، وحقوق الإنسان.
الخامس عشر	المرأة في منظور الإسلام.
السادس عشر	مسائل فقهية معاصرة، ومكانة فلسطين الدينية.

تم الكتاب بفضل الله تعالى وعونه

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

فتقبل منا يا كريم